جلسات تدبر

الجزء الأول

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشنيان

العبيكان

جلسات تدبر

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

الجزء الأول

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشثري

العبيكان
Obeikan

مؤسسة النبأ العظيم

ⓒ **شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤٢هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان؛ عبدالعزيز بن عبدالرحمن

جلسات تدبر./ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان؛ -الرياض،

١٤٤٢هـ

٣٦٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٣٦٧-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١- التفكر ٢- التأمل ٣- الفكر الإسلامي أ. العنوان

ديوي ٢١٤ ١٢١٧/ ١٤٤٢

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض

طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

تواصل معنا

CONTACT US

مؤسسة النبأ العظيم

تم نشر هذا الكتاب بالتعاون بين مكتبة العبيكان ومؤسسة النبأ العظيم لنشر هُدى القُرآن.

تواصل معنا

CONTACT US

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستهلال

«اللّهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما أُختِلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»[1]. كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قام من الليل يدعو بهذا الدعاء.

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٣٤ رقم ٧٧٠) وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: (٨/ ٣٣٠-٣٣١).

المحتويات

مقدِّمة مؤسسة النبأ العظيم لنشر هدى القرآن الكريم ٩

المقدِّمة ١١

الابتلاء ١٨

الأحزاب ٢٥

الأكمام والأرحام ٣٢

أم حسبتم ٣٨

الأنبياء والاستغفار ٤٣

التحدي ٤٩

التزكية ٥٣

التمكين ٥٨

تخويف وبشارة ٦٤

التهجد ٦٨

جهالة ٧٣

حَافِظُون ٧٨

الحسد ٨٦
حق تلاوته ٩١
السِّحْرُ ٩٨
الحكمة ١٠٦
حياة السعادة ١١٣
خيرُ أمَّة ١٢٠
الدعاء ١٢٦
ربح البيع ١٣٢
الرزق ١٣٨
زيد ١٤٤
زينة المرأة ١٥١
سَنُريهم آياتِنا ١٥٦
الشرف الربَّاني ١٦١
شعائر اللّه ١٦٨
الصالحات ١٧٥
الصَّدِيق ١٨١
صلاةُ السماء ١٨٦
الصلاة الوسطى ١٩٢
العدل ١٩٧
العُلماء ٢٠٣

العمر ٢٠٨
الغالبون ٢١٥
الغُلول ٢٢١
الفتنة ٢٢٧
قالت نملة ٢٣٣
قَدَّرَ فَهَدَى ٢٣٧
القرض الحسن ٢٤١
القَسَم العظيم ٢٤٨
القـوْل ٢٥٢
الكِبْر ٢٦٠
كفارة وتبديل ٢٦٧
الكيل ٢٧٢
المتقون ٢٧٦
المثقال ٢٨١
المُصيبة ٢٨٦
المكر ٢٩١
الميثاق ٢٩٦
نُصِرْتَ يا عمرو ٣٠٠
النُّور ٣٠٥
الهداية ٣٠٩

الوالدان ٣١٦
وَذَكِّرْ ٣٢٢
الورود ٣٢٨
وسوف تُسألون ٣٣٢
وكَهْلًا ٣٤١
اليقين ٣٤٥
يُنفقون ٣٥٠
يوم الظُّلَّة ٣٥٥
خاتمة ٣٦٠

إحدى شركات

مـن إصـداراتنـا

Follow Us

obeikn reader

obeikanpub

كتبنا الصوتية

كتبنا الإلكترونية

لخدمات البيع والتوصيل

مقدِّمة مؤسسة النبأ العظيم
لنشر هدى القرآن الكريم

الحمـدُ لله الذي جعل القـرآن ميدانًا للتَّرقِّي في سُـلَّم العلم والفكر، ونصلّي ونسـلِّم علـى نبينا محمد الذي علّمـه ربُّه وشـرَّفه بالقرآن، فكان أعظمَ إنسان.. أمّا بعد:

فقد سعدنا بزيارة الأستاذ الدكتور/ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثّنيّان، الذي قضى عمره في خدمة التعليم؛ بدءًا بوظيفة معلِّم، إلى أن صار وكيلًا لـوزارة التعليم، ثم عضوًا في مجلس الشـورى. وقد حكى لنا تجربته مع القرآن؛ حيث ذكر أنه خصّص جزءًا من وقته للعيش مع كتاب الله؛ مبتغيًا بذلك التَّرقِّي بالقرآن فهمًا وتدبُّرًا، تصديقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأي مهمّـة أعظم من تعلّم القرآن وتدبّره، كما أخبر المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**خيرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»[(١)].

وقـد أكرمه الله تعالى بالجلـوس مع مائدة القـرآن، عاكفًا على النظر فيه، والتدبُّر في آياته وهداياته في جلسة خاصةٍ يتدبّر فيها آيةً من كتاب الله تعالـى؛ يتفيأ ظلالها وأفياءها، ويقتبس من نورها وهداها، وبين يديه كتب التفسير والسيرة والآثار وكتب العلماء، فيمزجها بخبرته التربوية الطويلة، ثم يدوّن ذلك في جلسـاتٍ ثريةٍ بالمشـاعر والهدايات والآثار والأقوال، ويختمُ برسائل تربوية عملية، فيكون كالعقد الفريد نظمًا ومعنىً.

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٧٩ رقم ٥٠٢٧).

وقد اطّلعنا على سلسلته المباركة (**جلساتُ تدبر**) الجزء الأول، فرأيناه كتابًا سهلًا ممتعًا، يأخذ بفكر القارئ المتدبّر كأنه في حديقةٍ قرآنية تربوية.

والحق أن هذا كله توفيقٌ من الله تعالى له، وهي تجربةٌ مباركةٌ تُذْكَرُ، فصُحبة القرآن، وتخصيص وقتٍ يوميٍّ معه خيرُ منهجٍ، فكثيرٌ من عُلماء الأمّة خَتَمَ عُمرَهُ مع كتاب الله تعالى فكان ختامه مسكًا، وكان من دعاء أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه»(١).

وبحكم عناية مؤسسة النبأ العظيم بمجالس تدبُّر القرآن الكريم وتدارسه، ونشرها في الأمة؛ فقد طلبنا من سعادة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز أن تكون المؤسسة شريكة في نشر هذا الكتاب، الذي هو نتاج جلسات فجريّة مباركة، ويمثّل تجربةً ناجحةً للمتقاعدين وغيرهم؛ الراغبين في ختم أعمارهم بالعيش مع كتاب الله تعالى وتدبّره، فيأنسوا بمجالسته، ويرتقوا بهداياته.

نسأل الله تعالى أن يكتب لهذا العمل القبول والأثر المبارك.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

كتبه: المشرف العام على مؤسسة النبأ العظيم

أ.د محمد بن عبدالله الربيعة

حرّر في: ٢٩/ ٦/ ١٤٤٢هـ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٦٥ رقم ٢٩٥١٠)، وابن بشران في أماليه (رقم ٧٦١)، ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة مرفوعًا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (رقم ١٢١).

المقدِّمة

ما أسعد المسلم بكتاب الله، وهنيئًا لمن رَزَقَهُ اللهُ تأمُّلَ كتابه وتدبُّره، وما أحسن الدعاء المأثور: «**اللهمَّ إني أسألك بكل اسمٍ هو لك؛ سمَّيت به نفسك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء همِّي، وذهاب حُزني وغمِّي**...»(١). وعن سعدٍ عن أبي عبدالرحمن، عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خيرُكُم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»(٢)، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**»(٣).

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يُحبُّ القرآن فهو يُحبُّ الله، وإن كان يُبغض القرآن فهو يُبغض الله ورسوله»(٤). **وقال عثمان بن عفَّان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طَهُرَت قلوبُنا لَما شَبِعَت من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٦-٢٤٧ رقم ٣٧١٢) وصحّحه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٧١ رقم ١٨٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٧٩ رقم ٥٠٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٨٥ رقم ٥٠٣١).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، (١١/ ٢١٦).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، (١١/ ٢١٦).

وإن القارئ المتأمِّل لكتاب الله يجد فيه الشفاء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وفي كتاب الله الأمل والفرج: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]. عن الشعبي قال: «تجَالَس شُقَيْرُ بن شَكْل ومسروق، قال شُقير: إمّا أن تُحدِّث ما سمِعْتَ من ابن مسعود فأُصَدّقُك، وإمّا أن أُحدِّث فتُصدّقني، فقال مسروق: لا، بل حدِّث فأُصدِّقك. فقال شقير: سمعتُ ابن مسعود يقول: إن أكبر آية فرجًا في القرآن: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فقال مسروق: صدقت.

وعن ابن سيرين قال، قال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أيُّ آيةٍ في القرآن أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، ونحوها. فقال عليٌّ: ما في القرآن أوسع من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾»[1].

وعن أبي الكنود قال: «دخل عبدالله بن مسعود المسجد، فإذا قاصٌّ يُذكّر بالنارِ والأغلالِ، قال: فجاء عبدالله حتى قام على رأسه، فقال يا مُذكر: أتُقنط الناسَ من رحمة الله؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾»[2]. هذا وإن الفرج بيد الله، والأمل عند الله، فهو الغافر للذنب، القابل للتوب.

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** «إنما يُعاتب اللهُ أولي الألباب، وإنما

(١) تفسير الطبري، (٢٠/ ٢٢٦).
(٢) تفسير الطبري، (٢٠/ ٢٢٨)، وابن كثير، (٥/ ٤١٨).

الحلال والحرام لأهل الإيمان فإيَّاهم عاتب، وإيَّاهم أمر؛ إن أسرفَ أحَدُهم على نفسه، ألّا يَقْنَطَ من رحمة الله، وأن يُنيب ولا يُبطِئَ بالتوبة من ذلك الإسراف والذنب الذي عمل. وقد ذكر الله في سورة آل عمران المؤمنين حين سألوا الله المغفرة، فقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]»[١]. فينبغي أن يُعلم أنهم قد كانوا يصيبون الإسراف، فأمرهم بالتوبة من إسرافهم. وقال ابن عباس: «تكفَّل الله لمن قرأ القرآن واتَّبع ما فيه، ألا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»[٢].

إنَّ في كتاب الله التربية والمنهج، والهداية والرشاد؛ فالقرآن يخاطب العقل، ويهتمُّ به، ويدفعه نحو التفكير والتمييز؛ ويقود صاحبه نحو الحقّ بالحجّة والإقناع: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتاوى ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: «تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسيرٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسيرٌ لا يُعذَر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمه إلّا الله عَزَّوَجَلَّ، فمن ادَّعَى علمه فهو كاذب»[٣].

هذا وينبغي لنا حين نقرأ القرآن، ونمرُّ بالآيات التي تخاطب العقل، وتحاور الألباب، أن نتوقّف متأمّلين بنظرات عقولنا التي تكبح زمام الشهوات، وتهدينا لدروب الفضيلة: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ

(١) تفسير الطبري، (٢٠/ ٢٢٥).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٨٤).

(٣) مجموع الفتاوى، (٧/ ٢٨٦).

﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]. إنه تكريم إلهي للعقل، وتعظيمٌ له، وتأكيد لأهميته في الهداية، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

وهنيئًا لمن رزقه الله صُحبة كتاب الله وتلاوة آياته، روى مسلم عن النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يُؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران**، وضرب لهما رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أمثال ما نسيتُهنَّ بعد، قال: **كأنَّهُما غَمامَتان أو ظُلَّتان سوداوان بينهما شرْقٌ**(١) **أو كأنهما حِزقان**(٢) **من طير صوافّ**(٣) **تحاجَّان**(٤) **عن صاحبهما**»(٥).

وحين وَفَّقَ الله وأرشد للجلوس مع كتابه العزيز، ونظرتُ ما كتبه الأوائل حول مائدة القرآن؛ عرفتُ حينها كم نحن مُقصِّرون مع هذا العطاء الربَّاني العظيم، وكم كُنَّا غافلين عن تدبّر آياته، فقد وَرَدَ أن عددًا من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يمكثون مُدَّةً طويلة في حفظ السورة من القرآن الكريم. قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلَّ في أعيننا، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدَّة سنين، قيل: ثمان سنين ذكره مالك»(٦).

---

(١) شرق: ضياء ونور.
(٢) حِزقان: أي جماعتان.
(٣) صوافّ: جمع صافّة، وهي طيور تبسط أجنحتها في الهواء.
(٤) تُحاجّان: أي تدافعان.
(٥) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤ رقم ٨٠٥).
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٣/ ٣٣١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل كلامٍ المقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قومٌ كتابًا في فنٍّ من العلم، كالطبّ والحساب ولا يشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلًا جدًّا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم. وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر، ومن التابعين من تلقّى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: عرضتُ المصحف على ابن عباس أُوقِفُهُ عند كل آية منه، وأسألُهُ عنها؛ ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير من مجاهد فحسبك به؛ ولهذا يَعْتَمِدُ على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهُما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنّف في التفسير، يكرر الطُّرُق عن مجاهد أكثر من غيره. والمقصود أن التابعين تلقّوا التفسير عن الصحابة، كما تلقّوا عنهم علم السُّنّة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، كما يتكلمون في بعض السُّنن بالاستنباط والاستدلال»[1].

وحين أقرأ في كتاب الله أتوقّف وأقول: هل أتأمَّل وأتدبَّر وأحرِّك عقلي؟ وهل أعود لكتب التفسير، فأستخلص من أولئك العلماء، وأستكشف المعاني والدلالات عند أولئك العظماء؟ أم أختم ثم أختم، وأُكثِر من القراءة؟ ونظرتُ فيما كتبه ابن قيِّم الجوزية في زاد المعاد حول اختلاف الناس في الأفضلية؛ هل هي السرعة مع كثرة القراءة، أم التأمل والترتيل؟ فوجدته أورد أقوال العلماء في ذلك:

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٣/ ٣٣٢-٣٣٣).

قال: «ذهب ابن مسعود وعبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما إلى أن الترتيل والتدبُّر مع قلّة القراءة أفضل من سرعة القراءة وكثرتها، واحتجَّ أهل هذا القول بأن المقصود من القراءة فهم القرآن وتدبُّره والفقه فيه والعمل به، وقال أصحاب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: كثرة القراءة أفضل، واحتجّوا بحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف**»[١].

وقال ابن القيم: «إن الصواب في هذه المسألة أن يُقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجلُّ وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا؛ فالأول كمن تصدّق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا قيمته نفيسة، والثاني كمن تصدّق بعدد كثيرة من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة»[٢].

وبناءً على هذا الرأي، صرتُ أقرأُ وأتوقّف عند بعض الآيات وأتدبَّرها، وأعود لكتبِ التفاسير، فأجدُ كنوزًا من المعرفة، وأنهارًا من العلم، فدَوَّنتُ بعض ما قرأتُه فيها حول بعض الآيات الكريمة، ونظرتُ في سِير الصحابة والتابعين، ونظرتُ في سير أعلام النبلاء، وأُسْد الغابةِ في معرفة الصحابة، وطبقات ابن سعد، وصفة الصفوة، وتاريخ الطبري، والبداية والنهاية، وكتب أُخرى من كتب التراث، كما نظرتُ فيما كتبه المتأخرون حول سير الصحابة والتابعين (الطنطاوي، خالد محمد خالد، الدكتور عبدالرحمن الباشا) رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعًا، فاستعرتُ بعضًا مما دوَّنُوه عن أولئك الرجال الذين كانت

(١) أخرجه الترمذي في سننه، (٥/ ١٧٥ رقم ٢٩١٠)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٧٧ رقم ١٤١٦).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٧٤).

أخلاقهـم القرآن، وَنَزلَتْ في بعضهم آياتٌ مـن كتاب الله الخالد؛ ليخرج هذا الكتاب الذي أسميته بـ (جلساتُ تَدَبُّرٍ) في عدَّة مجالس، على أمل أن يفيد منها القارئ الكريم، وينتفع بها، وأسأل الله لكل من أسهم في مراجعته وتحكيمه، وإخراجه وتوزيعه وقراءته الأجر والمثوبة.

وما توفيقي إلّا بالله.

المؤلف

د.عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان

١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م

Email: jalasat.tadabur@gmail.com

الابتلاء

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ترى وتقرأ وتسمع بِشَرٍّ أصاب أقوامًا، وفي الوقت نفسه يُقابل ذلك خيرٌ مسَّ آخرين؛ إنَّ ما في الدنيا من خيرٍ وشرٍّ إنما هو فتنةٌ وامتحان. والكل راجعٌ إلى ربه، وهناك للصابرين أجرهم، وللشاكرين ثوابهم، وللساخطين جزاؤهم، وللطاغين حسابهم.

ولقد مضت سنّة الله في خلقه ابتلاءً وتمحيصًا؛ فسيّدُ البشر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عاش تلك الابتلاءات؛ فحين نصره الله وأعزَّه في معركة بدر، جاءت بعدها معركة أُحُد، فقُتِل من أصحابه مَن قُتِل، ونزل القرآن: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩]. ويُبشّرُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الرسولَ والصحابةَ، ذلك الوقت، وكل وقت، بنعيمه وخيره للذائدين عن دين الله، الصادقين في إيمانهم، الذين جادوا بأرواحهم رخيصة في سبيله، فيقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾[محمد: ٤-٦]. ويؤكّد سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وعدَه للسائرين على منهج النبوة، بنصرة دين الله والذَّود عنه، كلٌّ وفق استطاعته، فلا يكلّف الله نفسًا فوق طاقتها، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. وإنّ ما نراه اليوم من

صراع بين الحق والباطل؛ بين المتمسكين بدين الله وخصومهم، ما هو إلا ابتلاء وتمحيص مستمرّ إلى أن تقوم الساعة، فطالما أن الابتلاء كان لرسول الله وصحابته، فأتباعه كذلك سائرون في طريق الابتلاء نفسه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، ترى الظالم في دنياه يرقصُ طربًا وزهوًا بقوته، وينسى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]، ويعيش لذّاتهِ وترَفَهُ الوقتي ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الوقعة: ٤٥]، ويغفل عن الشقاء الدائم ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٣]، ويتكرّر التنبيه الربّاني لعباده المؤمنين، بأن لا يغتروا بالحياة الدنيا، فهي متاعٌ زائل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. فلا يغرّك ويخدعك ما فيه أهل الكفر من نعيمٍ دنيوي، فقد شبّههم الله بالبهائم الراعية.

هي الحياة الدنيا تمحيصٌ وفرز ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]. ونتيجة النجاح في الاختبار هي الجنة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].. وتذكر أن الله معك في كل أوقاتك؛ في سرّك وعلانيتك ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ومن الابتلاءات التعلق بالدنيا؛ فكم يُسَرُّ البشرُ بوعدٍ دُنيوي، وبشارة ذوي السلطة والمال، فلهم الثقة، وعندهم الثروة؛ فالعيون ترنو إليهم، والغبطة لهم ولذويهم، مع أن ما لديهم نعيم زائل، شبَّهَ اللهُ الاستمتاع به بالزهرة السريعة الذبول، وفي ذلك ابتلاءٌ أيضًا ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. فالفتنة ابتلاءٌ

وتمحيـص؛ فكم رأينا من أزهار يانعة وقت الربيع، سـرعان ما تذهب بها الرياح وتـزول. وحين تخفق القلوب، وتنتظر ذاك الوعد البشـري، الذي قـد يتحقق، وقد لا يتحقـق؛ كونه متاعًا بائدًا، فإن كثيرًا من الناس ينسـون الوعـد الربَّاني بخيـر الدنيا ونعيم الآخـرة ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

هو القرآن فيه الشفاء، فحين تهتز العلاقة الزوجية، وتضطرب النفوس، وتضيق الصـدور، ويعيش الزوجان الهمَّ والبلاء والامتحان والقلق، نحو واقعهما واسـتمرار علاقتهمـا الزوجية، فكيف تكون حالـة أطفالهما، إن كان لديهمـا ثمـة إنجاب، فإن العلاج والشـفاء في المدرسـة القرآنية، في سـورة الطلاق آيـاتٌ متلاحقات، هداية لطريق المـودة والحب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فكُن مع الله واتّقه، يكن معك، وتجد الطمأنينة والسـكينة، وَكِلْ أمرك لله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. لـو لجأت تلك الأسـرُ المضطربةُ إلـى ربِّها، وفوّضت أمرها إليه لوجدت العلاجَ واليُسْـرَ بعد العسـر ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]، إن ما يحصل بين ذلك الزوجين؛ من لغطٍ وزلل وملاسنة، ما هـو إلا ابتلاء وامتحان، وعلاجه القرب من الله، والتسـليم لله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥]. لا تقلق على رزقك، وعلاقتك الزوجية، ومعاشك الدنيوي ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧]. اقترب من ربك، واتَّقِه، وآمن به، وثق بوعده، وصدّق ما نزل في كتابه ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [الطلاق: ١٠]. إيَّاك أن تكِل أمورك للبشـر، وتنسـى وعد ربِّ البشر على لسان خير البشر ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١١].

ذاك عُروة بن الزبير ينزلُ به البلاء بموت ابنه، وبتر قدمه، فيُقدِّم دروسًا عظيمةً في الصبر والاحتساب، وتظلُّ سيرته عِطرًا تتهاداه الأجيال، ففي ذات سنة من خلافة الوليد بن عبدالملك، شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يمتحن عروة بن الزبير امتحانًا، لا يَثْبتُ له إلا ذوو الأفئدة التي عَمَرَها الإيمان، وأتْرَعَها اليقين، فلقد دعا خليفة المسلمين عُروةَ بن الزبير لزيارته في دمشق، فلبّى دعوته، وصَحِب معه أكبر بَنيه...، فلمّا قَدِم على الخليفة رَحَّب بمقدمه أعظم الترحيب، وأكرم وفادته أوفى الإكرام، وبالغ في الحفاوة به. ثم شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؛ ذلك أن ابن عُروة دخل على اصطبل الوليد، ليتفرّج على جياده الصافنات، فرَمَحَته دابّةٌ رمحةً قاضية أودت بحياته.

ولم يكد الأب المفجوع ينفض يديه من تراب قبر ولده، حتى أصابت إحدى قدميه (الآكلة)[1]؛ فتورّمت ساقه، وجعل الورم يشتد ويمتد بسرعةٍ مذهلة، فاستدعى الخليفة لضيفه الأطباء من كل جهة، وحضَّهم على معالجته بأي وسيلة...، لكن الأطباء أجمعوا على أنه لا مَنْدُوحَةَ[2] من بتر ساق عروة قبل أن يَسري الورم إلى جسده كله، ويكون سببًا في القضاء عليه...، فلم يجد بُدًّا من الإذعان لذلك، ولما حضر الجراح لبتر الساق، وأحضر معه مَبَاضِعَه[3] لشقِّ اللحم، ومناشيره لنشر العَظم، قال الطبيب لعروة: أرى أن نُسقيك جُرعةً من مُسْكرٍ؛ لكيلا تشعر بآلام البتر المبرحة، فقال: هيهات...، لا أستعينُ بحرامٍ على ما أرجوه من

(١) الآكلة: داءٌ يصيب العضو فيأتكل منه.
(٢) لا مندوحة: لا بُدّ ولا مفر.
(٣) المبضع: آلة يشق بها الطبيب الجلد.

العافية، فقال له: إذن نَسقيك المخدِّر، فقال: ما أُحبُّ أن أُسلَبَ عضوًا من أعضائي دون أن أشعر بألمه، وأحتسبُ ذلك عند الله.

ولما همَّ الجراح بقطع الساق، تقدّم نحو عروة طائفة من الرجال، فقال: ما هؤلاء؟! فقيل له: لقد جِيءَ بهم ليُمسكوك، فلربّما اشتد عليك الألم؛ فجذبتَ قدمك جَذبةً أضرّت بك، فقال: رُدُّوهم... لا حاجة لي بهم، وإنّي لأرجو أن أكفِيَكُم ذلك بالذكر والتسبيح...، ثم أقبل عليه الطبيب، فقطع اللحم بالمِبضع...، ولما بلغ العَظم وضع عليه المنشار وطفق ينشره به، وعروة يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وما فتئ الجراح ينشر، وعروة يُهلل ويُكبِّر حتى بُترت الساق بترًا، ثم أُغلي الزيت في مغارف الحديد، وغُمست به ساق عروة لإيقاف تدفق الدماء، وحَسم الجراح، فأُغمي عليه إغماءةً طويلة حالت دونه ودون أن يقرأ حصته من كتاب الله في ذلك اليوم...، وكانت المرّة الوحيدة التي فاته فيها ذلك الخير منذ صَدْر شبابه.

ولما صحا عروة، دعا بقدمه المبتورة، فناولوه إياها...، فجعل يُقلّبها بيده وهو يقول: أما والذي حملني عليكِ في عتماتِ الليل إلى المساجد، إنّه ليعلم أنّني ما مشيتُ بكِ إلى حرامٍ قطّ...، ثم تَمَثَّلَ بأبياتٍ (لمعن بن أوس) يقول فيها:

لعمركَ ما أهويتُ كَفِّي لريبةٍ
ولا حَمَلَتْنِي نحو فاحشةٍ رِجلي
ولا قَادَنِي سَمْعِي ولا بَصَري لها
ولا دَلَّنِي رَأيي عَلَيْهَا ولا عَقلِي

وأعلـمُ أنـي لـمْ تُصبنـي مُصيبـةٌ
مِـن الدَّهْـرِ إلّا قَدْ أصابَـتْ فَتىً قَبلِي

وقد شَقَّ على الوليد بن عبدالملك ما نزل بضيفه الكبير من النوازل...، فقد احتسب ابنه، وفقد ساقه في أيامٍ معدودات؛ فجعل يحتال لتعزيته وتصبيره على ما أصابه، وصادف أن نزل بدار الخلافة جماعةٌ من بني (عبس) فيهم رجلٌ ضرير، فسأله الوليد عن سبب كَفِّ بصره، فقال: يا أمير المؤمنين لم يكن في بني (عبس) رجلٌ أوفر منِّي مالًا، ولا أكثر أهلًا وولدًا، فنزلتُ مع مالي وعيالي في بطن وادٍ من منازل قومي، فطرقَنَا سيلٌ لم نَرَ مثله قط...، فذهب السيل بما كان لي من مالٍ وأهلٍ وولد...، ولم يترك لي غير بعيرٍ واحد، وطفلٍ صغيرٍ حديث الولادة، وكان البعير صعبًا فنَدَّ[1] منّي...، فتركتُ الصبي على الأرض ولحقت بالبعير...، فلم أجاوز مكاني قليلًا حتى سمعتُ صيحة الطفل، فالتفتُ فإذا رأسه في فم الذئب وهو يأكله...، فبادرتُ إليه، غير أني لم أستطع إنقاذه إذ كان قد أتى عليه...، فلحقتُ بالبعير فلما دنوتُ منه؛ رماني برجله على وجهي رميةً حطمت جبيني، وذهبت ببصري...، وهكذا وجدتُ نفسي قد غدوتُ في ليلةٍ واحدة من غير أهل، ولا ولد، ولا مال، ولا بصر...، فقال الوليد لحاجبه: انطلق بهذا الرجل إلى ضيفنا عروة بن الزبير، وليقُصَّ عليه قصته؛ ليعلم أن في الناس من هو أعظمُ منه بلاءً.

ولما حُمل عروة بن الزبير إلى المدينة وأُدخل على أهله، بادرهم قائلًا: لا يَهُولَنّكُم ما ترون، فلقد وهبني الله عَزَّوَجَلَّ أربعةً من البنين، ثم أخذ

---

(١) نَدَّ: شَرَدَ.

منهم واحدًا وأبقى لي ثلاثة...، فله الحمد. وأعطاني أربعةً من الأطراف، ثم أخذ منها واحدًا وأبقى لي ثلاثة... فله الحمد، وايم الله، لئن أخذ الله منّي قليلًا فلقد أبقى لي كثيرًا...، ولئن ابتلاني مرّة فلطالما عافاني مرّات...

ولما عرف أهل المدينة بوصول إمامهم وعالمهم عروة بن الزبير تسايلوا على بيته؛ ليواسوا ويُعَزُّوا، فكان من أحسن ما عُزِّي به كلمة إبراهيم بن محمد بن طلحة؛ حيث قال له: أبشر -يا أبا عبدالله- فقد سبقك عضوٌ من أعضائك، وولدٌ من أبنائك إلى الجنة...، والكلُّ يتبعُ البعضَ إن شاء الله تعالى...، ولقد أبقى الله لنا منك ما نحن إليه فقراء وعنه غير أغنياء؛ من عِلمك، وفِقهك، ورأيك... نفعك الله وإيّانا به...، والله ولي ثوابك، والضمين بحسن حسابك[1].

جعلنا الله وإيّاكم من الصابرين المحتسبين.

---

(١) انظر: صور من حياة التابعين: (١/ ٤٨-٥٣).

الأحزاب

قال تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

نِعـمُ الله كثيـرة، يصف سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في هـذه الآيات حال المسـلمين في المدينـة النبوية، ونعمته عليهم حين تجمّعـت عليهم الأحزاب، وضاقت بهم الأرض، وبلغـت القلوب الحناجر، فجاءهم نصر الله، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]. ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمـد: ٧]، فإنه منذ أن أذن الله برسالة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقوى الشر تتحالف وتتحزَّب ضد المسلمين، يجمعهم الشيطان، فيتعاونون على الشـر والعدوان، ولكن الله ناصر جنده، مُعـزٌّ دينَه ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾، هـي قدرة الله ومشـيئته، جنـودٌ لا تراها عيون البشـر، ولا تدركها حواس البشر. توكل على الله، وثِق بالله، يأتِك نصرُه وعزُّه.

فـي المدينة النبويـة، وفي بداية تكوين دولة الإسـلام الأولى، تحزّب أعداء الله، وتنادوا لحرب المسلمين. فسعى اليهود لتأليب الأعداء وجمعهم ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وتعاهد كفار قريش وبعض

القبائل العربية على أن يكونوا جميعًا ضد المسلمين، فقدمت الأحزاب نحو المدينة تتقدمهم جموع مكة بباطلها ومعهم غطفان وقبائل أخرى، واليهود معهم من داخل المدينة، جاؤوا بجمعهم الغفير، وعتادهم الكبير، وقد اتّفقوا على استئصال المسلمين وكسر شوكة الإسلام، وأنّى لهم ذلك ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقد نزلت سورة الأحزاب تروي حال المسلمين، وكيف اشتدّ بهم الكرب، وتُوضّح فضل الله تعالى عليهم حين نصرهم وخذل أعداءهم، فقد جاء في كتب السيرة[١] أنه خرج وفدٌ من يهود المدينة فيهم سلّام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، فدعوا قريشًا إلى حرب المسلمين، ووعدوهم أن يقاتلوا معهم، وشهدوا بأن الشرك خيرٌ من الإسلام، وقد نزلت في ذلك الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، ثم خرجوا من مكة إلى نجد؛ حيث حالفوا قبيلة غطفان الكبيرة على حرب المسلمين، وهكذا تحالف الأحزاب بجهودٍ من يهود بني النضير، وتجمعت قريش وحلفاؤها، وتبعتهم القوى الأُخرى، ثم تحركوا نحو المدينة.

وما إن علم المسلمون بخبر تجمع الأحزاب لغزوهم، حتى بدأ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستشارتهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الموقف، وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق في المنطقة الشمالية من المدينة؛ ليربط بين طرفي حَرَّة واقم وحَرَّة الوبرة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار

(١) السيرة النبوية الصحيحة: (٤٧٢).

النخيـل، وتحيطها الحرَّات التي يصعب على الإبل والمشـاة السير فيها، فَلَمَّا سَـمِعَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَسِيرِهِمْ؛ أَمَرَ الْمُسْـلِمِينَ بِحَفْرِ الْخَنْدَق حَوْل الْمَدِينَة مِمَّا يَلِي الشَّرْق، وَذَلِكَ بِإِشَارَةِ سَلْمَان الْفَارِسِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقد تقاسـم الصحابـةُ العمل كل عشـرة من الصحابة يحفـرون ما بين ٢٥ إلى ٣٠ متـرًا، وطول الخندق ٣ كـم تقريبًا، وعَرْضُه ٦ أمتـار، وعمقه يتراوح ما بيـن ٥ إلى ٧ أمتار، وقد أنجزوه بسـرعةٍ؛ ورد أنها سـتة أيام بالرغم من الجـو البارد والمجاعة التي أصابت المدينـة في ذلك الوقت، فكان طعام الجيش قليلًا من الشعير يُخلط بدهنٍ سنخ (متغير الرائحة لِقِدَمِه)، ويُطبَخ، فيأكلونـه بالرغـم من طعمـه الكريه ورائحتـه المنتنة؛ لفـرط الجوع. وقد شـاركهم رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحفر، فكان -بأبي هـو وأُمِّي- قدوة لأصحابـه؛ اغبـرَّ جسـمُه، وخوت أمعاؤه، شـدَّ علـى بطنه حجـرًا؛ لفرط الجـوع، وظهر للصحابة عددٌ من المعجزات النبوية، رأوها وهم يحفرون الخندق وعاشـوها؛ مـن ذلك أنهم كانوا حين يعجـزون عن تفتيت بعض الصخـور يلجؤون للرسـول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيأخـذ المعول، ويُفتّت به أقسـى الحجـارة وأصعبهـا، وذات مـرّة، وبينما هم فـي تلك الحالـة من الجوع والخـوف والضعـف؛ يضـرب الرسـول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجـرًا، فيلمع الشـرر ضـوءًا، فيكبّـر عَلَيْهِ السَّلَامُ ويبشّـر أصحابـه بمعجـزات قادمة؛ يبشّـرهم بالعزِّ والتمكينِ، وانتشـارِ الإسلام؛ ليشـمل اليمن، وفارس، والروم، تتراءى له قصور تلك الممالك، «**فيهتف إثر الضربة الأولى: الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشـام، والله إنِّي لأُبصر قصورها الحمر السـاعة، ثم ضـرب الثانية، فقال: الله أكبـر! أُعطيـتُ مفاتيح فـارس، والله إنّي لأُبصر قصـر المدائن أبيض، ثـم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر! أُعطيـتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأُبصر**

أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة»[1]. ويشتد عليهم الجوع، فيشفق جابر على رسول الله ﷺ وهو يرى الحجر ملتصقًا ببطنه، ويضغطُ جَسَدَهُ الطاهر، فيسرع نحو بيته، وهو يعلم أن فيه صاعَ شعير، وعنده عنزٌ صغيرة فيذبحها، وتسرع زوجته تخبز الشعير، وتطبخ تلك العنز المباركة، ويأتي للرسول ﷺ فيهمس له، ولكن الرسول يرفع الصوت لجموع الصحابة الجياع أن جابرًا يدعوكم ويُسْقَط في يد جابر، ولكنه الرسول، ويسرع جابر لزوجته في حيرة وذهول كيف بإطعام أولئك البشر، وما علم أنها البركة، وأنها القدرة الربانية، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معهم! حضر لبيت جابر ألفٌ من الصحابة، فأكل الجميع حتى شبعوا، وتركوا الكثير، فأكل بعدهم أهل جابر وأهدوا منها.

هي دروسٌ وعِبرٌ نقرؤها ونراها ناطقةً أمامنا في كتاب الله الكريم، ونكاد نحسّها بجوارحنا في النور السماوي الذي شرّفنا الله به ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

إن في تلك الابتلاءات، وذاك التمحيص الذي تعرض له رسول الله ﷺ وصحابته الكرام منهجًا تعليميًّا للأجيال المسلمة المتعاقبة، فليقرؤوا كلام الله بتدبر، ولينظروا في سيرة رسول الله ﷺ بتأمل، وكيف تعامل قُدوتهم وسيدهم رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع تلك الأحداث التي هَزَّت القلوب، وكادت تزيغ معها الأفئدة، ولكنه الصبر والثبات،

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٦٢٥-٦٢٦ رقم ١٨٦٩٤) والنسائي في سننه الكبرى (٥/ ٢٦٩ رقم ٨٨٥٨)، وأبويعلى (٣/ ٢٤٤ رقم ١٦٨٥)، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٣٩٧)، وانظر: السيرة النبوية الصحيحة: (٤٧٤).

والثقة في دين الله ووعده. لقد بلغ الخوف من الصحابة مَبْلَغَه يوم الأحزاب، وصوَّر القرآن الكريم تلك الحالة النفسية الحرجة؛ إذ زاغت أبصارهم، فكل فردٍ تتمايل عيناه، ويضطرب بصره خوفًا وهلعًا، وكادت قلوبهم تخرج من حناجرهم فزعًا ورُعبًا، كان البلاء جسيمًا، زلزل النفوس فصارت أشبه بالأرض وقد اضطربت، فاهتزت جبالها الراسية، وتلاطمت بحارها الزاخرة، واندهلت كل مرضعة عما أرضعت.

إنه مشهدُ رُعبٍ عظيم، ومع ذلك الهلع ثَبَّت اللهُ رسولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام، وانداح المنافقون الأشرار؛ يقول حذيفة: «كُنا في تلك الليلة صافِّين قعودًا، وأبوسفيان ومن معه من مشركي مكة فَوقنا، وبنو قُريظة من اليهود أسفل مِنا، نخافهم على نسائنا وذَرَارينا، وما أتت علينا ليلةٌ قَط أشدُّ ظُلمة، ولا أقوى ريحًا منها، فأصوات رِيحها مثل الصواعق، وشدة ظلامها تجعلُ أحدنا ما يرى إصبعه...، فأخذ المنافقون يستأذنون الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويقولون: إن بيوتنا مكشوفةٌ للعدو -وما هي بمكشوفة- فما يستأذنهُ أحدٌ منهم إلا أَذِن له، وهم يتسللون حتى بقينا في ثلاث مئةٍ أو نحو ذلك.

عند ذلك قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعل يمر بنا واحدًا واحدًا حتى أتى إليَّ وما عليَّ شيءٌ يقيني من البرد إلا مِرْطٌ[1] لامرأتي ما يجاوز رُكبتي...، فاقترب مني وأنا جاثٍ على الأرض، وقال: من هذا؟ فقلتُ: حذيفة، قال حذيفة؟... فتقاصرتُ إلى الأرض كراهية أن أقوم من شدة الجوع والبرد، وقلتُ: نعم يا رسول الله، فقال: إنه كائنٌ في القوم خبرٌ، فتسلل إلى

(١) المِرْط: كل ثوب غير مَخيط من مئزرٍ ونحوه.

عسكرهم وأْتِني بخبرهم...، فخرجتُ وأنا من أشد الناس فزعًا وأكثرهم بردًا، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته**». فوالله ما تمت دعوة النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى انتزع الله من جوفي كل ما أودعه فيه من خوف، وأزال عن جسدي كل ما أصابه من بَرْد. فلما وَلَّيتُ ناداني عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: «**يا حذيفة لا تُحْدِثَن في القوم شيئًا حتى تأتيني**»، فقلتُ: نعم، ومضيتُ أتسلل في جُنح الظلام حتى دخلتُ في جُند المشركين، وصِرتُ كأني واحدٌ منهم.

وما هو إلا قليل حتى قام أبو سفيان فيهم خطيبًا، وقال: يا معشر قريش، إني قائلٌ لكم قولًا أخشى أن يبلغ محمدًا؛ فلينظر كلُّ رجلٍ منكم مَنْ جليسه، فما كان مني إلا أن أخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جَنبي وقلتُ: من أنت؟ فقال: فلان بن فلان. وهنا قال أبوسفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار قَرَار، لقد هلكت رواحلنا، وتخلت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مُرتحل، ثم قام إلى جمله ففك عِقاله، وجلس عليه ثم ضربه فوثب قائمًا...، ولولا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرني ألّا أُحْدِثَ شيئًا حتى آتيه لقتلته بسهم.

عند ذلك رجعت إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فوجدتُه قائمًا يصلي في مِرْطٍ لبعض نسائه، فلما رآني أدناني إلى رجليه، وطرح عليَّ طَرَفَ المِرْط، فأخبرتُهُ الخبرَ، فَسُرَّ به سرورًا شديدًا، وحَمِدَ الله وأثنى عليه»[١].

---

(١) صور من حياة الصحابة: (٢٩٣-٢٩٥)، وانظر تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٧).

إن قوى الشر تَحزَّبت فيما مضى، تآمروا وتواصلوا وتواصوا على حرب المسلمين في المدينة المنورة، وهم كذلك في كل زمان؛ يزداد تحزبهم، ويتنوع مكرهم، ويتعدد باطلهم، ويشتد الضيق على المسلمين، ويكاد اليأس يدب إليهم، وتتزلزل نفوسهم، كما تزلزلت فيما مضى، وإن النجاة والسلامة باتباع ما ورد في كتابه الكريم، ففيه تبيانُ كل شيء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وفيه البشارة والوعد بالنصر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

الأكمام والأرحام

قال تعالـى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

الله أكبر وسعَ علمهُ كُلَّ شيء! الله أكبر أحاطَ بكل شيء عِلمًا!

قِفْ مُتأملًا مُفَكرًا في مليارات الأشجار والإناث وما فوق المليارات، في تلك الكميات والأرقام التي لا يمكن أن يحيط بها عقلك، ولا يُدركها تفكيـرُك، فكُل ما يخـرج من ثمارها، وما تحملُه إناثهـا في علم الله لحظة بلحظة! لا إله إلا الله!

إن هـذه الآيـة الكريمـة تُخبرنـا بعلـم الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بإثْمار الأشـجار، وهـي في الأغلفة النباتية في سـرها الخفـي، وبعلمه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالأجنة في الأرحام، وهي في الغيب المجهول المستور، الله أكبر كم في الأرض من نخلـة تُثمر؟! وكم في كُل نخلةٍ من طلع نضيد، تدفع به النخيلُ كل سـنة! والله يعلم ذلك سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ!

الله أكبـر كم في الكـرة الأرضية والكون كُله من شـجرة مُثمرة، تجود بثمارها كل عام! وذاك في علم الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ! سبحان عالم السر وأخفى!

وهناك مليارات الإناث من البشر والحيوانات، وما لا نعلمه من إناث يحملن كل حين، بل في كل لحظة، ويعلم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك!

زوجتك القريبة منك، لا تعرف أنت، ولا هي تعرف لحظة الحمل، ولكن الله يعلم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

تقف العقول أمام هذه الآية وغيرها من آيات العلم الإلهي مذهولة عاجزة عن إدراك تلك العظمة! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي آية أخرى يخبرنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعلمه عن غيض الأرحام وازديادها: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

جاء في تفسير ابن كثير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ يَعْنِي: السَّقْط ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يَقُولُ: مَا زَادَتِ الرَّحِمَ فِي الْحَمْلِ عَلَى مَا غَاضَتْ حَتَّى وَلَدَتْهُ تَمَامًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَحْمِلُ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَحْمِلُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَزِيدُ فِي الْحَمْلِ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْقُصُ، فَذَلِكَ الْغَيْضُ، وَالزِّيَادَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى، كُلُّ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ تَعَالَى.

وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْجَنِينُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ لَا يَطْلُبُ، وَلَا يَحْزَنُ وَلَا يَغْتَمُّ، وَإِنَّمَا يَأْتِيهِ رِزْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ دَمِ حَيْضَتِهَا، فَمِنْ ثَمَّ لَا تَحِيضُ الْحَامِلُ، فَإِذَا وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ اسْتَهَلَّ، وَاسْتِهْلَالُهُ اسْتِنْكَارٌ لِمَكَانِهِ، فَإِذَا قُطِعَتْ سُرَّتُهُ حَوَّلَ اللهُ رِزْقَهُ إِلَى ثَدْيَيْ أُمِّهِ، حَتَّى لَا يَطْلُبَ وَلَا يَحْزَنَ وَلَا يَغْتَمَّ، ثُمَّ يَصِيرُ

طِفْلًا يَتَنَاوَلُ الشَّيْءَ بِكَفِّهِ فَيَأْكُلُهُ، فَإِذَا هُوَ بَلَغَ قَالَ: هُوَ الْمَوْتُ أَوِ الْقَتْلُ، أَنَّى لِـي بِالرِّزْقِ؟ فَيَقُولُ مَكْحُـولٌ: يَا وَيْلَكَ! غَذاك وَأَنْتَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ، وَأَنْتَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَدْتَ وَعَقَلْتَ قُلْتَ: هُوَ الْمَوْتُ أَوِ الْقَتْلُ، أَنَّى لِي بِالرِّزْقِ؟ ثُـمَّ قَرَأَ مَكْحُـولٌ: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾، أَيْ: بِأَجلٍ، حَفِظَ أَرْزَاقَ خَلْقِهِ وَآجَالَهُمْ، وَجَعَلَ لِذَلِكَ أَجَلًا مَعْلُومًا.

وبعد، تذكَّرْ أيها الإنسـان أنك مهما كنت، وأينما كنت، وكيفما كنت، وفي أي لحظة كنت، وعلى أي حالة كنت، وأي حركة للسانك، وأي هزة لجوارحك، فأنت تحت رقابة الله وشـهادته، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١]. استحضر عظمة الله وعِلمه، تجتنب نواهيه واعمل بأوامره!

لـو اسـتحضر الجانحون علم الله بهـم -لحظة جنوحهـم- ولاحظوا رقابته لهم، لاستحوا وكفوا غوايتهم!

لو اسـتحضر المغتاب رقابة الله له، والشهود الذين عن يمينه وشماله، لأمسـك لسـانه وغيبته! فكلُّ قولٍ يتفوهُ به مُقيد ومُسجل ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

لـو اسـتحضر السـارق والمرتشـي والراشـي رقابـة الله لهـم وعلمـه باختلاسـهم، لانزجروا عن سـرقتهم وتحايلهم، أين هـم من هذه الآيات الزاجرة ومن آية الغلول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]. فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يؤكد طهارة أنبيائه من لوث الاختلاس والتفكير فيه!

ولو شعر الزاني بكاميرات تصوير بشرية حوله، تسجل عورته وفُحشه، لما أقدم! فكيف لا يستحضر رقابة الله؟! هو الشيطان يُغويه، ويُنسيه رقابة الله وشهادة جوارحه عليه: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١] سيأتي يومُ شهادةِ البَعضِ على البَعْضِ، يومٌ يتحول فيه النطق من الفم إلى الأيدي والأرجل؛ فالخالق قادر على كل شيء: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

يُروى في الأمثال العربية: أن ابنة زرارة بن عدس التميمي كانت امرأة سويد بن ربيعة، ولها منه تسعة بنين، وإن سويدًا قبل الإسلام قتل أخًا لعمرو بن هند الملك وهو صغير، ثم هرب فلم يقدر عليه ابن هند، فأرسل إلى زرارة فقال: ائتني بولده من ابنتك، فجاء بهم، فأمر عمرو بن هند بقتلهم، فتعلقوا بجدهم زرارة، فقال: يا بعضي دع بعضًا. فذهبت مثلًا. أراد بقوله يا بعضي إنهم أجزاء ابنته، وابنته جزء منه. ويوم القيامة بعض الجسد يشهد على بقية الجسد. رباه نسألك حُسن الخاتمة والمغفرة!

إن الآية الكريمة لهذا الدرس تذكرنا بآيات الله الكثيرة الواردة في القرآن الكريم التي تُنبه الغافلين عن رقابة الله وعلمه، فحتى مخلوقات الله التي لم تحظ بشرف العقل والتكليف تحت علم الله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

كل الكائنات تحت علمه ورقابته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكيف برقابة الإنسان المكلف الذي منحه الله العقل، وترك له حرية الاختيار بين الحسنة والسيئة، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

أيها الإنسان، يأتيك الشيطان، ويُصغر لك الخطيئة، ويُزيّن لك السيئة، ويجرك للغفلة، فاستحضر علم الله بك، فكُل ما في الكون مهما صغر حجمه، تحت رقابة الله وعلمه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

تفكيرك وهواجسك يعلمها الله، فكيف تفر من رقابته، وكيف تهرب من علمه، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

تذكر أيها الإنسان عودتك إلى ربك، اعمل الخيرَ تجدهُ، عَوْدَتُك حتمية؛ فماذا أعددت؟ ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. هذا ولئن غفلت عن ربك، ونسيت علمه ورقابته، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بغافل عنك، تنبه ولا تفرط، ولا تغفل لحظة، يقول تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

خفِ الله، واستحضر عظمته ورقابته، فهو العليم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

قال الشيخ الشعراوي: «الأكمام: جمع كِمّ، وهو القشرة الخضراء التي تغلف الثمرة، ثم تنفلق قليلًا، قليلًا لتخرج الثمرة منها، كما ترى مثلًا الوردة قبل أن تتفتح تجدها داخل غلاف أخضر مغلق عليها، كأنها مُغمضة، ثم تتفتح وتخرج من هذا الغلاف».

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]. هذه كلها من الأمور التي تغيب عن علم الناس، لكنها لا تغيب عن علم الله.

وقصة تلك المرأة التي جاءت تطرق حجرة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وخرج إليها المصطفى، فوجدها باكية شاكية زوجها من أنه ظاهرها، وإذ بالسماء وعلم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يصل فورًا لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، امرأة مغمورة، تحاور رسول الله وتشتكي إليه، وعائشة بالقرب من المشهد، ولا تكاد تسمع الحديث، صورة تملأ القلوب بوجود الله وعلمه وقربه ولطفه ورعايته، فعن عائشة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قالت: «تبارَكَ الَّذي وسِعَ سمعُهُ كلَّ شيءٍ، إنِّي لأسمعُ كلامَ خَولةَ بنتِ ثَعلبةَ ويخفى علَيَّ بعضُهُ، وَهيَ تشتَكي زَوجَها إلى رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وَهيَ تقولُ: يا رسولَ اللهِ، أَكَلَ شَبابي، ونثرتُ لَهُ بَطني، حتّى إذا كبُرَتْ سِنِّي، وانقطعَ ولَدي، ظاهرَ منِّي، اللهمَّ إنِّي أشكو إليكَ، فما برِحَتْ حتّى نزلَ جِبرائيلُ بِهَؤلاءِ الآياتِ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]»(١).

رزقنا الله نُور البصيرة، والمزيد من تدبر كتاب الله وتأمله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٦٦ رقم ٢٠٦٣) والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٨٢ رقم ١٥٦٣٧) وأبويعلى (٨/ ٢١٤ رقم ٤٧٨٠) والحاكم (٢/ ٤٨١ رقم ٣٧٩١) وقال: هذا حديث صحيح. وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١٣/ ٣٧٤): وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة. وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ١٧٥).

أم حسبتم

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

هُم رُسلُ الله مسّتهمُ البأساء والضرّاء وزُلزلوا، فكيف بنا نحن المتأخرين؟ نسأل الله الثبات واليقين.

إن مُجاهدة النفس منهج الصالحين، والصبر سمة المؤمنين، ويتطلَّب ذلك يقيناً وثقة بالله، وصبرًا على تحمل الابتلاءات في سبيل الله؛ فقد جاء في الحديث الصحيح عن خبّاب بن الأرت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه، فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه**». ثم قال: «والله لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، لا يخافُ إلا اللهَ والذئبَ على غنمِهِ، ولكنَّكم تستعجلون»[١].

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ١٤١ رقم ٣٦١٢).

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره: «يخبر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه لا بدَّ أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقَّة، كما فعل بمن قبلهم، فهي سنَّته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدَّل؛ أن من قام بدينه وشرعه لا بدَّ أن يبتليه؛ فإن صبر على أمر الله، ولم يبالِ بالمكاره الواقفة في سبيله فهو الصادق، الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله؛ بأن صَدَّتْه المكاره عمّا هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنَّه ليس الإيمان بالتحلِّي والتمنِّي ومجرد الدعاوى، حتى تصدّقه الأعمال أو تكذّبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾؛ أي: الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾؛ أي: الأمراض في أبدانهم، ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفي وأخذ الأموال وقتل الأحبّة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطؤوا نصر الله مع يقينهم به.

ولكن لشدَّة الأمر وضيقه؛ قال: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، فكان الفرج عند الشدّة، وكلما ضاق الأمر اتسع؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾، فهكذا كل من قام بالحق فإنه يُمتحن؛ فكلّما اشتدت عليه وصعبت، فصابر وثابر على ما هو عليه، انقلبت المحنة في حقِّه منحة، والمشقّة راحة، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء والشفاء لما في قلبه من الداء.

وجاء نظير هذه الآية في كتاب الله آيات أُخرى؛ قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣][(١)].

حياتنا الدنيا ابتلاءاتٌ وتمحيص، وفيها شهواتٌ وشياطين، ونسمع تشكيكًا في الخير والأخيار، وفي الفضيلة والفضائل، ويشتد البلاء، وتحتار العقول. إنّه التمحيص الربَّاني والفرز الإلهي، هو يعلم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الشّقي من السعيد قبل خلق الكون كلِّه، ولكنَّه الابتلاء والامتحان؛ فالثبات الثبات.

ويضعُف بعض البشر فيركن لتلك القوة البشرية، وهاتيك النفوس الآدمية؛ ضعفٌ وخور، وخللٌ وخطل، حذَّر الله منه وخوَّف ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وتتكرر آيات التمحيص ومجاهدة النفس ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

والإيمان ليس قولًا باللسان، فالإنسان تمرُّ به لحظات شهوة وإغراء، وفتنة وابتلاء ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، وتشتد البلاءات، وتعظم الخطوب، فالصبر الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

ويقرّر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن تلك البلاءات لحِكَمٍ يعلمها جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]، ويُحذِّر من صداقة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص١٥٨).

الهازئين بدين الله وموالاتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

ويتكرر التحذير من اليهود والنصارى، وطلب نصرتهم واتخاذهم رفاقًا وأصحابًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ويستثني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده المؤمنين موالاة الكفار في أحوالٍ ومصالح معيَّنة، لكن بشرطٍ وتحذير، فهو العالم بحقيقة تلك الموالاة ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

إنها آيات كريمات تزيد من ثبات المؤمن، وتمنحه اليقين، فما يراه من بلاء في دينه، وما يشاهده من باطل لايستطيع ردَّه ولا كبح جماحه، إنما هو ابتلاء وتمحيص، ومن الأمور الجليلة مقاومة شهوات الدنيا التي قلَّما سلم منها الإنسان، فالدنيا خدَّاعةٌ جذَّابة، والمال والجاه وحظوظ الدنيا تغلب كثيرًا من البشر.

إن الشيطان يوسوس، ويجعل الإنسان يؤول ويسوِّف، ويعمل على صرفه عن دين الله الحق، وعن إخلاص العبادة لله وحده ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]؛ فالشيطان يُشكِّكُ ويُوسوس، والسعيد من شرح الله صدره لطريق الحق ومنهج الهداية، والشَّقي من قسا قلبه عن ذكر الله وهديه ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن

ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]. والويل لمن يتيه في بيداء الشهوات والغواية ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٢٣].

ويفتح الله أبواب الأمل والرجاء ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، والعجب من غرور الإنسان وسفاهته، فمهما بلغ من قوةٍ وسلطة يجب ألا ينسى قوة الله وضعفه أمامها ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، هي الأرض ببحارها وجبالها وكافّة مخلوقاتها في قبضة يده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهاتيك السماوات بعظمتها التي لا نعلمها ولا نحيط بها، مطوياتٌ بيمينه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وتقدّس عن التشبيه والتمثيل! وإنّ الصبرَ عاقبتهُ خير، والرجاء نهايتهُ سعادة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وفي حديث أبي رزين: «عجب ربُّك من قنوط عباده، وقُرْبِ غِيَرِه، فينظر إليهم أَزِلِينَ قَنطِين، فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب»[(١)].

وحين يجد الأخيار ذاك النصر الربَّاني يجد الظالمون الجزاء المنتظر لهم، ولا تنفعهم الأعذار والرجاءات ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٢٦ رقم ٧٢٢) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤١١ رقم ٩٨٧) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٤٤ رقم ٥٥) وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ١٣٩) والألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٣٠٩ رقم ٢١٨٠).

الأنبياء والاستغفار

قال تعالى على لسان نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

استوقفتني هذه الآية الكريمة في سورة نوح، واستحضرت معها ما ورد عن الاستغفار في سورة هود على لسان عددٍ من أنبياء الله، الذين يندبون أقوامهم للاستغفار.

إن الاستغفار وإن كان عبادة يسيرة، وطاعة سهلة، وقولٌ باللسان، فإنه الصدق والحقيقة، وهو الإعلان الدائم بالإيمان بما جاء به رسل الله، وتصديقهم قولًا وعملًا، هو تعبيرٌ عما في قلب المُستغفِر. إن الاستغفار قولٌ وعمل، لسانٌ وقلب، نطقٌ وفعل، وهو خيرٌ يجده المسلم في حياته، وبعد مماته. وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه العبادة العذبة منذ القدم؛ إذ ورد في القرآن الكريم الحث عليه على لسان رُسلِ الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في سلسلة متواصلة ضمن نصائحهم لقومهم؛ فأول الأنبياء نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه للاستغفار ورغّبهم فيه، وأبان عن أثره الكبير في المستغفرين بالنعم العظيمة الناتجة عنه، كما رأينا في الآية السابقة. سبحانك ربّاه نستغفرك ونتوب إليك.

أورد القرطبي في تفسيره أن الشَّعْبِيَّ قال: «خَرَجَ عُمَرُ يَسْتَسْقِي فَلَمْ يَـزِدْ عَلَى الاستغفار حَتَّى رَجَعَ، فَأُمْطِرُوا، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ؟ فَقَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾»(1).

ويتكرَّر اللطف الربَّاني، فيرد تأكيد الاستغفار وأفضليته لقوم نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيناديهم ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، إنه إخبارٌ قطعيٌّ، ووعدٌ ربّانيٌّ على لسان نبيه؛ أن تجود السماء بالخير، وأن تزداد صحتهم وقوَّتهم إن استغفروا الله، ويأبون فيُهلكَهم الله بعذابه.

ومن بعدهم تأتي ثمود، ويأتي خبر السماء عن نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لهم بالاستغفار ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، يترجَّاهم صالح ويُناديهم ويندبهم للاستغفار، ويؤكِّد لهم أن الله قريب من خلقه، مُجيبٌ دُعاءهم، ولكنهم يَعصُون الله فيُهلكَهم.

وذاك نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ ندب قومه للاستغفار، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٠-٩٢]. يدعو شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه للاستغفار كغيره من الأنبياء، ويبشرهم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحيمٌ بخلقه، ودودٌ لهم، فيأبون وينالون جزاءهم.

(1) تفسير القرطبي: (٩/ ١٩٥).

جاء في تفسير الطبري عن ثابت البناني قال: «بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦] بكى»[(١)]. إن إبليس قد بكى -أعاذنا الله منه- حسدًا من نعمة الله التي أكرمنا الله بها، وهي الاستغفار، فسيبذل جُهْدَه لِحَجْبِنا عن هذه النعمة، وسيزيِّنُ لنا كُلَّ طُرق اللهو التي تصرفنا عنها.

أستغفِرُ الله وأتوبُ إليه، أستغفِرُ الله وأتوبُ إليه. كرِرها، ردِّدْها، اجْعَلها معك كل حين.

ورد في الحديث القدسي الطويل: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**».[(٢)] أستغفِرُ الله، أستغفِرُ الله.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ قَالَ: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثًا، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ**»[(٣)].

عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**»[(٤)] أستغفِرُ الله، أستغفِرُ الله.

---

(١) تفسير الطبري: (٣/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٩٢ رقم ١٨٨٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٢٣٠ رقم ٢٧٢٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٤ رقم ٣٨١٨)، وحسنه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص٢٤٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٢٥ رقم ١٦١٨).

وتَعَدَّدتِ الآياتُ القرآنية النادبة للاستغفار، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عما صدر منكم من الذنوب، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم، بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبُّه ويرضاه، ثم ذكر ما يترتَّب على الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه، ما تتمتَّعون به وتنتفعون. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت وفاتكم. ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾؛ أي: يعطي أهل الإحسان والبرِّ من فضله وبرِّه، ما هو جزاءٌ لإحسانهم؛ من حصول ما يحبُّون، ودفع ما يكرهون»[1].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

آياتٌ متعددة في كتاب الله الكريم تَحُثُّنا على الاستغفار، فهل نفعل!

أورد الزمخشري في تفسيره عن الحسن: «أنَّ رجلًا شكا إليه الجدب، فقال: استغفِر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلَّة النسل، وآخر قلَّة ريع أرضه، فأمرهم كلَّهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجالٌ يشكون أبوابًا، ويسألون أنواعًا، فأمرتهم كلَّهم بالاستغفار! فتلا له هذه الآية ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي: (ص٣٧٦).
(٢) الكشاف، الزمخشري: (٦/ ٢١٥).

إن الحسن وهو يأمرهم بالاستغفار يعلم أنهم سيتوجهون بقلوبهم لله قبل ألسنتهم، وسيدعون ربهم دعاء المضطر ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

إن ما ذكره الحسن لأولئك الشاكِينَ أوضاعَهُم هو ما سيذكره لنا اليوم لو كان معنا، وشكونا له خوفنا من وباء كورونا الذي حلَّ بالأرض هذا العام (١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م)، إنه لو كان بيننا لقال: استغفِروا ربكُم، لقد غفل كثيرٌ من المسلمين عن اللجوء إلى الدعاء والاستغفار، ومراجعة أوضاعهم، وما هم عليه من تجاوزات. إن اللجوء للبشر، والترجي في كشف الأطباء علاجًا لهذا الوباء، والغفلة عن الاستغفار والدعاء ضعفٌ وهشاشةٌ في الدين.

إن اللجوء الحقيقي هو لرب البشر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو القادر على رفعه في غمضة عين، وهو القادر على هداية الأطباء للدواء.

إن الاستغفار دواءٌ بين أيدينا، إنه الدعاء والتوبة والإنابة ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. نسأل الله السلامة من قسوة القلوب، وزينة المعاصي.

إن الله يبتلي الخلق مسلمهم وكافرهم ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. تأمل دقة التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي كل البشر؛ فالناس تشمل المسلم والكافر، ووباء كورونا أصاب العالم كله. لقد زاد الظلم والتجاوز، وعمَّ العصيان والطغيان، فكان هذا الفيروس المتناهي الصغر شيئًا يسيرًا من عذاب الله، لعل الناس ترجع وتكُف عن الظلم والعصيان، ألم نرَ اليوم

كيف يُعذَّب المسلمون في الشام، والعالم يتفرج؟ ألم نشاهد كيف تُباد الأقليات المسلمة ولا مُعين ولا ناصر؟ إن العلاج والداء هو في الاستغفار والإنابة والرجوع إلى الله بقلوبٍ ذليلةٍ مخلصة.

روى البخاري في صحيحه: «عن شدّاد بن أوس، عن النبي ﷺ أنه قال: «**سيّدُ الاستغفار أن تقول: اللهمَّ أنت ربّي لا إله إلّا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أَبُوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأَبُوءُ لك بذنبي فاغفِر لي، فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ إلّا أنت. قال: ومَنْ قالها من النَّهار مُوقِنًا بها فمات مِن يومِه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنَّة، ومَنْ قالها مِن الليل وهو مُوقِنٌ بها فمات قبل أن يُصبحَ فهو من أهل الجنَّة**»[1].

سُبحانك ما ألطَفَكَ! نُخطئُ فتُرشِدُنا للصواب، وتَدُلُّنا على الطريق، وتُقرّر أنك غفورٌ رحيم. ياربّ نستغفرُكَ ونتوبُ إليك فاغفِر لنا وارحمنا، ونقلقُ ونخافُ، وتجتاحُ البشريةَ الأوبئةُ والمِحَن، فنجدُ في القرآن الكريم الطمأنينة والسكينة ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٣]. نَستغفِرُ الله ونتوبُ إليه، نَستغفِرُ الله ونتوبُ إليه.

إن الاستغفار يزدك قوةً إلى قوتك، ويهبك الأموال والبنين. اللهم اجعلنا من عبادك المستغفرين، الأوَّابين إليك آناء الليل وأطراف النهار.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ٤٠ رقم ٦٣٠٦).

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

إحدى شركات

العبيكان للاستثمار Obeikan Investment Group

مـن إصـداراتنـا

Follow Us
obeikn reader
obeikanpub

كتبنا الصوتية
storytel
Kitab Sawti
Dhad Audio Publishing

كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazon kindle

لخدمات البيع والتوصيل
سوق
رواق
نون noon

التحدي

قــال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

تحدٍّ واضح في كلام الله المعجز الخالد، نزل في مرحلة الفصاحة والبيان عند العرب؛ إذ كانت لهم زمان البعثة النبوية الشريفة أسواقٌ للخطابة والشعر، يفاخرون فيها بشعرائهم وخطبائهم، فسوق عكاظ السنوية كانت ميدان التحدي والبلاغة، ففيها قِيلت المعلقات الشعرية، وتناقلها العرب في نواديهم. وجاء القرآن فبهرهم ببيانه، وتحدّى الله الإنس والجنَّ أن يأتوا بمثله، وأبان أنَّهم لن يستطيعوا ذلك حتى ولو اجتمعـوا له! ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

ويتحـدى الله جَلَّ وَعَلَا المتقدميـن والمتأخرين أن يجـدوا فيه أي نقص، أو أي عيـب، وأنّـى لهم ذلـك! ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. كتابٌ أنزله ربُّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كاملٌ شامل خالد ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

شَـكَّكَ فيه مُشـركو مكة، فتحدّاهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يأتوا بسورةٍ من مثله، وخَوَّفَهُم من الشك فيه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ

وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]. وتجرأ كفار مكة، فقالوا: إن محمدًا افترى هذا القرآن، وجاء به من تلقاء نفسه، فأظهر تكذيبهم وتحدّاهم ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وحين توالى نزول القرآن في مكة، وقرأه رسول الله ﷺ استمع له كفار قريش وجبابرتهم، فأخذ القرآن بمجامع قلوبهم، فتسللوا لِواذًا يستمعون قراءة الرسول ﷺ في خُفية؛ فهم أهل الفصاحة والبيان، جذبهم كلام الله، وبهرهم بيانه، وهزَّهم مضمونه، لكن العناد منعهم، والحسد حجزهم، والغيرة ردَّتهم، والشقاوة غلبتهم. يقول الوليد بن المغيرة: «أيُنزَّل على محمدٍ وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف؟ ونحن عظيما القريتين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢][(١)]. وتروي كتب السيرة: «أن أبا سفيان ابن حرب، وأبا جهل ابن هشام، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة؛ خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلّي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: (١/ ٣٣٤).

فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مِثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا»[1].

الله أكبر، ما أعظمه من كتاب، وما أحلاه من قول؛ في ظلام الليل وهدأته يتركون نومهم، ويهجرون فُرُشَهم، ويتسابقون في حذرٍ وخفية، فيُمضون ليلتهم يستمعون وهم أشد الناس عداوة له!

الله أكبر، هو نور الله يلج القلوب، ويهزّ المشاعر، يتذكر الكفَّارُ صوتَ النبي ﷺ العذب بعد أن يأووا إلى نومهم فيشتاقوا لسماع صوته الكريم، الذي خرج عن العادة المألوفة في أساليب كلامهم، فَيَأْرَقُون ويخرجون في حذر يسترهم الظلام، ويجلسون يستمعون في حذرٍ وخوف، وأحسبهم يجلسون في ظلام الليل وسكونه، يتأرجحون بين البقاء في فُرُشهم ومغالبة النوم، أو التحرك في خُفية وحذر لسماع ما جاء من السماء، فيغلبهم الشوق لسماع صوت رسول الله ﷺ وهو يتلو كلام الله المبهر الخالد.

لكنها الشقاوة غلبت أولئك النفر، فتعاهدوا في اليوم الثالث ألا يعودوا، وأحسبهم يتقلبون في فُرشهم تقلّب اللديغ أو المهموم، فلا هُم ناموا وارتاحوا، ولا هُم قاموا واستمعوا كلام الله العذب.

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: (١/ ٢٩٥).

هو أشـرف عِلم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، نزل به أشرف الملائكة، على قلب أشرف خلقه، بأشرف اللغات ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، في أفضل الشهور وأشرفها ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي خير الليالي وأفضلها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]. فجمع الشرف كلَّه. رَزَقَنْا الله حبّه وصحبته؛ لنحيا مع الشرف، ونموت مع الشرف، ونَلْقَى ثواب الشرف! ويندبنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتأمله، ويحثنا على تدبُّره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقد كرّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسان بالعقل، وأَمَرَه أن يُحرّك عقله ويستثمره، فكرّر في آيات كثيرة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] ولكنَّ قلوب بعض البشـر ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] والعياذ بالله. وبين جَلَّجَلَالُهُ أن الجماد لو وُهِبَ العقل كالإنسان لتأثر بالقرآن وتصدّع من خشية الله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

إنـه الخير بين أيدينا، رزقنا الله تلاوته وتدبره، اللهم إني أسـألك بكل اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء همومنا، وذهاب أحزاننا، آمين.

التزكية

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

إيّـاك وتزكية نفسـك، واحـذر أن تَغتَـرَّ بعبادتك، واسـأل الله القبول، واتـرك التزكية، فـالله أعلـم بخفايا الأمـور وحقيقتها، والناس شـهود الله فـي أرضـه، فعن أنس بن مالك أن جِنازةً مـرّت بالنبي ﷺ فقيل لها خيرًا، وتتابعت الألسـن لها بالخير، فقال النبـي ﷺ: «**وَجَبَتْ**»، ثم مَرَّت جنازةٌ أخرى، فقالوا لها شرًّا، وتتابعت الألسن لها بالشر، فقال النبي ﷺ: «**وَجَبَتْ، أنتم شُهداء الله في الأرض**»(١).

نسمع بعضهم يَذُمُّ هذا، ويلومُ ذاك، وهو بهذا العمل كأنه يُزكي نفسَه؛ فهو الرجل الصالح، وهو الرجل الثَّبْت، وهو الذي يمنح وثائق التزكيات، فكم جَرَّت الألسنةُ من الويلات، وكم زرعت من الأحقاد.

عن معاذ بن جبل: قلتُ يا رسول الله، أنؤاخذُ بكل ما نتكلم به، فقال: «**ثكلتكَ أمكَ يا معاذ بن جبل، وهل يَكُبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٥٣ رقم ١٣٦٧)، ومسلم (٢/ ٦٥٥ رقم ٩٤٩).
(٢) أخرجه الترمذي، (٥/ ١١ رقم ٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى، (٦/ ٤٢٨ رقم ١١٣٩٤)، وابن ماجه، (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ١١٤ رقم ١١٢٢).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو كان كلُّ من زكَّى نفسه حصلت له التزكية لكان أخبثَ الناسِ يُزكي نفسَهُ...، ولهذا أبطل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه التزكيات كلها، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ [النساء: ٤٩].

والفتيل الخيط الذي في شقِّ نواة التمرة؛ قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد. وقيل: القشرة التي حول النواة بينها وبين البسرة. وقال ابن عباس أيضًا وأبو مالك والسدي: هو ما يخرج بين إصبعيك أو كفيك من الوسخ إذا فتلتهما؛ فهو فعيل بمعنى مفعول، وهذا كله يرجع إلى كناية عن تحقير الشيء وتصغيره، وأن الله لا يظلمه شيئًا، ومثل هذا في التحقير قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾ [النساء: ١٢٤]، والنقير هو النكتة التي في ظهر النواة، ومنه تنبت النَّخلة.

ذاكم سيدنا أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لم يُزكِ نفسه وهو خليفة المسلمين، ففي ذات يومٍ يَقرَعُ باب إحدى الدور في المدينة المنورة، تلك الدور المحتاجة، دار عجوزٍ فقيرة، وتسرع إلى الباب فتاة صغيرة، وتنادي على أمها: أماه، إنه: حالب الشاة يطرق بابنا. وتُقْبِل الأم فترى خليفة المسلمين واقفًا يَهُمُّ بالدخول ليخدم تلك المرأة الفقيرة، فتلتفت الأم إلى صغيرتِها وتقول في حياءٍ: ويحكِ، ألا تقولين خليفة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُطأطئُ أبو بكرٍ رأسه ويهمهم في نفسه وكأنه يقول: دعيها فقد وصفتني بأحب أعمالي إلى الله.

وأسرع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يحلب الشاة، ويخبز العجين للعجوز. لم يُزكِّ الخليفة نفسه، ولم يعظم ذاته، ولم يترفع عن عمل كان يؤديه في حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لقي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ركبًا في سفرٍ من أسفاره، والليل مخيّم يحجب الركب بظلامه، وكان في الركب عبدالله بن مسعود، فأمر عمر رجلًا أن يناديهم: «من أين القوم؟... فأجابه عبدالله: من الفجِّ العميق.

فقال عمر: أين تريدون؟

فقال عبدالله: البيت العتيق.

فقال عمر: إن فيهم عالمًا...، وأمر رجلًا فناداهم: أي القرآن أعظم؟

فأجابه عبدالله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال: نادِهِم أي القرآن أحكم؟

فقال عبدالله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال عمر: نادِهِم أي القرآن أجمع؟

فقال عبدالله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

فقال عمر: نادِهِم أي القرآن أخوف؟

فقال عبدالله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

فقال عمر: نادِهِم أي القرآن أرجى؟

فقال عبدالله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فقال عمر: نادِهِم، أفيكم عبدالله بن مسعود؟

قالوا: اللّهمَّ نعم»[١].

زَكَّاه علمه، فزَكَّاه عمر، ودَوَّن التاريخ تزكيته.

ولقد نهى رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأسماء التي تشتمل على المدح والتزكية، تحكي زَينبُ بنتُ أم سلَمةَ أن اسمها كان بَرَّة، فغَيَّرَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسمها إلى زينب[٢]. فقد دَلَّ الكتاب والسنّة على المنع من تزكية الإنسان نفسه...

قال القرطبي في تفسيره: «فأما تزكية الغير ومدحه له؛ ففي البخاري من حديث أبي بكرة أن رجلًا ذُكر عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأثنى عليه رجل خيرًا، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويحك قطعت عنق صاحبك -يقوله مرارًا- إن كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله، ولا يُزكّي على الله أحدًا**». فنهى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُفرط في مدح الرجل بما ليس فيه فيدخله في ذلك الإعجاب والكبر، ويظن أنه في الحقيقة بتلك المنزلة، فيحمله ذلك على تضييع العمل وترك الازدياد من الفضل؛ ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويحك قطعت عنق صاحبك**». وفي الحديث الآخر «**قطعتم ظهر الرجل حين وصفوه بما ليس فيه**»، وعلى هذا تأوّل العلماء قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احثوا التراب في وجوه المداحين**»، فالمراد به المداحون في وجوههم بالباطل وبما ليس فيهم، حتى يجعلوا

(١) صور من حياة الصحابة: (١/ ١٠١-١٠٣).
(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٨٧ رقم ٢١٤١).

ذلك بضاعة يستأكلون به الممدوح ويفتنونه. فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر المحمود؛ ليكون منه ترغيبًا له في أمثاله، وتحريضًا للناس على الاقتداء به في أشباهه، فليس بمدّاح، وإن كان قد صار مادحًا بما تكلَّم به من جميل القول فيه، وهذا راجعٌ إلى النيات، والله يعلم المفسد من المصلح. وقد مُدِحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشعر والخطب والمخاطبة، ولم يحثُ في وجوه المداحين التراب، ولا أمر بذلك. كقول أبي طالب:

وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوجهِهِ
ثِمَالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ[1]

وكمدح العبّاس وحسان له في شعرهما، ومدحه كعب بن زهير، ومدح هو أيضًا أصحابه فقال: «**إنكم لتقلُّون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع**»[2]. وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صحيح الحديث: «**لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فقولوا: عبدالله ورسوله**»[3]، فمعناه لا تصفوني بما ليس فيَّ من الصفات تلتمسون بذلك مدحي، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله، فكفروا بذلك وضلّوا. وهذا يقتضي أن من رفع امرءًا فوق حدِّه، وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمعتدٍ آثم؛ لأن ذلك لو جاز في أحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٤٢٢ رقم ١٠٠٨).

(٢) أورده الخطابي في أعلام الحديث (٢/ ١٣٩٨ رقم ٢٩٠٨)، وابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٩/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٥٥٢ رقم ٣٤٤٥).

(٤) تفسير القرطبي: (٣/ ١٧١، ١٧٢).

التمكين

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

هي القوة والعزّة لله، والنصر بيد الله، والتمكين بإرادة الله، ووعد الله مؤكَّد، وفي هذا التوجيه الربَّاني وضوحٌ وجلاء بالدعوة إلى الخير والصلاح، والنَّهي عن الشر والفساد.

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره: «﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ملَّكناهُم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع ينازعهم، ولا معارض. ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾التي عليهم خصوصًا، وعلى رعيتهم عمومًا، آتوها أهلها، الذين هم أهلها، ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعًا وعقلًا، من حقوق الله، وحقوق الآدميين، ﴿وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ كل منكر شرعًا وعقلًا، معروف قبحه. والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر

شرعًا، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك مؤقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة»[١].

وقد تناول شيخ الإسلام ابن تيمية شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتفصيل، فقال: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحدٍ بعينه، بل هو على الكفاية كما دلَّ عليه القرآن، وقال: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبَّات، فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيهما راجحةٌ على المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرسل، ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذمَّ المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجبًا وفعل محرمًا، فالمؤمن عليه أن يتقي الله في عباده، وليس عليه هُداهم...»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص٥٣٩).
(٢) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ١٢٦).

وقال الشعراوي في تفسيره: «تغيير المنكر له مراحل، وضّحها النبي ﷺ في قوله: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[١]. فالله أمرك أن تغيّر المنكر، لكن جعل لك تقدير المسألة ومدى إمكانك فيها، فالدين يُريدك مصلحًا، لكن لا يريد أن تلقي بنفسك إلى التهلكة، فلك أن تُغيِّر المنكر بيدك؛ فتضرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر، كأن يكون ولدك أو أخاك... إلخ، فلك أن تضربه مثلًا إن رأيت سيجارةً في فمه، أو أن تكسر له كأس الخمر إن شربها، أو تمزِّق له مثلًا ورق (الكوتشينة)، فإن لم تكن لك هذه الاستطاعة فيكفي أن تُغيّر بلسانك إن كانت لديك الكلمة الطيبة، التي تداوي دون أن تجرح الآخرين، ودون أن يؤدِّي النصح إلى فتنة، فيكون ضرره أكثر من نفعه، فإن لم يكن في استطاعتك هذه أيضًا، فليكن تغيير المنكر بالقلب»[٢].

وأعرض في هذا المقام ما رواه البغدادي في تاريخه حول قصة الفضل بن دُكين مع الخليفة العباسي المأمون، وقد مَنَعَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بغداد، فعجبتُ كيف ينهى الخليفة، وهو العالم والعارف بالقرآن الكريم؛ فالآيات القرآنية تتكرر حول وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن حين نقرأ القصة يتضح الأمر. قال الراوي: «لما دخل المأمون بغداد نادى بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك أن الشيوخ ببغداد كانوا يحبسون ويعاقبون في المحالِّ،

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٩ رقم ٤٩).
(٢) تفسير الشعراوي: (١٩/ ١١٦٦٢).

فنـادى بذلك؛ لأن الناس قـد اجتمعوا على إمامٍ فنهاهـم المأمون، وقال: قـد اجتمع الناس على إمـام. قال فدخل أبو نُعيم بغـداد في ذلك الوقت، فنظر إلى رجلٍ من الجند قد أدخل يده بين فخذي امرأة، فزجره أبو نعيم، فتعلّـق الجنـدي بأبي نعيم، ودفعه إلى صاحب الشـرطة، وعلى الشـرطة يومئـذٍ عيّاش، وصاحب الخبر أبو عبـاد، فكتب بخبره إلى المأمون، فأمر بحملـه إليه، قـال أبو نعيم: فأُدخِلتُ عليـه وقد صلّى الغداة، وهو يُسـبح بحَـبٍّ في شـيءٍ مـن فضة، فسـلّمتُ عليـه، فرد السـلام في خفاء -شـبه الواجد- فبينما أنا قائمٌ؛ إذ أتى غلام بطشتٍ وإبريق فنَحَّاني من بين يديه، وأجلسـني حيث ينظـر، وقال لي: توضَّأ، قال: فأخـذتُ الإناء وتوضَّأت، كمـا حدثنا الثـوري حديث عبد خير عـن علي، ثم جِـيء بحصير، فطُرح لي، فقُمتُ وصليتُ ركعتين، كما رُوي عن أبي اليقظان عمار بن ياسر أنه صلّـى ركعتين فأوجز فيهمـا، ثم صاح بي إليه فجئتُ، فأمرني فجلسـتُ، فقال لي: ما تقول في رجلٍ مات وخلّف أبويه؟ فقُلتُ لأمِّه الثلث وما بقي فلأبيه، قال فخلف أبويه وأخاه، فقلتُ لأمِّه الثلث وما بقي فلأبيه وسـقط أخـوه، قال فخلـف أبويه وأخوين، فقلتُ لأمِّه السـدس ومـا بقي فلأبيه، فقـال لي: في قـول الناس كلهم؟ فقلـتُ لا، في قول النـاس كلهم إلا في قول جدِّك، فإنه ما حجبها عن الثلث إلا بثلاث أخوة، فقال لي: يا هذا من نَهَى مثلك أن يأمر بالمعروف! إنما نَهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكرًا، قـال فقلتُ فليكن في ندائك لا يأمر بالمعروف إلا من أحسـن أن يأمر به، فقال لي انصرف»(١).

---

(١) تاريخ بغداد: (١٢/ ٣٥٠).

إن أبا نعيم استشعر واجبه نحو دينه حين رأى المنكر فزجر صاحبه، وحين اختبر الخليفة المأمون الرجل، وعرف عِلمَهُ وفهمهُ أذِن له؛ ولهذا صارت كلمته «إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكرًا» قانونًا يُدرَّس.

وأبو نعيم من شيوخ الإسلام، وُلد سنة ١٣٠هـ، وتُوفي سنة ٢١٨هـ، كان له متجرٌ في الكوفة يبيع فيه ويقتات، وذلك غالب علماء السلف الأوائل، إنما يُنفقون ويعيشون من كسبهم. وكان الإمام أحمد بن حنبل يجلس إليه، وله قصةٌ طريفة معه. يقول الراوي: «سمعتُ أحمد بن منصور الرمادي يقول: خرجتُ مع أحمد بن حنبل ويَحيى بن معين إلى عبدالرزاق خادمًا لهما، قال: فلما عُدنا إلى الكوفة، قال يحيى بن مَعين لأحمد بن حنبل: أريدُ أن أختبر أبا نعيم، فقال أحمد بن حنبل: لا تُرِد فالرجل ثِقة، قال يحيى: لا بُدّ لي. فأخذ ورقةً، فكتب فيها ثلاثين حديثًا من حديث أبي نعيم، وجعل على رأس كل عشرةٍ منها حديثًا ليس من حديثه، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نُعيم، فدقُّوا عليه الباب فخرج وجلس على دُكَّان طين حذاء بابه، وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه، ويحيى عن يساره، وجلستُ أسفل الدُكَّان، ثم أخرج يحيى الطبق، فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر، قال أبو نُعيم: ليس هذا من حديثي اضرِب عليه. ثم قرأ العشر الثاني، وأبو نُعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي، فاضرِب عليه. ثم قرأ العشر الثالث، ثم قرأ الحديث الثالث فتغيَّر أبو نُعيم وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى، فقال: أما هذا -وذراعُ أحمد بيده- فأورَعُ من أن يعمل مثل هذا، وأما هذا -يُريدُني- فأقلُّ من أن يفعل ذاك، ولكن هذا من فعلك يا فاعل،

وأخرج رِجلَه، فرَفسَ يحيى، فرمى به من الدكّان، وقام، فدخل داره، فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمنعك وأقُل لك: إنه ثَبْتٌ. قال: واللهِ، لَرفْسَتُه لـي أحبُّ إليَّ من سَـفرتي»[١]. جيلٌ مبارك، حريصٌ على العلم، يسـتقبل رفسة العالِم بالرضا والترحاب، طالما كانت هناك فائدةٌ علمية.

هذا وبعد، فهل نمارس مع أُسـرنا وأقربائنا وأصدقائنا هذه الشـعيرة؟ فأنكرنا ولو بقلوبنا إنكارًا حقيقيًّا، كما تناوله الشـيخ الشـعراوي وبسَّـطَه! يقول شـيخ الإسـلام ابـن تيمية: «قـد يُذنب الرجـل أو الطائفة ويسـكت آخرون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرُّق والاختلاف والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديمًا وحديثًـا»[٢]. ويقـول أيضًا: «كلُّ بَشـرٍ على وجه الأرض فلابـدَّ له من أمرٍ ونهي، ولابدَّ أن يأمر وينهى، حتى لو أنّه وحده، لكان يأمر نفسـه وينهاها؛ إمـا بمعـروف وإمـا بمنكـر، كمـا قـال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾» [يوسف: ٥٣][٣].

قيـل لابن مسـعود: «مَن ميِّتُ الأحياء؟ فقال: الـذي لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكـرًا»[٤]. نَوَّر الله البصائر، وجعلني وإيَّاكم وذريَّاتنا جميعًا من الآمرين بالمعروف النَّاهين عن المنكر، آمين.

(١) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ١٤٨).
(٢) روائع ابن تيمية: (ص٨٧).
(٣) روائع ابن تيمية: (ص١٠٣).
(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: (١٦/ ٥٩).

تخويف وبشارة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٦-٥٧].

آياتُ تخويفٍ وبشارة، ورد التحذير الربَّاني لأهل النار بقوله تعالى: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾، وجاءت البشارة لأهل الجنّة بقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾. وفي سورة الزمر ورد التخويف لأهل النار بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وجاءت البشارة لأهل الجنة بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

وقد توقّفتُ متأملًا اختلاف التعبير القرآني بين أهل الجنة وأهل النار؛ أهل الجنة قيل لهم في سورة النساء سندخلهم، وفي سورة الزمر ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، وأهل النار قيل لهم في سورة النساء سوف نصليهم، وفي سورة الزمر ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾. إن كل كلمة، وكل حرف في القرآن الكريم له دلالته، والمتدبِّر تستوقفه الحروف والكلمات والجُمل.

ونظرتُ في كتب التفسير، وإذ بالعلماء الأوائل قد تناولوا هذه التعابير بشيءٍ من التعليق؛ فالشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: عند قوله تعالى: ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾: «إن المعنى مختلف بين التعبيرين، ففي الوعيد بالنسبة لأهل النار جاء بـ (سوف)، ولأهل الجنة بـ (السين)؛ وذلك لأن أهل النار يفسح لهم لعلهم يتوبون إلى الله فيرجعون، وحينئذٍ لا يكونون من أهل النار، أما أهل الجنة فإنهم يدخلون الجنة، ويدخلون جنَّة الدنيا قبل جنَّة الآخرة: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]. ولا حياة أطيب حياة من حياة المؤمنين أبدًا؛ قال بعض السلف: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك الذين تمَّت لهم الدنيا على ما يريدون، لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف». قاتلونا مقاتلة، يريدون أن ينالوه، ولكن لا يحصل لهم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما يصنع أعدائي بي -لـمَّا حُبس- إن جنتي في صدري، إن جنتي في صدري؟!».

وقال الشيخ: إنما قال: (سوف) في أهل النار، ليمد لهم في الأجل، لعلهم يرجعون فأراهم العذاب وكأنه بعيد، لكن أهل الجنة أراهم النعيم كأنه قريب حتى ينشطوا على العمل، هم في الحقيقة في جنة، أهل السعادة في سعادة حتى في الدنيا، ولهذا قال الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]. فكلُّ أمره خير، كلُّ أمره خير إن أصابته الضرّاء صبر مع

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩).

الله عَزَّوَجَلَّ وصبر لله، وانشرح صدره، وكما قالت رابعة العدوية لما أصابها جرح في أصبعها، وأظنه انقطع الأصبع؛ قالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها، فالمؤمن في الحقيقة حتى وإن أُصيب بالمصائب يُوفّق للصبر، ويُثيبُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ على ذلك ولا كأنه أصيب، وإن أصابته السراء شكر، فزيد في النعمة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]»[1]. هذا ما ذكره الشيخ ابن عثيمين. فأهل النار جاء التعبير بـ(سوف) للإمهال لعلهم يتداركون أنفسهم، أمَّا أهل الجنة فكان التعبير بـ(السين) ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ بشارةٌ وتعجيل. كتبنا الله من أهل الجنة، ونجَّانا من النار وأهلها.

ونتنقل لآية الزمر، فقد ورد التعبير القرآني مع أهل النار حين سوقهم إلى جهنم بقوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، ومع أهل الجنة حين سوقهم إلى الجنة بقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، فما الفرق بين التعبيرين؟ حرفٌ واحد هو الواو أوجد الفرق، واستوقف المتدبر والمتأمل، ورد في تفسير القرطبي: «قَالَ النَّحَّاسُ: فَأَمَّا الْحِكْمَةُ فِي إِثْبَاتِ الْوَاوِ فِي الثَّانِي وَحَذْفِهَا مِنَ الْأَوَّلِ، فَقَدْ تكلَّمَ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِقَوْلٍ لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَبَقَهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أَهْلِ النَّارِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ دَلَّ بِهَذَا عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مُغْلَقَةً، وَلَمَّا قَالَ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ دَلَّ بِهَذَا عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مُفَتَّحَةً قَبْلَ أَنْ يَجِيئُوهَا»[2].

أما الزمخشري فجاء في تفسيره: «قيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدِّم فتحها، بدليل قوله:

(١) تفسير ابن عثيمين، موقع الباحث القرآني: https: / /tafsir.app /
(٢) تفسير القرطبي: (٨/ ١٨٥).

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، فلذلك جيء بالواو، كأنَّه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها. فإن قلت: كيف عبَّر عن الذهاب بالفريقين جميعًا بلفظ السَّوق؟ قلت: المراد بسَوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسَوق أهل الجنة: سَوق مراكبهم؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، وحثّها إسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يُفْعَلُ بمن يُشَرَّفُ ويُكَرَّمُ من الوافدين على بعض الملوك، فشتّان ما بين السَّوقَيْن»[(١)].

وقال الشيخ ابن سعدي: «قال في النّار ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، وفي الجنّة ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرِّها، وأشدُّ لعذابها.

وأما الجنّة، فإنّها الدار العالية الغالية التي لا يوصل إليها ولا ينالها كلُّ أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها؛ بل يستشفعون إلى اللّه بمحمد ﷺ، حتى يشفع، فيشفّعه اللّه تعالى»[(٢)].

إذن، فخلاصة ما ذكره المفسِّرون أن النّار مغلقةٌ تفور كما الإناء المضغوط، يكاد ينفجر من شدَّة غليانه ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك: ٨]. أما الجنّة فنعيمٌ قد أعدَّه الله لعباده المتقين مُفتَّحَة الأبواب؛ ترحيبًا وتكريمًا لأهلها.

جعلنا الله من أهلها، ونجانا من جهنم وغيظها آمين.

---

(١) الكشّاف: (٥/ ٣٢٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (٧٣٠).

التهجد

قـال تعالـى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

رُحمـاكَ ربّـي ما أكرمـك، تُرشـدنا للخيـر، وتتلطَّف بنا نحن البشـر، فتهدينـا دروب الفضيلة! سـبحانك، سـبحانك! تدعو عبـادك لمناجاتك بجزءٍ يسيرٍ من ليلهم الطويل!

قـرأ صحابة رسـول الله ﷺ نور الله، قرآنـه الكريم، وما ورد فيه من ندبٍ ودعوة، فكانوا يتسابقون لطاعة الله، وتذوقوا لذة العبادة، فكانوا يَهُبُّون من نومهم يتوسـلون ويناجون ربهم؛ رُوي عن الصحابي شـدّادُ بن أوسٍ الأنصـاري أنـه كان إذا أوى إلى فِراشـه لينال قدرًا مـن الراحة، ظلَّ يتقلـب في مضجعه فرقًا وخوفًـا من الله لا يأتيه النوم وهو يقول: اللهم إن النار أذهبت عني النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح[1].

إن هـذه الآيـة الكريمـة، وإن كانـت تخاطـب الرسـول ﷺ خيـر البشرية، فهي –كما ذكر المفسرون– تندب كلَّ المسلمين لصلاة التهجد.

---

(١) صفة الصفوة، (١/ ٣٠٤).

يقول أحد العلماء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به، وهو المصطفى المختار، فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به في درجاتهم، فهذا هو الطريق، وهذا هو زاد الطريق».

تـروي كُتب السيرة «أن عبدالله بـن عمر بن الخطاب كان منذ شبابه متعلِّقًا قلبـه بالمساجد، ففـي المسـجد راحته ونجـواه، وفي المسـجد عبادته إذا رَامَ العبادة، حَدَّث عن نفسـه قال: كان الرجل في حياة الرسـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا رأى رُؤيا قَصَّهـا علـى رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكنـتُ آنئذٍ غُلامًا شـابًا عَزْبًا، وكنتُ أنام في المسجد النبوي...، فرأيت في النوم كأن مَلَكَين أخذاني وذهبا بي إلى النار، وإذا للنار قَرْنَان، وإذا بي أرى فيها نَاسًا قـد عرفتهـم؛ فجعلتُ أقول: أعـوذ بالله من النار... أعوذ بـالله من النار... فَلَقِيَني مَلَكٌ آخر فقال: لا بأس عليك؛ فإنك لن تُراع... فقصصتُ رؤياي على أختي أم المؤمنين حفصة؛ فقَصَّتها على الرسول الكريم صلوات الله وسـلامه عليـه؛ فقال: «**نِعم الرجل عبد الله؛ لـو كان يُصلي بالليل**»[1]. فما إن سـمع ذلك؛ حتى عقد العزم على ألا ينـام من الليل إلا قليلًا...، فكان إذا أسـلم النـاس جنوبهم إلى المضاجـع يُصلي ما يشـاء الله أن يُصلي... ثـم يصير إلى الفراش فيغفـو إغفاءة الطائر، ثم يقـوم فيتوضأ ويصلي...، ثـم يغفو إغفاءة الطائـر، وكان يفعل ذلك في الليل أربـع مراتٍ أو خمس مرات»[2].

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٢٨٧ رقم ٣٧٣٩).
(٢) صور من حياة الصحابة: (٢/ ٢٣٧، ٢٣٨).

ذاك عبدالله بن عمر يَحُثُّه النبي ﷺ على صلاة الليل، فكيف بنا نحن، هل نأخذ بهذه الدروس، ونقتدي بأولئك الأوائل!

وذاكم التابعي صِلَة بن أَشْيَم، حكى جعفر بن زيد قال: خرجنا مع جيشٍ من جيوش المسلمين في غَزَاةٍ إلى مدينة كابل؛ رجاء أن يفتحها الله لنا، وكان في الجيش صِلَةُ بن أَشْيَم، فلما أرخى الليل سُدوله -ونحن في بعض الطريق- حطَّ الجند رحالهم، وأصابوا شيئًا من الطعام، وأدَّوا العِشاء الأخيرة، ثم مضوا إلى رحالهم يلتمسون عندها حظًّا من الراحة، فرأيتُ صِلَة بن أَشْيَم يمضي إلى رَحله كما مضوا، ويُسلم جنبه إلى الرقاد كما فعلوا، فقلتُ في نفسي: أين الذي يَروونه من صلاة الرجل وعبادته، ويُشِيعونه من قيامه حتى تتورم قدماه؟! والله لأرمقُه الليلة حتى أرى ما يكون منه.

فما إن غرق الجنود في نومهم، حتى رأيته يستيقظ من رقدته، وينحاز عن العسكر مُستترًا بالعتمة، ويدخل في غابةٍ لَفَّاء، باسقة الأشجار، وحْشِيَّة الأعشاب، كأنها لم تطأها قدمان منذ دهرٍ طويل، فمضيتُ في إثره، فلما بلغ منها مكانًا قَصيًّا؛ التمس القبلة واتّجه إليها، وكَبَّر للصلاة واستغرق فيها، فنظرتُ إليه من بُعد؛ فرأيتُه مُشرق الوجه، ساكن الأعضاء، هادئ النفس، كأنما يجدُ في الوَحشة أُنسًا، وفي البُعد قُربًا، وفي الظُّلمة ضياءً مُنيرًا. وفيما هو كذلك، طلع علينا أسدٌ من الجانب الشرقي للغابة، فما إن أَثْبَتُّه حتى انخلع فؤادي هلعًا منه، فعلوتُ شجرةً باسقةً لِوَاذًا من شرِّه، فما زال الأسد يدنو من صِلَةَ بن أَشْيَم، وهو غارقٌ في صلاته حتى أصبح على قيد خطواتٍ منه، فوالله ما التفتَ إليه، ولا حَفَلَ به، فلما سجد،

قلتُ: الآن يَفترسه، فلما نهض من سجوده وجلس، وقف الأسد بإزائه كأنه يتأمله، فلما سَلَّم نظر إلى الأسد في سكون، وحرك شفتيه بكلامٍ لم أسمعه، فإذا بالأسد ينصرف عنه في هدوء، ويعود من حيث جاء.

ولما انْبَلَجَ الفجر، نهض فأدَّى المكتوبة، ثم طَفِق يحمد الله عَزَّوَجَلَّ بمحامد لم أسمع مثلها قط، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تُجيرني من النار، وهل يَجترئ عبدٌ خاطئ مثلي أن يسألك الجنّة؟! ومازال يكررها حتى بكى وأبكاني، ثم رجع إلى الجيش دون أن يَفطن له أحد. وبدا لعيون القوم كأنّه بات على الحَشَايا، وعُدتُ أنا في إثره، وبي من سهر الليل، وفتور الجسم، وخوف الأسد ما الله به عليم»[1].

رجالٌ صدقوا الله في سِرِّهم وعلانيتهم، واقتطعوا ساعاتٍ من ليلِهم، يتهجدون ويتوسلون، فوقاهُم الله وحَفِظَهُم وحَرَسَهُم بعينه التي لا تنام.

كان لصِلَة بن أَشْيَم ابنة عم تُدعى مُعاذة العدوية، تابعيّةٌ مثله... لَقيَتْ أم المؤمنين عائشة -رضوان الله عليها- وأخذت عنها، كانت تقيَّةً، نقيَّةً، عابدةً، زاهدة، من عادتها إذا أقبل الليل تقول: قد تكون هذه آخر ليلةٍ لي، فلا تنام حتى تصبح، كانت تُحْيي ليلها صلاةً وقراءةً للقرآن، فإذا غلبها النُّعاس قامت فمشت في الدار، وهي تقول: أمامكِ يا نفْس نومٌ طويل، غدًا تطول رقدتُكِ في القبر، إمّا على حسرةٍ، وإمّا على سرور، فاختاري يا معاذة لنفسك اليوم ما تحبِّين أن تكوني عليه غدًا، وتزوَّج صِلةٌ مُعاذةَ، فلما كان يوم إهدائها إلى زوجها، قام ابن أخٍ له بشأنه، فمضى به إلى

(١) صور من حياة التابعين: (١/ ٣١٨-٣٢٠).

الحمـام، ثـم أدخله عليها في بيـتٍ مُطَيَّب...، فلما صارا معًـا، قام يصلِّي الركعتيـن المسـنونتين، فقامت تصلِّـي بصلاته وتقتدي به، ثـم اجتذبهما سِـحر الصـلاة؛ فمضيا يُصلّيان معًا حتـى بَرَقَ الفجر، فلمّـا كانت الغداة، جـاءه ابن أخيه، وقال: يا عمّ، لقد أهديـتُ إليك ابنة عمِّك؛ فقُمتَ تُصلي الليل كلَّه وتركتَها.

فقـال: يا ابن أخي... إنـك أدخلتني أمس بيتًا أَذْكرتَنـي به النار...، ثم أدخلتني آخر أذكرتني به الجنة...، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحتُ.

فقال الفتى: وما ذاك يا عمُّ؟!

فقال: لقد أدخلتني الحمام؛ فأذكرني حَرُّه حَرَّ جهنم، ثم أدخلتني بيت العُرس؛ فأذكرني طِيبُه طِيبَ الجنة»[1].

أولئـك جيـلٌ قرأ القـرآنَ، نَـوَّر اللهُ بصائرهـم؛ صلاةٌ وتهجُّـد، ودعاءٌ وسـجود، كانوا قُدوات، ازدان بهم تاريخُنا الإسـلامي الوَضَّاء. رزقنا الله الاقتداء بهم، آمين.

---

(١) صور من حياة التابعين: (١/ ٣٢٥، ٣٢٦).

جهالة

ثلاث آيات وردت في القرآن الكريم، في ثلاث سور، تناولت رحمة الله، وسعة حلمه على خلقه؛ يُخطئون فيتوبون فيَغْفِرُ اللهُ لهم!

الآية الأولى في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

والآية الثانية في سورة الأنعام، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والآية الثالثة في سورة النحل، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

تكررت كلمات؛ (عملوا)، و(سُوءًا)، و(جهالة)، وكُلنا -أخي في الله- نعملُ في هذه الحياة الدنيا، وقد نجهلُ فيصدر منّا سُوءًا؛ ولذا فلنتذَكّرِ الله، وأنه يقبل التوبةَ، ولِنَتذكر أن الله ندَبنا للتوبة ووعد بالقبول،

وبالمغفرة والرحمة، فهيّا أسرع أُخيَّ وتُب إلى ربك، واحذر أن تشمت بغيرك، فقد ترى آخر صدر منه سُوءًا، وحصلت منه جهالة، فتشمت به، فربما أنه قد تاب وتاب الله عليه، وتأثم بقولك فيه! وقد جاء في الأثر: لا تُظهرِ الشَّماتةَ لأخيكَ فيرحمَهُ الله ويبتليَكَ! احفظ لسانك واحذر الجهالة. عن معاذ بن جبل: قلتُ يا رسولَ اللهِ أنؤاخذُ بكلِّ ما نتكلمُ به، فقالَ: «**ثَكِلتْك أمُّك يا معاذُ بنَ جبلٍ، وهل يكُبُّ الناسَ على مناخرِهم في جهنمَ إلا حصائدُ ألسنتِهم**»(1).

وقد تناول علماءُ التفسير كلمة (جهالة)؛ ففي تفسير ابن كثير: عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: اجْتَمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَوْا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عُصِيَ بِهِ فَهُوَ جَهَالَةٌ، عَمْدًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: المراد بالجهالة هنا السفاهة وليست الجهل؛ لأن فاعل السوء بجهل معذور لا ذنب عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولكن المراد بالجهالة هنا السفاهة، ومنه قول الشاعر الأول:

أَلَا لَا يَجْهَلنَّ أَحَدٌ علينا
فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا(2)

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١١ رقم ٢٦١٦) والنسائي في سننه الكبرى (٦/ ٤٢٨ رقم ١١٣٩٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) هذا قول عمرو بن أم كلثوم، وهو من معلقته المشهورة ضمن المعلقات السبع المشهورة. ذكر البيت ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٩) وابن كثير في تفسيره (١/ ٥٢٧)، وابن عثيمين في مجموع فتاويه (٢٠/ ١٣٧).

ويفتح الله جَلَّجَلَالُهُ أبواب الخير، فيندب في سورة آل عمران إلى المسارعة إلى مغفرته وجنته العظيمة، التي أعدها وجهزها للمتقين، ويُبين سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في هذه الآية؛ مَنْ هُم عبادهُ المتقون؛ فمن أوصافهم أنهم إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروه، إن الله يغفر الجهالة والوقوع في الخطأ، فأَسْرِع إلى ربك، وأدرِك نفسك قبل فوات الأوان، فإن للتوبة ثوابًا وأجرًا كبيرًا. ردِد هذه الآية بتأملٍ وتدبر، تجد السعادة والنعيم، فلله الشكر، رحمنٌ رحيم، يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٥]. إنها صفاتٌ بينة لا تحتاج لبيان ولا تفسير!

وفي سورة النساء ترد آية كريمةٌ تندب ذاك التائه الذي عمل السوء، تندبه للاستغفار، وتبشره أن الله غفور رحيم بخلقه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

قال الشيخ ابن عثيمين: من تجرأ على المعاصي، واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًّا، يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على ألا يعود، فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وإذا

غفـره غفـر ما يترتـب عليه، واعلـم أن عمل السـوء عند الإطلاق يشـمل سـائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسـمي (سـوءًا)؛ لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئًا غير حسن.

وفـي سـورة الزُّمُر تأتـي آية الرجـاء وعدم القنـوط: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قـال ابن عطية في تفسـيره: هَذِهِ الآيَـةُ عامَّةٌ في جَمِيعِ النـاسِ إلى يَوْمِ القِيامَـةِ، فـي كافِرٍ ومُؤْمِنٍ، أيْ أنَّ تَوْبَةَ الكافِرِ تَمْحُـو كُفْرَهُ، وتَوْبَةَ العاصِي تَمْحُو ذَنْبَهُ.

هـذا وقد وردت أحاديث متعددة تُبشـر بقبـول التوبة، فعن عبدالله بن عمرو: «إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ»[(١)].

وفـي حديـث آخـر، عـن أربعة مـن أصحـاب النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فقد اجتمعَ أربعةٌ من أصحابِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقالَ أحدُهُم: سَـمِعْتُ رسـولَ اللهِ يقـولُ: «**إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبـدِ قبلَ أن يموتَ بيوم**»، فقالَ الآخرُ: أنتَ سـمِعتَ هذا من رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقـولُ: «**إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبـدِ قبلَ أن يموتَ بنصفِ يوم**»، فقالَ الثّالثُ: أنتَ سـمِعتَ هذا من رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنـا سَـمِعْتُ رسـولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ اللهَ يقبلُ توبـةَ العبدِ قبلَ أن**

(١) أخرجـه أحمـد (١٠/ ٣٠٠ رقـم ٦١٦٠)، والترمـذي (٥/ ٤٣٨ رقـم ٣٥٣٧) وحسـنه. وصححه ابن حبـان (٢/ ٤٩٣ رقـم ٦٢٨)، والحاكـم (٤/ ٢٥٧ رقـم ٧٦٥٩)، وحسـنه الألبانـي في صحيح الترغيـب والترهيـب (٣/ ١٢٢ رقم ٣١٤٣).

يموتَ بضحوةَ»، قالَ الرّابعُ: أنتَ سمِعتَ هذا من رسولِ الله ﷺ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ: «**يقولُ إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ بنفسِهِ**»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه **للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِن أَحَدِكُمْ كانَ على راحِلَتِهِ بِأَرْضِ فلاةٍ، فانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْها طَعامُهُ وَشَرابُهُ، فأَيِسَ منها، فأتى شَجَرَةً، فاضْطَجَعَ في ظِلِّها، قدْ أَيِسَ مِن راحِلَتِهِ، فَبيْنا هو كَذلكَ إِذا هو بِها قائِمَةً عِنْدَهُ، فأَخَذَ بِخِطامِها، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ**[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ٢٥٦ رقم ١٥٤٩٩) والحاكم (٤/ ٢٨٦ رقم ٧٦٦١) والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٢٨٧ رقم ٦٦٦٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٧ رقم ١٧٥٠٥)، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبدالرحمن وهو ثقة.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٤ رقم ٢٧٤٧).

حَافِظُون

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

هـو كتاب الله تولّـى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حِفْظَهُ، فَلَمْ يَزَلْ مَحْفُوظًا، وسـيبقى محفوظًـا إلى ما شـاء الله، وحفـظ اللهُ به اللغةَ العربيةَ، لسـانه الذي به نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، ورفع به أقوامًا وأعزَّ به آخرين. قال الشيخ ابن سـعدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: «في حَال إنزاله وبعـد إنزاله، ففي حَال إنزاله حافظون له من اسْـتِراقِ كُلِّ شـيطان رجيم، وبعـد إنزالـه أودَعَـهُ اللهُ في قَلْبِ رَسُـولِهِ، ثم فـي قُلوب أُمَّتـه، وَحَفِظ اللهُ ألفاظَهُ مـن التغييرِ فيها والزيادةِ والنقصِ، ومعانيهِ من التبديلِ، فلا يُحرِّفُ محـرِّفٌ معنىً من معانيه إلا وقيَّض الله له من يُبَيِّن الحَقَّ المُبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين. ومن حفظه أن الله يحفَظُ أهلَهُ من أعدائهم، ولا يُسلِّط عليهم عدوًّا يجتاحهم»[١].

ونعلـمُ أنـه مضت قـرون وقرون منـذ نزولـه، واجتاحت المسـلمين عواصـف ومحنٌ، وتسـلط أعداء الإسـلام على ديار المسـلمين، فخرَّبوا البلاد، وعذّبوا العلماء، وقتلوا السكان، وأحرقوا كُتَب العلم، ودمَّروا دورَ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤٢٩).

العلماء وصُروح المجد، وحاولوا فتن المسلمين عن دينهم؛ فوصفوهم بالتخلف، ووسموهم بالإرهاب، وعدُّوا حضارتَهم ماضوية، وقالوا، وقالوا، لكنهم لم يستطيعوا النيل من كتاب الله، وما جرُؤوا على تحريفه أو تبديله، حتى عندما جاؤوا عن طريق استدرار عواطف المسلمين ومحبّتهم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطبعوا مصاحف، وأضافوا إلى بعض آياتها الصلاة والسلام على رسول الله؛ رفضها المسلمون، وعرفوا تلك الزيادة. يقول الشيخ الشعراوي في تفسيره: «لكي نعرف دقَّة حفظ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكتابه الكريم؛ نجد أن البعض قد حاول أن يدخل في القرآن ما ليس فيه، وحاول تحريفه من مدخلٍ يرون أنه قريب من قلب كل مسلم، وهو توقير الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاؤوا إلى قول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وأدخلوا على هذه الآية كلمة ليست منها. وطبعوا مصحفًا غيّروا فيه تلك الآية بكتابة (محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم)، وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه، وقالوا: «إن به شيئًا زائدًا»، فَرَدَّ مَنْ طبع المصحفَ قال: «ولكنها زيادة تحبُّونها وتُوقِّرونها»، فردَّ العلماء: «إن القرآن توقيفي؛ نقرؤه ونطبَعُهُ كما نزل». وقامت ضجّة؛ وحسمها العلماء بأن أي زيادة -حتى ولو كانت في توقير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبّته- لا تجوز في القرآن؛ لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقَّنه جبريل لمحمد

ﷺ»(١). هـو القـرآن ثابـت كاملٌ لا خـلاف فيه، ولا خـلاف حوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

حيـن قُتـل القُـراء في معركـة اليمامـة هدى الله سـيدَنا أبا بكـر لكتابة المصحـف بمشـورة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعيـن: «عن خارجة بن زيد بـن ثابت، عـن أبيه زيد، قال: لما قُتل أصحاب رسـول الله ﷺ باليمامـة، دخـل عمر بـن الخطـاب علـى أبي بكـر، فقـال: إن أصحـاب الرسـول ﷺ باليمامة تهافتوا تهافُت الفراش في النار، وإني أخشى ألا يشهدوا موطنًا إلا فعلوا ذلك حتى يُقتلوا -وهم حَمَلة القرآن- فيضيع القرآن ويُنسَـى، فلـو جَمَعتَه وكتبتَه، فنفر منها أبو بكر، وقـال: أَفْعَلُ ما لم يفعـلْ رسـولُ الله ﷺ! فتراجعـا فـي ذلك، ثـم أرسـل أبو بكر إلى زيد بـن ثابـت، قال زيدٌ: فدخلتُ عليـه، وعُمر مُحْزَئـل(٢)، فقال أبو بكر: إن هـذا قد دعانـي إلى أمرٍ فأَبَيْتُ عليه، وأنت كاتبُ الوحي، فإن تكُن معه اتبعتُكمـا، وإن تُوافقني لا أفعل. قال: فاقْتَصَّ(٣) أبو بكر قول عمر، وعمرٌ ساكت، فنَفَرْتُ من ذلك، وقلتُ: نفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ؟ إلـى أن قال عمـر كلمة: وما عليكمـا لو فعلتُما ذلك؟ قـال: فذهبنا نَنْظرُ، فقُلنـا: لا شـيء، والله ما علينـا في ذلك شـيء. قال زيد: فأمرنـي أبو بكر فكتبتُـه فـي قِطَع الأُدُم وكِسَـرِ الأكتاف والعُسُـب(٤)، فلما هلـك أبو بكر،

(١) تفسير الشعراوي: (١٢/ ٧٦٥٣).
(٢) مُحْزَئل: أي منضمٌّ بعضه إلى بعض.
(٣) أي، أورد قول عمر رضي الله عنهم أجمعين.
(٤) الأُدُم: جمع أديم: وهو الجلد المدبوغ. والأكتاف: جمع كتف: وهو عظم عريض خلف المنكب. والعُسُب: جمع عسيب: وهو جريدة النخل المستقيمة يكشف خوصها.

وكان عمـر كتب ذلك في صحيفةٍ واحدة، فكانت عنده، فلما هلك كانت الصحيفة عند حفصة زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[١].

وفي عهد سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أُعيدت كتابة المصحف، ونسخوا منه عدَّة نسخ، ووزَّعوها في الأمصار، وذلك أن «حذيفة بن اليمان قَدِمَ من غزوةٍ كان غزاها في فرجٍ[٢] إرمينية، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان بن عفان، فقال: يا أمير المؤمنين، أَدْرِك الناس، فقال عثمان: وما ذاك؟ قال: غَزَوْتُ فرج إرمينية، فحضرها أهل العراق وأهل الشـام، فإذا أهل الشام يَقرؤون بقراءة أُبيٍّ بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، فَيُكَفِّرهم أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة ابن مسعود، ويأتون بما لم يسـمع أهل الشام، فيُكفرهم أهل الشـام، قال زيد: فأمرنـي عثمان بن عفان أكتب له مُصحفًا، وقـال: إنـي مُدْخِلٌ معـك رجلًا لبيبًا فصيحًـا، فما اجتمعتما عليـه فاكتباه، ومـا اختلفتما فيـه فارفعاه إليَّ، فجعل أبَانَ بن سـعيد بن العاص، قال فلما بلغـا: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، قال زيد: فقلتُ: (التابوه)، وقال أبان بن سـعيد: (التابوت) فرفعنـا ذلك إلى عثمان فكتب (التابوت). قال فلما فرغتُ عَرَضتُه معه عَرْضةً فلم أجد فيه هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، قال: فاسـتعرضتُ المهاجرين أسألهُم عنه، فلم أجدها عند أحدٍ منهم، ثم استعرضتُ الأنصار أسألهم عنها، فلم أجدها عند أحدٍ منهم؛ حتى وَجَدتُها عند خُزيمة بن ثابت، فكتبتُها، ثم عرضتُه عرضةً أخرى، فلم أجد فيه هاتين

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٥٤).

(٢) الفرج: الثغر المخوف.

الآيتين: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ [التوبة: ١٢٩] إلى آخر السورة، فاستعرضتُ المهاجرين، فلم أجدها عند أحدٍ منهم، ثم استعرضتُ الأنصار أسألهم عنها، فلم أجدها عند أحدٍ منهم؛ حتى وَجَدتُها مع رجلٍ آخر يُدعَى خُزيمة أيضًا، فأثْبَتُها في آخر (براءة)، ولو تَمَّت ثلاث آيات لجعلتُها سورةً على حِدَة، ثم عرضته عرضةً أخرى فلم أجد فيه شيئًا، ثم أرسل عثمان إلى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة، وحلف لها ليرُدنَّها إليها، فأعطته إياها، فعرض المصحف عليها، فلم يَختلفا في شيءٍ، فردَّها إليها، وطابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف، فلما ماتت حفصة أرسل إلى عبدالله بن عمر في الصحيفة بعزْمَةٍ، فأعطاهم إياها، فَغُسلت غَسْلًا»[(١)].

وقال عدد من علماء التفسير: إن قيل: لم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في الصحف وقد وعد الله بحفظه، وما حفظه الله فلا خوف عليه؟ الجواب أن يقال: جَمْعُهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله إياه، ولما أراد حفظه قيَّضهم لذلك، وقال ابن الأنباري: إنهم أرادوا تسهيل القرآن على الناس وتقريب مطلبه بالذي فعلوه؛ لكي يَسْهُلَ تناولُه على من أراد حفظه وقراءته إذا رأه مجموعًا في صحيفة، ولو لم يفعلوا ما كان يضيع؛ إذ ضمِن الله حفظه»[(٢)]. هذا ما رواه الواحدي في تفسيره لهذه الآية. وتعاقب بعد ذلك نسخ المصحف الشريف، وصارت قصص ومواقف تحكي حفظ الله لكتابه.

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٥٥-٥٦).
(٢) التفسير البسيط، للواحدي: (١٢/ ٥١٦).

وَرَدَ أنه كان للمأمون الخليفة العباسـي مَجْلِسُ نَظَرٍ، فَدَخَلَ فِي جُمْلَةِ النَّـاسِ رَجُـلٌ يَهُودِيٌّ حَسَـنُ الثَّوْبِ حَسَـنُ الْوَجْـهِ طَيِّبُ الرَّائِحَـةِ، فتكلّم فأحسـن الكلام والعبـارة، فلما أن تَقَـوَّضَ الْمَجْلِسُ دَعَـاهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَـهُ: إِسْـرَائِيلِيٌّ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ لَهُ: أَسْـلِمْ حَتَّى أَفْعَلَ بِـكَ وَأَصْنَعَ، وَوَعَدَهُ. فَقَالَ: دِينِي وَدِينُ آبَائِي! وَانْصَرَفَ. فلما كَانَ بَعْدَ سَـنَةٍ جاء مُسْـلِمًا، فَتَكَلَّمَ عَلَـى الْفِقْهِ فَأَحْسَـنَ الْكَلَامَ، فَلَمَّا تَقَـوَّضَ الْمَجْلِسُ دَعَـاهُ الْمَأْمُونُ وَقَالَ: أَلَسْـتَ صَاحِبَنَـا بِالْأَمْـسِ؟ قَالَ لَـهُ: بَلَى. قَالَ: فَمَا كَانَ سَـبَبُ إِسْـلَامِكَ؟ قَـالَ: انْصَرَفْتُ مِـنْ حَضْرَتِكَ فأحببت أن أمتحن هـذه الأديان، وأنت مع ما تراني حسـن الْخَـطِّ، فَعَمَدْتُ إِلَـى التَّـوْرَاةِ فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسَـخٍ فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْكَنِيسَـةَ فَاشْـتُرِيَتْ مِنِّـي، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثَلَاثَ نُسَـخٍ فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْبِيعَةَ فَاشْـتُرِيَتْ مِنِّي، وَعَمَـدْتُ إِلَى الْقُرْآنِ فَعَمِلْتُ ثَلَاثَ نُسَـخٍ وَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْوَرَّاقِينَ فَتَصَفَّحُوهَـا، فَلَمَّا أَنْ وَجَدُوا فِيهَا الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ رَمَوْا بِهَا فَلَمْ يَشْـتَرُوهَا، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ مَحْفُوظٌ، فَكَانَ هَذَا سَـبَبُ إِسْلَامِي. قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: فَحَجَجْتُ تِلْكَ السَّـنَةَ فَلَقِيتُ سُـفْيَانَ بْـنَ عُيَيْنَةَ فَذَكَرْتُ لَهُ الْخَبَرَ فَقَالَ لِي: مِصْدَاقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. قَالَ قُلْتُ: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ؟ قَـالَ: فِي قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فَجَعَلَ حِفْظَهُ إِلَيْهِمْ فَضَاعَ، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فَحَفِظَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(١). هذا ما ذكره القرطبي في تفسيره ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

(١) تفسير القرطبي: (١٠/ ٦).

هو القرآن تعهّد الله بحفظه، فظلَّ محفوظًا في حين أوكل الله مسؤولية حفظ كتبه السابقه لتلك الأمم، فخانوا الأمانة، وحرّفوا، وبدَّلوا، وكذّبوا ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وبلغت جرأتهم في التعدّي على كُتب الله إلى أن صاروا يلوون ألسنتهم، ويتحايلون في الزعم أن ما لديهم منزَّل من الله قاتلهم الله ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]. أما القرآن فلم ولن يجرؤ أحد بلوي لسانه، ولا إضافة حرفٍ له، فالله حافظه، ويزداد حفظه كلما تقادم الزمن. قبل سنوات أنشأت المملكة العربية السعودية مجمّع الملك فهد في المدينة المنورة، واستقدمت له المتخصِّصين في القراءات والعلماء من كلِّ مكان، وصارت طباعته تتوالى، وتعمُّ أرجاء الأرض، وجاءت التقنية الحديثة والإنترنت، فتوافر كتاب الله في كل مكان، ولكل إنسان، وتعدَّدت ترجمات معانيه إلى مختلف اللغات، وما زالت تترجم عبر مؤسسات ومراكز متخصصة. هو كتاب الله محفوظٌ بحفظ الله، يرفع الله بحفظه حافظيه، ويعزُّ به حامليه. وقد وجد حُفَّاظٌ لكتاب الله يأتون إلى المملكة بتأشيرات عُمّال، ولكن حينما يُكتشفون ويعلم الناس بأمرهم، يتحولون إلى مقاماتٍ أعلى؛ منهم من يكون معلِّمًا، ومنهم من يتحصَّل على مِنحةٍ دراسية فيواصل تعليمه العالي، ويحصل على مؤهلاتٍ علميةٍ عُليا ترفع من شأنه. هو القرآن يحفظ حافظيه ويعزُّ حامليه.

هذا وقد قيَّض الله في كل زمان حفظةً وقُرّاءً لكتابه، وتَخصَّصَ آخرون في خدمة كتاب الله. ورد في كتاب صفة الصفوة أن عثامة والدة محمد بن سليمان بن بلال بن أبي الدرداء كُفَّ بصرها، فدخل عليها ابنها يومًا وقد صلّى، فقالت: أصليتم أي بُني؟ قال: نعم. فقالت[1]:

عثامُ مالكِ لاهية حلَّت بدارِكِ داهية
أبكي الصَّلاة لوقتِها إن كنتِ يومًا باكية
وابكي القرآنَ إذا تُلي قد كنتِ يومًا تالية
تَتْلينهُ بتفكُّرٍ ودموعُ عينيكِ جارية
فاليوم لا تتلينه إلا وعندكِ تالية
لهفي عليكِ صبابةً ما عشتُ طول حياتيه

قلوبٌ عامرة بالإيمان تندب حظَّها حين فقدت نظرها، ففقدت حفظ القرآن وتلاوته.

وبعد...

فاجعل لك برنامجًا لخدمة القرآن، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فقبل أن تُسأل اسأل نفسك ماذا عملت؟ لتسهم في حفظ القرآن وخدمته، فذاك الشرف والخيرُ كلُّه.

اللهمَّ اجعلنا للقرآن حافظين، وارزقنا تلاوته آناءَ الليل وأطراف النهار، اللهمَّ إنّا نسألك بكل اسم هو لك؛ سمَّيت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب غمومنا.

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي: (٢/ ٤٤٨).

الحسد

قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحاسد هو الذي يكره نعمة الله عليك، فتجده يضيق ذرعًا إذا أنعم الله على هذا الإنسان بمالٍ أو جاهٍ أو علمٍ أو غير ذلك فيحسده»[١].

إن الحسد داءٌ خطير، وبلاءٌ جسيم، نسأل الله السلامة منه، ومن عُوفي فليحمد الله، هذا وقد تكرر في القرآن الكريم التحذير من الحسد، والتعوُّذ منه، ففي هذه الآية الكريمة نصُّ إلهيٌّ يؤكِّد وجود الحسد والحاسدين، وهو نصٌّ عام؛ فكلُّ فرد في كل زمان وفي كل مكان عُرضةٌ للحسد والحاسدين، وكل واحدٍ منا قد يكون محسودًا وهو لا يعلم، فالحاسد مُتخفٍّ كإبليس الحاسد الأول وزعيم الحاسدين، إن الحاسد يسير في ركب الشيطان، فمن الشيطان استقى حسده، ومن إبليس أخذ منهجه، وإن ما جاء في القرآن حقٌّ، وما حذر منه حقٌّ، فاحذر أن تكون حاسدًا، وتعوَّذ بالله من الحاسدين.

(١) لقاء الباب المفتوح، ابن عثيمين: (١٢/ ١٠٧).

في زمان النبوَّة وَضحَ الحقُّ، وعرفَهُ أهل الكتاب، ولكن الحسد أطغاهم وأعمى بصائرهم، فأبوا إلا الكفر والضلال، قال عنهم الذي يعلم السرَّ وأخفى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. قال الشيخ ابن عثيمين: «من فوائد هذه الآية: بيان شدَّة عداوة اليهود والنصارى للأمّة الإسلامية، وأن هذه العداوة ليست من جميعهم، فمن اليهود والنصارى من ليس شديد العداوة لهم؛ لقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾. فمفهومه أن بعضهم لا يودُّ هذا.

ومن **فوائد الآية أيضًا**: أن الكفر بعد الإسلام يسمَّى ردَّةً؛ لقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾، ولهذا المرتد الذي يكفر بعد الإسلام ما يسمَّى كافرًا فقط، يسمَّى مرتدًّا؛ لأنَّه رجع عن دين خير ممَّا رجع إليه، ومن فوائدها أيضًا: أن الحسد من صفات اليهود والنصارى. ومن فوائدها أيضًا: علم اليهود والنصارى بأن الإسلام منقبةٌ عظيمة لمتَّبعه؛ لأن الإنسان ما يُحسد إلا على شيء يكون خيرًا ومنقبة.

ومن فوائدها أيضًا: وجوب الحذر من اليهود والنصارى ما دام كثيرٌ منهم يودُّون لنا هذا، فإنه يجب علينا أن نحذر منهم.

ومن فوائدها: بيان خبث طويَّة هؤلاء الذين يودُّون لنا الكفر، بيان خبث طويتهم لأنه قال: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ليس من كتاب، وليس من إساءة من المسلمين إليهم، ولكنه من عند أنفسهم، أنفسٌ خبيثةٌ تودُّ الكفر للمسلمين؛ حسدًا.

ومن فوائد الآية أيضًا: أن هؤلاء الذين يودُّون الكفر للمسلمين قد تبيَّن لهم الحق، فيستفاد منه فائدة متفرعة، وهو: شهادة غير المسلمين للمسلمين على أنّهم على حقٍّ؛ لأنّه قد تبيّن لهم»[(١)].

وحسدَ اليهود حبيبنا المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال تعالى مستنكرًا حسدهم وغيرتهم من نعمة النبوة: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٥٤].

قال الشوكاني في تفسيره: «يعني اليهود يحسدون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقط أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والنصر وقهر الأعداء». وقال الشوكاني: «إن النص على ذكر آل إبراهيم بقوله تعالى: ﴿**فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ**﴾. يقول: هذا إلزامٌ لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه: أي ليس ما آتينا محمدًا وأصحابه من فضلنا ببدعٍ حتى يحسدهم اليهود على ذلك، فَهُم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم، وهم أسلاف محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)].

يذكر القرطبي في تفسيره عن الحسن قال: «ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد؛ نفسٌ دائم، وحزنٌ لازم، وعبرةٌ لا تنفد. وقال عبدالله بن مسعود: لا تُعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[(٣)]. وفي الأثر: «استعينوا على قضاء حوائجكم

(١) تفسير ابن عثيمين: سورة البقرة الآية: ١٠٩.
(٢) فتح القدير: (١/ ٣٩٠).
(٣) تفسير القرطبي: (٣/ ١٦٣).

بالكتمان، فإن كل ذي نعمةٍ محسود»[1]. هي النفوس البشرية، جُبلت على الغيرة والحسد، فإبليس حسد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخرجه الحسد من الجنة ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

اشتهر الصحابي الجليل عمرو بن العاص بالذكاء والفطنة، فسوَّدته نفسه، فكان سيدًا في الجاهلية والإسلام، وتقلَّد الإمارة، وهو في النسب يرتفع إلى الذؤابة من قريش؛ فأبوه العاص بن وائل أحد حكام العرب المرموقين في الجاهلية، وسيِّدٌ من ساداتهم المشهورين. وأما أُمُّه فلم تكن كذلك، وإنما هي سبيّةٌ من سبايا العرب؛ ولهذا كان حُسَّاده يلاحقونه بأمِّه بذكرها وهو على كرسي الإمارة أو حين يكون في منبر الخطابة.

ذات يوم أغرى أحدهم رجلًا على أن يقوم إليه وهو مُرتَقٍ على المنبر، وأن يسأله عن أمِّه، وذلك لِقاء مبلغٍ جَزْلٍ من المال أغدقه عليه.

فقام الرجل وقال: من أُمُّ الأمير؟

فضغط عمرو على نفسه، وتَذَرَّع بحِلمِه، ثم قال: هي النابغة بنت عبدالله...، أصابتها رماح العرب في الجاهلية فبيعت بسوق عكاظ، فاشتراها عبدالله بن جدعان، ثم وهبها للعاص بن وائل؛ يعني أباه، فولدت له فأنجبت...، فإن كان بعض من مَزَّق الحسد قلبه قد جعل لك شيئًا من المال فخُذه»[2]. رجاحةُ عقلٍ، وعِزّةُ نفس، وسموُّ أخلاق. وقانا الله شرّ الحسد، وعافانا من أن نكون حاسدين أو محسودين.

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ٢٩٢ رقم ١١٨٦) وفي الأوسط (٣/ ٥٥ رقم ٢٤٥٥) وفي الكبير (١٥/ ٣ رقم ١٦٦٠٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٧٧ رقم ٦٦٥٥)، والخرائطي في اعتلال القلوب (رقم ٣٣٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٤٣٦ رقم ١٤٥٣).

(٢) أسد الغابة، ابن الأثير: (٤/ ٢٤٤).

يقول فخر الدين الرازي في تفسيره: «اعلم أن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة، فكلما كانت فضيلة الإنسان أتمَّ وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم، ومعلومٌ أن النبوة أعظم المناصب في الدنيا، ثم إنّه -تعالى- أعطاها لمحمدٍ ﷺ وضمَّ إليها أنه جعله كل يوم أقوى دولة، وأعظم شوكة، وأكثر أنصارًا وأعوانًا، وكلُّ ذلك مما يوجب الحسد العظيم»[1].

هذا والحسد مرضٌ خطير -نسأل الله السلامة منه- يتسلَّل إلى النفوس حتى مع أقرب الناس إليك، فسورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تحكي قصّته مع الحسد، وكيف نسي إخوته روابط الرَّحِم والأُخوّة ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]. إنّ في قصتهم دروسٌ وعِبَر، فوالد يوسف نبيُّ الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يأمر يوسف ألا يَقُصَّ على إخوته رؤياه؛ كي لا يكيدوا له ويحسدوه؛ ولهذا على الإنسان الحذر حتى من أقرب الناس إليه، فلا يَقُصُّ عليهم ويتحدث إليهم بكل خير وهبه الله له، فالبعض عيونهم ضيِّقة، ونفوسهم أضيق، وشياطينهم شرسة، ينظرون إلى ما في أيدي غيرهم أكثر مما ينظرون إلى ما في أيديهم.

---

(١) مفاتيح الغيب: (١٠/ ١٣٣).

حق تلاوته

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

اللهم ارزقنا تلاوة كتابك حق التلاوة، اللهم وفقنا لتلاوة كتابك خير التلاوة، نحمدك اللهم على نعمة القرآن، نقرؤ كتابك ونتعبدُك بتلاوته. قرأت هذه الآية وتوقفت أتدبرها وتوالت تساؤلات، من هم المقصودون بالخطاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾! أهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى المُشار إليهم في الآية السابقة لهذه الآية؟ أم هم جميع عباد الله المؤمنين بالقرآن إلى أن تقوم الساعة؟ وكيف السبيل لتلاوة القرآن الكريم كما وصفها الحقُّ بحق التلاوة؟ إن الكثيرين منا يقرؤون القرآن قراءة لفظية سريعة! نُؤمن بما ورد فيه من أوامر ونواهٍ، ونستبشر ببشائره، ونخشى زواجره، هذه التساؤلات، والقراءة التي وصفها الحق سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بحق التلاوة دفعتني إلى أن أبحث عن أقوال علماء التفسير في هذه الآية.

قال ابن الجوزي في زاد المسير: اختلفوا فيمنْ نزلت هذه الآية على قولين. أحدهما: أنها نزلت في الذين آمنوا من اليهود، والثاني أنها نزلت في المؤمنين، من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي الكتابِ، ورد قولان، الأول:

أنه القرآن، والثاني: أنه التوراة. وقوله تعالى: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: أي يعملون به حق عمله. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾: في هذه الآية قولان، أحدهما: أنها تعود على الكتاب، والثاني: على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وجاء قول ابن سعدي مختصرًا في تفسيره لهذه الآية قال: يُخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب، ومنَّ عليهم به منةً مطلقة، أنهم ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم. فهؤلاء، هم المؤمنون حقًّا، لا من قال منهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١] ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

ومما قاله الشعراوي في تفسيره: بعد أن بَيَّنَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن اليهود والنصارى قد حَرَّفوا كتبهم، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا في كتبهم...، وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبرسالته...؛ لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل.

ولو أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرؤون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما...، ويفكرون في الإيمان برسالة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.. لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام..، وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال..، أي أن هناك عددًا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون في اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق..، وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون

من سيناء مع جعفر بن أبي طالب ليشهدوا أمام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم قرؤوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته..، وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب..، فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾.

أي يتلونه كما أُنْزِلَ بغير تحريف ولا تبديل..، فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر.. ولا بالتحريف الذي هو نقل شيء من حق إلى باطل.

واستعرضتُ عددًا من كُتب التفسير الأخرى، وتفصيلات المفسرين، إلاّ أنني وجدتُ أن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد استوعب آراء أولئك العلماء، وجاء بعرضٍ شاملٍ دقيق ارتاحت له نفسي، واطمئن له قلبي -رفع الله درجات الشيخ وأجزل له الأجر- مما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة ١٢١]، قال: الإيتاء هنا، إيتاء شرعي كوني؛ كوني؛ لأن الله قدَّر أن يعطيهم الكتاب فأعطاهم إياه، وهو أيضًا إيتاء شرعي؛ لأنه فيه الشرائع والبيان، والمراد بمن آتاهم الكتاب إما هذه الأمة أو هي وغيرها، وهذا هو الأرجح أنه شامل لكل من آتاه الله الكتاب، والكتاب المراد به الجنس، فيشمل القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ التلاوةُ، تُطلق على تلاوة اللفظ وهي القراءة، وعلى تلاوة المعنى وهو التفسير، وعلى تلاوة الحكم أي: اتباعه وهو الاتباع؛ هذه المعاني الثلاثة للتلاوة، داخلة في قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ التلاوة اللفظية: أن يقرأ القرآن باللفظ الذي يجب أن يكون عليه،

يكون مُعربًا كما جاء مُعربًا ما يُغَيَّر، فلا يقول مثلًا: الْحَمْدَ للهِ ربَّ العالمين، هذا ما تلاه حق تلاوته، بل يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] بدون تغيير؛ لأنه نزل هكذا فوجب أن يُتلى هكذا، التلاوة المعنوية: أن يُفسره بحسب ما أراد الله ورسوله، فيقول مثلًا: المراد بالآية كذا على حسب ما أراد الله، ونحن نعلم مراد الله بها بأي طريق؟ هل الله يقول: أردت بكلامي كذا؟ الجواب: لا، ما قال ذلك، لكنه قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء ١٩٥].

فنحن نعلم ما يريد الله تعالى بهذا القرآن؛ لأنه جاء باللغة العربية، وهذا المعنى في اللغة العربية هو ما يقتضيه هذا اللفظ أو هذا السياق، فنكون بذلك قد علمنا معنى كلام الله عَزَّوَجَلَّ، هذه تلاوة المعنى.

تلاوة الحكم: امتثال الأوامر واجتناب النواهي والإقرار بالأخبار، هذه تلاوة الحكم أن تتبع ما حكم به هذا القرآن، وتُقِر بما أخبر به، تترك النواهي وتصدق بالأخبار، فتكون تاليًا حق التلاوة، فإن استكبرت أو جحدت فإنك لم تتله حق تلاوته.

وفي قوله: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ هذا من باب إضافة الوصف إلى موصوفه، يعني: التلاوة الحق، يعني تلاوة الجد والثبات وعدم الانحراف يمينًا وشمالًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة تعود إلى الذين أوتوا الكتاب، أوتوا الكتاب وهم يتلونه حق التلاوة، يعني: أولئك المتصفون بهذا الوصف الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون به، وأما من لم يتله حق تلاوته فليس مؤمنًا به؛ بل عنده من نقص الإيمان بقدر ما عنده من المخالفة،

فالإيمان يزيد وينقص؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، وفي الإشـارة إليهم بلفظ البعيد دليل على علو مرتبتهم كقوله في أول سورة البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة ٥] فهذا دليل على علو منزلتهم ومرتبتهم.

وقال الشيخ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ الإيمان في اللغة: التصديق، لكنه في الشرع تصديـق مقيد بالقبول والإذعان، فلا يكفـي التصديق وحده، بل لا بد من القبـول والإذعـان، والدليل على ذلـك أن أبا طالب لا يسـمى مؤمنًا، مع أنه مصـدق ومعترف، لكنه فاته القبول والإذعان، فكون الإنسـان يصدِّق ما يقال: مؤمن، ولقد فرح بعض الناس بجاجارين؛ رجلٌ من الرُّوس، هو أول من صعد إلى القمر، أظن هكذا، وقال: أنا أعترف الآن أن هذا الخلق له خالق مدبر. ففرح الناس فرحًا عظيمًا، إنه آمن الرجل، هل هذا إيمان؟ أبدًا، ما آمن؛ لأن هذا مجرد استنتاج عقلي، كل إنسان عاقل يعرفه، يعرف أن هذا الكون العظيم المنظم البديع، يعرف أن له خالقًا مدبرًا منظمًا، كما نعرف أن لهذا المسجد من بناه، ونعرف أن لهذا النور من أضاءه، وهكذا، فالحاصـل: أن هـذا ليس بإيمان، مجـرد الاعتراف بـالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يعد إيمانًا، ولا بالرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، المنافقون يقولـون: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] لكن الله كذبهم، يقولون: نشـهد وهم كاذبون؛ لأن ما عندهم انقياد ولا قبول، بل قلوبهم منكرة -والعياذ بالله- إذن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، فمـن لـم يتل القرآن حق تلاوتـه بالمعاني الثلاثة التي ذكرنا، فإنه ناقص الإيمان، وقد يفقده بالكلية.

وقال الشيخ: وقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ما قال: ومن يكفر به فقد خسر، أتـى بالجملة الاسـمية المفيدة للثبوت والاسـتمرار، وأتى

بضمير الفصل في قوله: ﴿هُمُ﴾ لإفادة الحصر والتوكيد، يعني فأولئك الذين كفروا به هم الخاسرون لا غيرهم، وعليه فكل من ليس بمؤمن فهو خاسر، هذا الرجل عنده ملايين الدراهم، عنده سيارات، عنده عقارات، عنده بنون، عنده زوجات، عنده أهل، عنده ملك، لكنه كافر، هو خاسر، هو في الحقيقة لم يربح من هذا المال، ولا من الأولاد ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر ١٥]، هذا المال لا ينفعه، بل سيكون حسرة عليه؛ لأنه سيفقده، سيفقده هو أو يفقد المال، يعني إما أن يموت عن المال، أو أن المال يفوت عنه.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ما معنى ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؟ أصل الخسران النقص؛ ولهذا يقال: ربح، ويقال: في مقابله خسر، فهؤلاء هم الذين حصل عليهم النقص لا غيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة وفانية فلا تنفعهم.

وأورد الشيخ ابن عثيمين عددًا من الفوائد في آية هذه الجلسة، فقال:

يُستفاد من هذه الآية الكريمة: منة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على من آتاه الله الكتاب، فتلاه حق تلاوته.

ومن فوائدها: أنه ليس مجرد إتيان الكتاب فضيلة للإنسان، بل الفضيلة بتلاوته.

ومنها: أن للإيمان بالشيء علامة، الإيمان له علامة، وعلامته العمل؛ لقوله لما قال: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ومـن فوائد الآية: أن من خالف القرآن في شـيء كان ذلك دليلًا على نقـص إيمانه، من أين تؤخـذ؟ لقوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فمعنـى ذلـك: إذا لـم يتله حق تلاوتـه ما آمنوا به، نقص مـن إيمانهم بقدر ما نقص من تلاوتهم له.

ومنها: أن تلاوة القرآن نوعان: تلاوة حق، وتلاوة ناقصة ما هي حقيقة، فالتـلاوة الحـق أن يكون الإنسـان تاليًا للفظـه ولمعناه، عامـلًا بأحكامه، مصدقًا بأخباره، كل الأربعة التي مرت علينا هذه تلاوته حق تلاوته.

من فوائد الآية: أن الكافر بالقرآن مهما بلغ من الدنيا فهو خاسر؛ لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وكيـف يكون خاسـرًا وهـو قد حصل له أمـوال، وبنون، ومراكب ضخمة، وقصور مَشِـيدَة؛ لأن هذه كلها سـوف تذهـب وتزول، أو هو يزول عنهـا ولا تنفعه، فإذن يصدق عليهم أنهم هم الخاسرون، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، ولمـا كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربـح، قـال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، يعني: ولو ربحوا.

رزقنا الله نور البصيرةِ وتلاوة كِتابه حق التلاوة.

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

إحدى شركات

العبيكان للاستثمار Obeikan Investment Group

مـن إصـداراتنـا

لخدمات البيع والتوصيل: سوق - رواق - نون noon

كتبنا الإلكترونية: Google Play - amazon kindle

كتبنا الصوتية: ضاد للنشر الإلكتروني - Kitab Sawti - storytel

Follow Us

obeikn reader

obeikanpub

السِّحْرُ

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

السحر وما أدراك ما السحر، هو شرٌّ وقانا الله وإياكم منه، وفي هذه الآية يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه حقيقة، وأنه عمل قبيح؛ فهو كُفر وشرٌّ يبلغُ أذاه أنه يكون سببًا في خراب بيوت الزوجية، ولهذا فالحذر من السحر واجب، فالسحرة والسحر حقيقةٌ في كل زمان وفي كل مكان، اقرؤوا المعوذتين، فقد أمر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقراءتهما دومًا ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، قال الشيخ ابن عثيمين: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ هنَّ الساحرات؛ يَعقِدْنَ الحبالَ وغيرها، وتَنْفُث بقراءةٍ مُطَلْسمةٍ فيها أسماء الشياطين على هذه العُقَد، على كلِّ عُقدة؛ تَعْقد ثم تَنْفُث، تَعْقد ثم تَنْفُث، تَعْقد ثم تَنْفُث، وهي بنفسها الخبيثة تريد شخصًا معيَّنًا، فيؤثر هذا السِّحر بالنسبة للمسحور.

وذَكَر اللهُ النفَّاثات دون النفَّاثين؛ لأن الغالب أن الذي يستعمل هذا النوع من السِّحر هنَّ النساء، فلهذا قال: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، ويحتمل أن يقال: إن ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ يعني الأنفُسَ النفَّاثات، فيشمل الرجال والنساء.

وفي هذه الآية يقص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خبر الملكين هاروت وماروت، وقد توسع علماء التفسير في الحديث حول هذه الآية، إلا أن من أجمل ما قرأت، وما ارتاحت له نفسي هو ما قاله الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فمما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾، قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: اليهود. ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ تتلوه هنا ليست بمعنى تقرؤه، ولكنها من تَلاهُ يَتْلُوهُ بمعنى تبعه، أي: ما تتبعه الشياطين وتأخذ به، ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: في ملكه، وملك سليمان جمع بين الملك والنبوة؛ فإن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان ملكًا نبيًّا، وكل الذين ذُكِرُوا في القرآن من الأنبياء، فهم أنبياء رسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

يقول ابن عثيمين: خذوا هذه الفائدة؛ بعض الناس يقول: الذين ذُكِرُوا في القرآن بعضهم ذُكِر إنه كان رسولًا نبيًّا، وبعضهم ما ذكر إنه رسول، ولكن نقول: كل من قُصّ في القرآن فهو رسول؛ لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، فكل الذين قصهم الله على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم رسل، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم: ٥٦] مثلًا، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، ولا توجد قصة في القرآن إن الله يقول: وأرسلنا إدريس إلى قومه، إنما فيه (اذكر إدريس)، فنقول: كل من ذُكِر في القرآن من الأنبياء فإنهم رسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يعني:

منهم الذين قصصنا عليك، ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ فهنا نقول: سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هل هو نبي أو ملك أو رسول؟ كل الثلاثة، نبي ورسول وملك، وعند اليهود -قاتلهم الله- يقولون: إنه ملك، ولكنه بلا ريب إنه نبي، رسول، ملك، أعطاه الله تعالى من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده.

وقال الشيخ: السِّحْر الذي يراد هو -والعياذ بالله- التأثير بسبب أدوية ورقى وتعوُّذات، تأثير بأسباب خفية من قراءات وتعاويذ وأدوية تُصنع من إنسان حتى يصيبه السحر -والعياذ بالله- وهو أنواع، من السحر ما يقتل، يبدأ الإنسان المسحور -والعياذ بالله- ينقص شيئًا فشيئًا حتى يموت، ومنه ما يُمْرِض، ومنه ما يزيل العقل ويخبّل الإنسان، ومنه ما يُغير حواس المرء بحيث يسمع ما لم يكن، أو يشاهد الساكن متحركًا أو المتحرك ساكنًا، ومنه ما يجلب المودة، ومنه ما يوجب البغضاء، المهم أنه أنواع -والعياذ بالله-، وأهله يعرفون هذه الأنواع، هذا السحر حكمه محرم بلا شك.

واستنبط الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عددًا من الفوائد، قال**: ويستفاد من هذه الآية: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ ما يأتي:

* أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾، ويدلك على هذا: أن أحدهم سحر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهو (لَبِيدُ بن الأَعْصَم) كما هو معروف.
* **ومنها**: أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله: ﴿مَا تَتۡلُواْ﴾ أي: ما تَتْبَعُه على ملك سليمان.

* **ومنها**: أن الشياطين كانوا يأتون السحر حتى في عهد سليمان مع قوة سلطانه عليهم؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾.

* **ومن فوائد الآية**: أن سليمان لا يقر ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ لا يقرهم على هذا الأمر، ولهذا نفى عنه الكفر؛ إذ لو أقرهم على ذلك لكان -وحاشاه من أن يقرهم- لكان مقرًّا على كفر.

* **ومنها**: أن الله تعالى قد يقدر أسباب المعصية فتنة للناس، من إنزال الملكين يعلمان الناس السحر، فإن هذا من التيسير؛ تيسير هذا الأمر ابتلاء وامتحانًا، وله شواهد أيضًا وهو الامتحان بتيسير أسباب المعصية، قصة أصحاب السبت الذين يُسِّرَت لهم الحيتان في يوم السبت، اليوم الذي يحرم عليهم صيد السمك فيه. ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

* **ومنها**: ما ابتلى الله به بهذه الأمة من الصيد ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

* **ومنها**: ما أشار إليه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: «**رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»(١).

* **ومنها أيضًا**: قصة يوسف حينما غَلَّقت الأبواب امرأة العزيز وانفردت به ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فإن هذا ابتلاء من الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الأمر العظيم، فالمهم أن الله تعالى يبتلي المرء بتيسُّر أسباب المعصية له، فإياك إياك إذا تيسرت لك أسباب المعصية، لا تفعل، احذر ترى هذا مثل العصفور الذي يُقدم له السم في الطعم، فلتكن على حذر.

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٧١ رقم ٦٦٠)، ومسلم (٢/ ٧١٥ رقم ١٠٣١).

* **ويستفاد من الآية الكريمة**: أنه يجب على الإنسان أن ينصح للناس، وإنْ أَوْجَبَ ذلك إعراضُهم عنه.
* **ومنها**: أن تَعَلُّمَ السِّحْرَ كُفْرٌ؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.
* **ومنها**: أن تَعليمَ السحر كفر أيضًا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، فإن جملة ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ تعليل للكفر، إذن فتعلُّم السحر وتعليم السحر كفر.

وهل تقبل توبة الساحر؟ فيه خلاف، فقال بعض أهل العلم: إنها لا تقبل توبته، وقال آخرون: إنها تُقبل توبته، وهذا هو الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، أما إذا قلنا: بأن السحر ليس بكفر وأن قتل الساحر حد، فإنه إن تاب قبل القدرة عليه سقط عنه الحد، وإن تاب بعد القدرة عليه لم يسقط؛ لأن الحدود ما تسقط إذا تاب الإنسان بعد القدرة عليه.

فالصحيح أنه يقتل كفرًا، الآية تدل على هذا؛ لأنه يكفر، وحكمه حكم الكافر على القتل، إلا إذا تاب فإنه تقبل توبته ويُرفع عنه القتل، والتوبة تسقط الحدود إذا كانت قبل القدرة؛ لأن الله قال في قطاع الطريق: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]. وحق الناس ما يسقط بالتوبة، مثلًا لو كان هذا الساحر قد أتلف أموالًا، فإنها لا تسقط بالتوبة، يُضمَّن هذه الأموال أو مثلًا أصاب الإنسان بشلل، سحره فأصابه بشلل أو ما أشبه بذلك فيؤخذ منه.

* **ومن فوائد الآية**: أن من أعظم السحر أن يكون أثره التفريق بين المرء وزوجه، هذا من أعظم أنواع السحر؛ لقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ لأن من أعظم الأمور المحبوبة إلى الشياطين أن يفرق بين المرء وزوجه، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «**أن الشيطان يضع كرسيه أو عرشه على الماء، ويبث جنوده في الأرض للإفساد، فيأتي أحدهم ويقول: فعلت كذا، والثاني: فعلت كذا، والثالث: فعلت كذا، ثم يأتي أحدهم فيقول: ما زلت به حتى فرقت بينه وبين زوجته**»، وحينئذ ماذا يصنع به؟ «**يلتزمه ويقول: أنت أنت**»[1] فهذا دليل على أن من أعظم ما يكون، وأهم ما يكون في السحر التفريق بين المرء وزوجه، وفيه سحر مقابل لهذا، وهو الربط بين المرء وزوجه، حتى إنه -والعياذ بالله- يبتلى بالهيام، لا يستطيع أن يعيش ولا لحظة إلا وزوجته أمامه، ولهذا بعضهم يقضي عليه هذا الأمر، نسأل الله العافية.

* **ومنها أيضًا**: أن الأسباب لا تأثير لها إلا بإذن الله، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

* **ومنها**: أن قدرة الله عَزَّوَجَلَّ فوق الأسباب، وأنه مهما وجدت الأسباب والله لم يأذن، فإن ذلك لاينفع.

* **ومنها**: الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله، دائمًا؛ لقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فأنت إذا علمت أن كل شيء بإذن الله، فإذن تلجأ إلى من؟ إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في جلب المنافع، وفي دفع المضار.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٦٧ رقم ٢٨١٣).

* **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن تعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ فأثبت ضرره، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ نفى نفعه.

* **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ﴿مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني: من نصيب، وليس هنا أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكافر، أما المؤمن فمهما عذب، فإن له نصيبًا من الآخرة.

* **ومن فوائد الآية أيضًا**: إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

* **ومن فوائدها أيضًا**: أن هؤلاء اليهود ارتكبوا تعلم السحر عن علم؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، وبذلك استحقوا وصف الغضب، فصاروا مغضوبًا عليهم؛ لأن كل مَنْ عَلِمَ الحق وخالفه فهو مغضوب عليه؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة قال: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى؛ لأن العلماء الذين يرتكبون عن علم فَهُم كاليهود، والعباد الذين يرتكبون عن ضلال فهم كالنصارى.

* **ومنها أيضًا**: ذم هؤلاء اليهود لما اختاروه لأنفسهم ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ﴾.

* **ومن فوائد الآية**: أن ذا العلم الذي ينتفع بعلمه هو الذي يحذر مثل هذه الأمور؛ لقوله: ﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كانوا ذوي علم

نافع ما شروا هذا الأمر الذي يضرهم ولا ينفعهم، والذي علموا أن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

ونصيحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التخلص من السحر والشرور الواردة في سورة الفلق جاءت في قوله: إن قال قائل: ما هو الطريق إلى التخلُّص من هذه الشرور الثلاثة؟

قُلنا: الطريق إلى التخلُّص أن يُعَلِّقَ الإنسانُ قلبَه بربِّه، ويُفوِّضَ أمْرَه إليه، ويُحقِّقَ التوكل على الله، ويستعملَ الأوراد الشرعيَّة التي بها يُحَصِّن بها نفسَه ويحفظها من شرِّ هؤلاء، وما كَثُر الأمر في الناس في الآونة الأخيرة من السَّحَرةِ والْحُسَّادِ وما أشبهَ ذلك إلا من أجْل غفلتهم عن الله، وضَعْف توكلهم على الله عَزَّوَجَلَّ، وقِلَّة استعمالهم للأوراد الشرعيَّة التي بها يتحصَّنون، وإلا فنحن نعلم أن الأوراد الشرعيَّة حِصْنٌ منيعٌ، أشَدُّ من سدِّ يأجوج ومأجوج، لكن مع الأسف فإن كثيرًا من الناس لا يعرف عن هذه الأوراد شيئًا، ومَن عَرَفَ فقد يَغْفُل كثيرًا، ومَن قرأها فقَلْبُه غيرُ حاضر، وكلُّ هذا نَقْصٌ، ولو أن الناس استعملوا الأورادَ على ما جاءت به الشريعةُ لَسَلِمُوا مِن شرورٍ كثيرة.

الحكمة

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

الحكمةُ وما أدراك ما الحكمة! اسألوا ربَّكم الحكمة، فهي خيرٌ كثيرٌ! وصف الله جَلَّجَلَالُهُ بها عددًا من أنبيائه في سياق الثناء عليهم، وهي خيرٌ يغفل عن طلبه كثيرون، ولا أكاد أسمع أحدًا يسألها، ويُلحُّ على ربِّه في طلبها! اللهمَّ ارزقنا الحكمة، اللهمَّ ارزقنا الحكمة.

ورد لفظ الحكمة في سبعة عشر موضعًا في القرآن الكريم؛ ففي سورة البقرة كانت الحكمة دعوة أبينا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]. قيل: الحكمة: السنَّة، وقيل: مواعظ القرآن، وقال ابن دريد: الحكمة: كُل كلمةٍ وَعَظَتْكَ، أو دَعَتْكَ إلى مكرمة، أو نَهَتْكَ عن قبيح فهي حكمة.

وتكرّر ورودها في سورة البقرة في سياق وصف ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخير والهداية للبشرية، ومما جاء به؛ أنه يعلّمنا الكتاب والحكمة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وفي الآية الثالثة مِن سورة البقرة؛ تأتي الحكمة بعد ذكر أحكام الطلاق وفراق الزوجية، فيُذَكِّرُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عباده المسلمين بأحكامه ووصاياه في الرفق بالمرأة وعدم الإضرار بها ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١]. ثم يُذكّره بنعمته فيقول: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١]. فكن حكيمًا أيُّها الإنسان، وترفَّق بالزوجة، وارحم المرأة، وإياك والإضرار بها، واقرأ كتاب الله وسنة نبيه، تجد الرشاد والهداية، وتلقى الطمأنينة، وسلامة القلب، ونقاء الفؤاد من الغلّ والنكد! هي الحكمة تتكرر في مواضع القلق، والاضطراب النفسي؛ لتكون علاجًا ناجعًا باختيار الأمر الذي فيه خير وصلاح للمجتمع الأسري وعلاقته ببعضه، فيعمُّ السكون والأمن حياة الأسرة المسلمة.

وفي إخباره عن بني إسرائيل وإنعامه عليهم، جاءت الحكمة في سياق الآية التي تصف جهاد نبي الله داود وقتله الظالمَ جالوت؛ لتدل على كَرَمِ الله وجُودِهِ، بمنح داود المُلك والحكمةَ والعلم؛ جزاء إخلاصه وجهاده وتفانيه في تنفيذ أوامر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وتَرِدُ في آخر سورة البقرة عددٌ من الآيات التي تحث على البذل والنفقة، والوعد بمضاعفة الثواب للمنفقين الذين يجودون بمالهم دون مَنٍ ولا أَذَى، ويُنادي سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عباده المؤمنين بالسماحة والجُود، وإنفاق الطيب من المال. ورد أن فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا كانت تجلو وتُنظف درهمًا، وحين

سألها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما تفعل قالت: نويت الصدقة به، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير. قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وحين ييأس إبليس عن حجز المنفق من الإنفاق، يسرع بوسوسته لتشويه تلك النفقة، فيُحَسِّنُ بَذْلَ الرديء من المال، ويُخوف من الفقر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٦٨]. هو الشيطانُ يدفع للسوء حين يعجز عن صد المنفقين، يلجأ لترغيبهم في بذل رديء المال، إنه ينشدُ تفريقَ المجتمع المسلم، وخلقِ العداوة والبغضاء؛ فذاك الفقير حين يرى الغنيَّ يَكْتَنِزُ جَيِّدَ المال ويُقدّم رديئه يَحقدُ عليه في نفسه. إن اللهَ سُبحانه وهو الذي يعلمُ السِّر وأخفى، يُحذّر من هذا التصرف، ويمتنُّ على عباده بوعده لهم بالمغفرة وسعة الرزق والطمأنينة وراحة النفس ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات الشريفة، يدفع المسلمَ للنفقة الجيدة، فتتحقق لبيوتِ المجتمعِ المسلم السعادةُ والمعيشةُ الحسنة، وتزولُ الغيرةُ والحسدُ من الفقراء، وتتحقق الطُّمأنينة للأغنياء، فيتوافر للمجتمع التكامل والتصافي. ويُبشر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمنحه الحكمة لتلك البيوت المطمئنة الفقيرة والغنية، فترقُّ عواطفهم، وتصفو نفوسهم ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فالحكمة جزءٌ من الخير الكثير، لكن التعبير بها عن الخير وهي جزء منه، باستعمال أسلوب المجاز، يتناسب مع السياق الواردة فيه؛ لغرض التأكيد على أهمية الحكمة.

رزقنا الله حكمته وعلمه وفضله!

وفي سورة آل عمران، تَرِد الحكمة مقترنة بالكتاب في سياق امتنان المولى عَزَّوَجَلَّ على مريم بعيسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ؛ إذ يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ**﴾ [آل عمران: ٤٥]. ويُعدد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تكريمه نبيه عيسى ابن مريم، فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ**﴾ [آل عمران: ٤٨]. وتتابع الآيات التي تتناول الحكمة، وكيف امتنّ الله بها على عدد من أنبيائه؛ لتكشف في سياقها عن أهمية الحكمة ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ**﴾ [آل عمران: ٨١]. يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: «الكتابُ معروفٌ كالتوراة والإنجيل، والحكمة الحكم بين الناس وإصابة الصواب؛ لأن الحُكم بين الناس من تنزيل الأشياء منازلها، وهذا هو الحكمة».

عن ابن عباس قال: «خُذ الحِكمةَ مِمّنْ سَمِعتها، فإن الرَّجُل يَنْطِقُ بالحكمة، وليس من أهلها، فتكون كالرَّميةِ خرجت من غيرِ رامٍ»(١).

والحكمة من النعم التي يجوز التنافس فيها وطلبها، بل ويجوز أن يُحسد عليها صاحبها إذا آتاه الله الحكمة، روى البخاري في صحيحه أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لا حَسَدَ إلّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتاهُ الله مالًا، فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، ورَجُلٍ آتاهُ الله حِكْمَةً، فَهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُهَا**»(٢). نسأل الله أن يرزقنا الحكمة.

---

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (رقم ٣٧٨)، والبيهقي في المدخل (رقم ٨٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (١/ ٧٧-٧٨ رقم ٧٣)، ومسلم (١/ ٥٥٨ رقم ٨١٥).

لقـد انكبَّ العرب على القرآن الكريم يتدبّرونه ويتفكرون في معانيه، وانفتحوا على ثقافات الأمم الأخرى؛ فتطورت عقولُهم واتّسعت، وظهر بينهـم حكمـاء عُرفوا برجاحـة العقل وصـواب الرأي، وأخـذوا يضعون الأسـس الرئيسـة لكثير من العلوم التي ازدهرت في العصور الإسـلامية، وأفـادت منها الأمم الأخرى، وفي مقدّمة أولئك الحكماء سـيدنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي تَجَسَّدت الحكمةُ في شخصيته يوم نزلت بالمسلمين مُصيبـة المـوت الكُبرى بوفـاة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فارتَجَّـت المدينةُ، واضطرب الصحابةُ رضوان الله عليهم وذُهلوا؛ بين باكٍ لا يستطيع الكلام، وآخر حائر فَقَدَ التفكير، وثالث غير مُصدِّقٍ خبر الوفاة. وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كـذَّبَ الحقيقة، ونـادى: والله ما مات رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن قال: إن محمدًا مات ضربت عنقه بسيفي هذا!

يقـول أبو ذؤيـب الهذلي: «قدِمـتُ المدينة ولأهلها ضجيـجٌ بالبكاء، كضجيـج الحجيـج أهلّـوا جميعًا بالإحـرام، فقلت: مِـه؟ فقالـوا: قُبِضَ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1]. وظلَّ الصحابة -رضـوان الله عليهم- في تلك اللحظـات على هذه الحالة من الاضطـراب والحيرة، يتمنّون صحة كلام عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما مـات رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» حتـى جـاء أبو بكـر الصديـق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **فعـن عائشـة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **أن رسـول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـات وأبو بكـر بالسُّـنح (مسـكن زوجته على بعـد ميل من المسـجد النبوي)، فقـام عمـر يقول: والله ما مات رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالـت: وقال عمر: والله مـا كان يقـع فـي نفسـي إلا ذاك، وليبعثنَّـه الله فليقطعـنَّ أيدي رجال

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر: (١٣/ ٥٣).

وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبَّلَهُ بين عينيه، وقال: بأبي أنت وأمِّي طبتَ حيًّا وميّتًا، والذي نفسي بيده لا يُذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رِسْلِك، فلما تكلّم أبو بكر جلس عمر، فحمد اللهَ أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا مَنْ كان يعبد محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، وقرأ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، و﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. قال: فنشج الناس يبكون»(١). وفي رواية: «فأخبرني سعيد بن المسيب، أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تَلاها فَعُقِرْتُ (دُهِشْتُ وتَحَيَّرتُ) حتى ما تُقلُّني رِجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعته تلاها علمتُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات»(٢). وقال عبدالله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزلها، حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فتلقّاها منه الناس، فما يُسْمَعُ بشرٌ إلا يتلوها»(٣).

لقد تجلَّت في هذا الموقف العصيب حكمة أبي بكر وحنكته ورشاده في احتواء الأمر، الذي حار فيه الصحابة جميعًا، وكثيرًا ما تتجسد حكمته في المواقف الحرجة؛ ففي حروب الردّة كان قراره الفيصل في الأمر، وأعاد للإسلام هيبته ومهابته بما تميز به من نظرة عميقة للأمور وأبعادها، والموازنة بين الأفضل من الخيارات المتاحة؛ وبما امتلك من قدرة على

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٢٠٢-٢٠٣ رقم ٣٦٦٧ و٣٦٦٨).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: (٤/ ٥٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٥٦ رقم ١٢٤١ و١٢٤٢).

الموازنة العقلية بين نتائج الأمور على المدى القصير والمدى البعيد، وبين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة، على عادة الحكيم في التفكير في جميع الخيارات المتاحة، وانتقاء أفضلها، وفقًا للوضع القائم، أو بالسعي إلى تغييره بوضع جديد، يتناسب مع تحقيق المصلحة ونجاحها، مراعاة للظروف المتغيرة المحيطة بالمواقف وأحوالها. ويؤتيها الله من يشاء، لتدل مشيئته على التفوق بصفوته من خلقه، وممن أتاه الله الحكمة والخير الكثير لقمان الحكيم، وظهرت حكمته وتفوقه في أقواله وأفعاله. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٢-١٣]. ورُوي «أَنَّ لُقْمَانَ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَّارًا، وَأَنَّ سَيِّدَهُ قَالَ لَهُ: اذْبَحْ لِي شَاةً، قَالَ: فَذَبَحَ لَهُ شَاةً، فَقَالَ: ائْتِنِي بِأَطْيَبِهَا مُضْغَتَيْنِ فَأَتَاهُ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ. قَالَ: فَقَالَ: مَا كَانَ فِيهَا شَيْءٌ أَطْيَبَ مِنْ هَذَيْنِ؟ قَالَ: لَا. فَسَكَتَ عَنْهُ مَا سَكَتَ، ثُمَّ قَالَ: اذْبَحْ لِي شَاةً، فَذَبَحَ لَهُ شَاةً. قَالَ: أَلْقِ أَخْبَثَهَا مُضْغَتَيْنِ، فَأَلْقَى اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ، فَقَالَ لَهُ: قُلْتُ لَكَ ائْتِنِي بِأَطْيَبِهَا فَأَتَيْتَنِي بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، ثُمَّ قُلْتُ لَكَ: أَلْقِ أَخْبَثَهَا مُضْغَتَيْنِ فَأَلْقَيْتُ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ! قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ أَطْيَبَ مِنْهُمَا إِذَا طَابَا، وَلَا أَخْبَثَ مِنْهُمَا إِذَا خَبُثَا»[١].

نسأل الله أن يجعلنا ممَّن طاب قلبُه ولسانُه، وأن يؤتينا الحكمة وخيرها الكثير.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في كتاب الزهد (ص٤٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٧٤ رقم ٣٤٢٩٤)، وانظر: تنوير الغبش في السودان والحبش (ص٩٧) وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ٢٨٨).

حياة السعادة

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

تأمل الآية، وتوقف عند كُلِّ حرفٍ، فهي بشارة عامة، وإخبار يقيني، وإعلام رباني، يبعث السرور، وينقل السعادة، ويجعل حياتنا الدنيوية مسرة وبهجة، لا خوف من موت، ولا ما بعد الموت، ولا خوف من مرض، ولا خوف من فقر، لا خوف البتة! ليس بعد هذه السعادة التي تتضمنها الآية من سعادة، ولا بعد هذه البشارة شقاوة! قُل لي بربك ماذا تُريد بعد هذا الخبر القطعي؟ بأن تحيا في الدنيا حياة طيبة، وفي الآخرة حياة أطيب، بأن يكون جزاؤك بأحسن أعمالك، وزيادة على ذلك، فالحسنة بعشر أمثالها، أي والله حياة أحلى وأطيب.

إن التعبير بكلمة طيبة، لها دلالتها وإيحاؤها، هي من الطيب؛ من الرائحة الزكية، من الطيب والعافية، والصحة الجيدة، من الطيب النفسي، والراحة والطمأنينة والسكينة! إنه الله خالق الخلق ومُوجدهم، يُخلدُ هذا الوعد السارّ، فكيف نغفل عنه؟ وكيف تركبنا الهموم؟ وكيف نقلق، وهذا الوعد معنا ولنا؟ ولكي يتحقق لكل إنسان تلك الحياة الطيبة في الدنيا،

وذاك الجزاء بأحسن الأعمال في الآخرة؛ مطلوب منه الإيمان، والعمل الصالح، إيمان القلب، وعمل الجوارح ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وفي سورة غافر ترد آية أُخرى تُبين عدالة ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العقاب، وفضله في الثواب ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

فمنْ عمل سيئة فجزاؤه مثلها، لكن من عمل صالحًا وهو مؤمن فلهم الجنة يرزقون فيها بدون حساب، يقول الزمخشري: جزاء السيئة لها حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة!

وقال الشيخ ابن سعدي: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

لقد علم هذه البشائر القطعية، ووثق بها وطبقها الأخيار الصالحون، فدخل الإيمان قلوبهم، وتسابقوا لعمل الصالحات، فعاشوا حياة طيبة

في دُنياهم، عاشوا السعادة وطيب الحياة، حتى وهم في ضيق من العيش؛ عاشوا المسرة في فقرهم وفي مرضهم، في سجونهم وفي منفاهم، عاشوا مطمئنين، في حين عاش مُترفون الضيق والنكد، وعاش مظلوم السرور والبهجة، وعاش ظالم النكد والشقاء. يقول ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول عن شيخه: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة منْ لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بُذِلتْ ملءُ هذه القاعة ذهبًا، ما عَدَلَ عندي شُكْرَ هذه النعمة. أو قال: ما جَزيتُهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله. وقال لي مرة: المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أَسَرَهُ هواهُ.

ولما دخل إلى القلعة، وصار داخلَ سورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وعلمَ اللهُ ما رأيت أحدًا أطيبُ عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكُنا إذا اشتد بنا الخوفُ، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة، ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جَنَّتَهُ قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها، ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

إن ابن القيم يصف بهذه الشهادة، حالة شيخه ابن تيمية، بأن الله رزقه السعادة القلبية، ومن ثم عاش حياةً طيبةً في كُل مكانٍ كان فيه، ففي ضيق العيش، صبرَ وشكرَ، وفي ضيق المكان، ما شكا ولا ضجر!

ومما قاله ابن قيم الجوزية عند تفسيره لهذه الآية قال: فُسِّرَتِ الحَياةُ الطَّيِّبَةُ بِالقَناعَةِ والرِّضا، والرِّزْقِ الحَسَنِ وغَيْرِ ذَلِكَ، والصَّوابُ: أنَّها حَياةُ القَلْبِ ونَعِيمُهُ، وبَهْجَتُهُ وسُرُورُهُ بِالإيمانِ ومَعْرِفَةُ اللهِ، ومَحَبَّتُهُ، والإنابَةُ إلَيْهِ، والتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، فَإنَّهُ لا حَياةَ أطْيَبُ مِن حَياةِ صاحِبِها، ولا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إلّا نَعِيمَ الجَنَّةِ...

وكرر ابن القيم إيراد الآية الكريمة، والتعليق حول الحياة الطيبة، فقال: «لَيسَ المُرادُ مِنها الحَياةَ المُشْتَرَكَةَ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ والكُفّارِ، والأبْرارِ والفُجّارِ، ومِن طِيبِ المَأْكَلِ والمَلْبَسِ والمَشْرَبِ والمَنكَحِ، بَلْ رُبَّما زادَ أعْداءُ اللهِ عَلى أوْلِيائِهِ في ذَلِكَ أضْعافًا مُضاعَفَةً، وقَدْ ضَمِنَ اللهُ سُبْحانَهُ لِكُلِّ مَن عَمِلَ صالِحًا أنْ يُحْيِيَهُ حَياةً طَيِّبَةً، فَهو صادِقُ الوَعْدِ الَّذِي لا يُخْلِفُ وعْدَهُ، وأيُّ حَياةٍ أطْيَبُ مِن حَياةِ مَنِ اجْتَمَعَتْ هُمُومُهُ كُلُّها وصارَتْ هَمًّا واحِدًا في مَرْضاةِ اللهِ؟... فَإنْ سَكَتَ سَكَتَ بِاللهِ، وإنْ نَطَقَ نَطَقَ بِاللهِ، وإنْ سَمِعَ فَبِهِ يَسْمَعُ، وإنْ أبْصَرَ فَبِهِ يُبْصِرُ، وبِهِ يَبْطِشُ، وبِهِ يَمْشِي، وبِهِ يَسْكُنُ، وبِهِ يَحْيا، وبِهِ يَمُوتُ، وبِهِ يُبْعَثُ، كَما في صَحِيحِ البُخارِيِّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيما يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أنَّهُ قالَ: «**ما تَقَرَّبَ إلَيَّ**

عَبْـدِي بِمِثْـلِ أداءِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْـهِ، ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَـرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتّـى أُحِبَّـهُ، فَإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَـمْعَهُ الَّذِي يَسْـمَعُ بِهِ، وبَصَـرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِـي بِها، فَبِي يَسْـمَعُ، وبِي يُبْصِرُ، وبِي يَمْشِـي، ولَئِنْ سَـألَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْـتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ فِي شَـيْءٍ أنا فاعِلُهُ، كَتَرَدُّدِي عَنْ قَبْـضِ نَفْسِ عَبْدِيَ المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأكْرَهُ مُساءَتَهُ ولا بُدَّ لَهُ مِنهُ»[1].

وتُـروى مواقـف لِرجـالٍ دخـلَ الإيمـانُ قلوبَهُـم، وتتابعـوا يعملون الصالحـات، فعاشـوا حيـاة طيبـة مُطمئنة، ورد في سـيرة مالك بـن دينار بسـير أعلام النبلاء، أنه دخل عليه لص، فما وجد ما يأخذه، فناداه مالك؛ لم تجد شـيئًا من الدنيا، فهل ترغب في شـيء من الآخرة؟ قال السـارق: نعـم. قال: مالك: توضأ وصل ركعتين، ففعـل، ثم جلس وخرج معه إلى المسـجد، فسئل من ذا؟ قال مالك: جاء ليسرقْ فسـرقناه. لقد كان مالك راضيًا مُطمئنًا لا يوجد عنده شـيء من الدنيا فيسرقه السارق، وعاش حياة طيبة امتد طيبها، فطَيَّبَ السارقَ بالخير، فدعاه للصلاة، ويُروى عن الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ قصة مشـابهة، تقول الراوية: قفز سـارقٌ ذات ليلة في الطائف، على منزل الشـيخ ابن باز آخر الليل، وكان الشـيخ في خلوة ربانية، يتلذذ بمناجاة الله، يتعبده ويدعوه، وسمع الشيخ جلبةً فحرك جرسًا بجـواره، يُوقظ بـه أهله ومنْ حولـه لصلاة الفجر، فما إن سـمعوا صوت الجـرس حتى أسـرعوا إليه، فأخبرهـم أن في البيت صوتًا غريبًا، وفتشـوا فوجدوا السـارق وأمسـك به حرس الشـيخ، وأودعوه الشـرطة، ولما همَّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ٣٣٩ رقم ٦٥٠٢).

الشيخ بالذهاب لصلاة الفجر، سأل ماذا وجدتم؟ فأخبروه أنهم وجدوا شابًّا باكستانيًّا يهم بسرقة إسطوانة الغاز، فقال الشيخ: وأين هو، فأخبروه أنهم أسرعوا به إلى مركز الشرطة، فغضب وأمر حرسه بإحضاره فورًا، وما كان عليهم إلا تنفيذ أمره، فعادوا به إلى بيت الشيخ منكسرًا، ويتحدث الشاب الباكستاني بعد وفاة الشيخ عن القصة، فيقول: كنت منذ سنوات أعمل حارسًا في أحد مصانع البلك بمدينة الطائف، وجاءتني رسالة من باكستان بأن والدتي في حالة خطرة، وتحتاج إلى إجراء عملية لزرع كلية لها، وتكلفة العملية ٧٠٠٠ آلاف ريال سعودي ولم يكن عندي سوى ١٠٠٠ ألف ريال، ولم أجد مَنْ يُعطيني مالًا، فطلبتُ من المصنع سُلفة ورفضوا...، فقالوا لي إن والدتي الآن في حالٍ خطرة، وإذا لم تُجر العملية خلال أسبوع ربما تموت، وحالتها في تدهور، وكنت أبكي طوال اليوم، فهذه أمي التي ربتني وسهرت عليَّ، وأمام هذا الظرف القاسي قررتُ القفز على أحد المنازل المجاورة للمصنع الساعة الثانية ليلًا، وبعد قفزي لسور المنزل بلحظات، لم أشعر إلا برجال الشرطة يمسكون بي ويرمون بي بسيارتهم، وأظلمت الدنيا بعدها في عيني، ثم فجأةً وقبل صلاة الفجر، وإذا برجال الشرطة يرجعونني إلى المنزل نفسه الذي كنت أنوي سرقة إسطوانات الغاز منه وأدخلوني للمجلس، ثم انصرف رجال الشرطة، فإذا بأحد الشباب يقدم لي طعامًا، وقال: كُل بسم الله، ولم أصدق ما أنا فيه، وعندما أذن الفجر قالوا لي: توضأ للصلاة. وكنتُ وقتها بالمجلس خائفًا أترقب، فإذا برجلٍ كبير السن يقوده أحد الشباب يدخل عليَّ بالمجلس، وكان يرتدي بشتًا، وأمسك بيدي وسلم عليَّ قائلًا: هل أكلت؟ قلتُ له: نعم، وأمسك بيدي اليمنى، وأخذني معه للمسجد، وصلينا الفجر،

وبعدهـا رأيت الرجل المسـن الذي أمسـك بيـدي، يجلس على كرسـي بمقدمة المسجد، والتف حوله المصلون وكثيرٌ من الطلاب، فأخذ الشيخُ يتكلم ويُحدث عليهم، ووضعت يدي على رأسي من الخجل والخوف!

ياالله! ماذا فعلتُ؟ أسرقتُ منزل الشيخ ابن باز، وكنتُ أعرفه باسمه، فقد كان مشهورًا عندنا بباكستان، وعند فراغ الشيخ من الدرس أخذوني للمنزل مرة أخرى، وأمسك الشيخ بيدي، وتناولنا الإفطار بحضور كثيرٍ من الشباب، وأجلسني الشيخ بجواره، وفي أثناء الأكل قال لي الشيخ: ما اسمك؟ قلت له: مرتضى. قال لي: لِمَ سرقت؟ فأخبرته بالقصة، فقال: حسنًا، سنعطيك ٩٠٠٠ آلاف ريال، قلتُ له: المطلوب ٧٠٠٠ آلاف. قال: الباقي مصروفٌ لك، ولكن لا تعاود السـرقة مرةً أخرى يا ولدي، فأخذتُ المال وشـكرته ودعوت له، وسافرت لباكستان وأجرت والدتي العملية وتعافت بحمد الله، وعدتُ بعد خمسة أشهرٍ للسعودية، وتوجهت للرياض أبحث عن الشيخ، وذهبت إليه بمنزله، فعرَّفتُه بنفسي وعرفني، وسألني عن والدتي، وأعطيته مبلغ ١٥٠٠ ريال، قال: ما هذا؟ قلت: الباقي. فقال: هو لك. وقلت للشيخ: يا شيخ، لي طلب عندك، فقال: ما هو يا ولدي؟ قلت: أريدك أن أعمل عندك خادمًا أو أي شـيء، أرجوك يا شيخ لا ترد طلبي حفظك الله، فقال: حسنًا، وبالفعل أصبحت أعمل بمنزل الشيخ حتى وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وبعـد، هؤلاء الرجـال نجومٌ غابـت، دخل الإيمان قلوبهـم، وعملوا الصالحـات، فعاشـوا حيـاة طيبة، وبعـد موتهم يتذكرهم النـاس فيدعون لهـم، هو فضـل الله يرزقه من يشـاء. رزقنـا الله من فضلـه، وهدانا لنكون من عباده المومنين الذين يعملون الصالحات، فيعيشـون في دنياهم حياةً طيبة، وفي آخرتهم يلقون جزاءً مضاعفًا، وثوابًا عظيمًا.

خيرُ أمَّة

يقول تعالى:

١. ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٢. ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣. ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

ثلاث آياتٍ وَرَدَت في سورة آل عمران حول شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ في الآية الأولى توجيهٌ ربّاني للمسلمين حملة القرآن بأن ينبري جماعة منهم لمهمَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصف جَلَّ وَعَلَا أولئك العاملين بالفلاح ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. وفي هذه الآية ندبٌ ودعوةٌ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاء الأمر بصيغة فعل المضارع؛ ليدلَّ على استمرارية الحدث في الحاضر والمستقبل؛ إذ إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستمرٌ وباقٍ في

كل زمـان وفـي كل مكان. عن حُذيفة بن اليمـان أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم**»[(١)]. وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: سمعتُ رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**مُرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يُستجاب لكم**»[(٢)].

يقـول الشـيخ ابن سـعدي رَحِمَهُٱللَّهُ **في تفسـيره لهذه الآيـة:** «ليكن منكم أيهـا المؤمنـون الذين مَنَّ الله عليهـم بالإيمان والاعتصام بحبلـه أُمَّةٌ؛ أي جماعةٌ يدعون إلى الخير، وهو اسـمٌ جامـع لكل ما يقرب إلى الله، ويبعد من سـخطه. ويأمرون بالمعروف، وهو ما عُرف بالعقل والشـرع حسـنه، وينهون عن المنكر، وهو ما عُرف بالشـرع والعقل قُبْحُهُ، وهذا إرشادٌ من الله للمؤمنيـن أن يكون منهم جماعةٌ متصدِّية للدعوة إلى سـبيله وإرشـاد الخلـق إلـى دينه، ويدخل فـي ذلك العلمـاء المعلِّمون للديـن، والوعاظ الذيـن يدعـون أهـل الأديـان إلـى الدخول فـي ديـن الإسـلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقُّد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع»[(٣)].

وبعـد هـذه الآيـة الكريمة، وفي هـذه السـورة الجليلـة، وردت الآية الثانيـة؛ إغـراءً وحثًّا للمسـلمين بأن يكونـوا آمرين بالمعـروف ناهين عن

---

(١) أخرجه الترمذي، (٤/ ٤٦٨ رقم ٢١٦٩). وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (رقم ٧٠٧٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٧ رقم ٤٠٠٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (رقم ٣٢٥١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، (ص١٤٢).

المنكـر، فهنيئًـا لمن شـمله هـذا الوصـف الربَّانـي ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. بدلالـة الفعـل المضـارع (تَأْمُرُونَ، وَتَنْهَوْنَ) على اسـتمرار الحدث في الحال والاسـتقبال، وفي تقديـم الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر علـى الإيمان بالله في وصف أمـة محمد ﷺ بيـان تمييز وتخصيـص لمن يقومون بهـذه المهمَّة العظيمـة بصـورة مسـتمرة؛ إذ إن الإيمان صفة قد تكون عامّة ومشـتركة؛ ولذا أُخِّرت وقُدِّمت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لبيان سرِّ الخيرية التي اختصَّت بها هذه الأمَّة دون غيرها. يقول الطاهر بن عاشـور في تفسـيره التحرير والتنوير: «معنى تفضيل المسلمين كلِّهم في كل جيل مع كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات لا يقوم به جميع أفراد الأمة لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمـر على حسـب مبلـغ العلم ومنتهى القُـدرة، فمن التغييـر على الأهل والولد، إلى التغيير على جميع أهل البلد»[1].

وجاءت الآية الثالثة في وصف طائفةٍ من أهل الكتاب آمنوا بالله، وصدقوا رسوله ﷺ، فعملوا بهذه الشعيرة الجليلة، فأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر. يقول الشيخ ابن سعدي في تفسير قوله تعالى: «﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ أي: كإيمان المؤمنين إيمانًا يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسـله، وكل كتـاب أنزله الله، وخصّ الإيمان باليـوم الآخر؛ لأن الإيمان الحقيقـي باليـوم الآخـر يحثُّ المؤمـن به علـى ما يقرّبه إلـى الله، ويُثاب

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٤/ ٤٩).

عليـه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم، ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميـل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شـر، ومن ذلك حثُّهم أهـل دينهم وغيرهم على الإيمـان بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم وصفهم بالهمم العاليـة ﴿وَ﴾ أنهم (يسـارعون بالخيرات)؛ أي: يبـادرون إليها، فينتهزون الفرصـة فيها، ويفعلونها فـي أول وقت إمكانها، وذلك من شـدّة رغبتهم في الخير، ومعرفتهم بفوائده، وحسـن عوائده. فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفـات الجميلة والأفعال الجليلـة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته، ويتغمدهم بغفرانه، وينيلهم من فضله وإحسانه». انتهى كلام الشيخ.

هـذا وإن التعبيـر القرآني باسـم الإشـارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للبعيد في ختام الآيتيـن: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يوحي بعلـوِّ المكانـة التي يتبوَّؤها هـؤلاء الذين تصـدَّوا لهذه الوظيفـة العظيمة ورفعتها، واسـتحقاقهم لهذه المكانـة العليا من الفلاح والصلاح؛ لما في ممارسة هذه الفريضة من مشاق وتعبٍ وآلامٍ ومكابدةٍ وصبر.

ونلحظ أن هذه الآيات الثلاث الواردة في سورة آل عمران [١٠٤، ١١٠، ١١٤] المتضمِّنات فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وردت متقاربات، وجاءت في سـياقات متنوعة؛ فالآية الأولى ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وردت بعـد تذكير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ المسلمين بنعمة الوحدة، وتأليف القلوب بعد العداوة والحروب؛ إذ تَحاربَ الأوس والخزرج بالمدينة المنورة مئةً وعشرين سنة قبل الإسلام،

وهما قبيلتان من أصل واحد؛ إذ إن الأوس والخزرج أخوان لأبٍ وأم، وتقاتلت عبس وذبيان مدّة أربعين سنة بنجد في منطقة القصيم؛ بسب رهان على سباق فرسين، وتقاتلت تغلب وأحلافها مع بني شيبان وأحلافها بسب سهمٍ أصاب ضرع ناقة البسوس، واستمرت الحروب بينهم أكثر من أربعين سنة. وقد جاء الإسلام فأطفأ تلك العداوات والحروب بين القبائل العربية، وطمس تلك الإحن ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولكي يستمرَّ الخير في المجتمع، والتماسك والتآلف، ولمجابهة شياطين الشر، وأبالسة الفرقة؛ أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمّة الإسلام أن تنبري طائفةٌ منهم، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ تأمر بالخير وتنهى عن الشر، تأمر بالفضيلة وتنهى عن الرذيلة، وقد بَيَّن علماء الإسلام ضوابط وشروط تلك الطائفة، ثم جاءت الآية الثانية حول شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياقٍ آخر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فجاءت واصفة المسلمين أنّهم خير أمّة أُخرجت للناس، لكن هذه الخيرية مشروطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفق طاقة كل نفس، فإذا كانت الآية التي قبلها أمرت بتكليف جماعة لتنفيذ هذه الشعيرة في المجتمع المسلم فهذه الآية تتناول المسؤولية الفردية، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للجميع كلٌّ حسب قدرته. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[1]. إن هذه الآية تتضمن المسؤولية

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٩ رقم ٤٩).

الجماعية، لجميع المسلمين نحو شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فـ(كنتم) خطاب للجميع؛ إذا صلح بيتي، وصلح بيتك، وصلح بيتها، فنحن آحاد من كلّ. إذا صلح كلُّ بيت صلحت البيوت كلُّها.

ونلحظ التأكيد على أهمِّية شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من ورودها للمرة الثالثة في هذه السورة؛ لفائدتها وعظمها؛ إذ جاءت في هذا السياق لتصف الطائفة التي أسلمت من أهل الكتاب بأنَّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

فهذا شرط الله كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ سرَّه أن يكون من هذه الأُمَّة فليؤدِّ شرط الله فيها»(١). جعلنا الله وإيّاكم من المشمولين بهذه الآيات الكريمات. آمين.

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٤٤٦).

الدعاء

قال تعالـى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

هذه الآية تندبنا لدعاء الله ورجائه، إن العيش مع القرآن سعادةٌ وبهجة، وبركة في العمر، فها هو خالق الكون كله في هذه الآية يخاطبنا نحن البشر دون سائر مخلوقاته ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فهل نسمع!

ينـادي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسـان، ويرفعـه للمقامـات العُلـى، فكيف ينسـى هـذا النداء الرباني الرقيق العـذب ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، قلوبٌ كالحجارة أو أشد ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

عـن النعمان بـن بشير قـال: قـال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدعاء هو العبـادة**»، وقـرأ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][(١)].

جاء في تفسـير ابن كثير: كَانَ سُـفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: يَا مَنْ أَحبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَـأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُـؤَالَهُ، وَيَا مَنْ أَبْغَض عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْـأَلْهُ، وَلَيْس

(١) أخرجـه أحمـد (٣٠/ ٣٣٦ رقم ١٨٣٨٦)، وأبو داود (١/ ٤٦٦ رقم ١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ٢١١ رقم ٢٩٦٩)، وقال: حسـن صحيح.

كَذَلِـكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ. وجاء فيه عن قتادة: قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْأُمَّـةُ ثَلَاثًـا لَمْ تُعطهُن أُمَّـةٌ قَبْلَهُمْ إِلَّا نَبِـيٌّ: كَانَ إِذَا أَرْسَـلَ اللهُ نَبِيًّا قِيلَ لَهُ: «أَنْتَ شَـاهِدٌ عَلَى أُمَّتِكَ»، وجَعلتُكم شُـهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: «لَيْـسَ عَلَيْـكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ». وَقَالَ لِهَـذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وَكَانَ يُقَـالُ لَهُ: «ادْعُنِي أَسْـتَجِبْ لَكَ»، وَقَـالَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وجاء في تفسـير ابن كثير كذلك: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَـعِيدٍ قَالَ: لَمَّا مَاتَ مُحَمَّـدُ بْـنُ مَسْـلَمَةَ الْأَنْصَـارِيُّ، وَجَدْنَا فِـي ذُؤَابَةِ سَـيْفِهِ كِتَابًا: «بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيـمِ، سَـمِعْتُ رسـول الله ﷺ يقـول: «**إِنَّ لِرَبِّكُـمْ فِي بَقِيَّـةِ دَهْرِكُمْ نَفَحَـاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّ دَعْوَةً أَنْ تُوَافِقَ رَحْمَةً فَيَسْعَدَ بِهَا صَاحِبُهَا سَعَادَةً لَا يَخْسَرُ بَعْدَهَا أَبَدًا**»[1].

وتتكـرر الآيـات الكريمة التي تُذكرنـا بالدعاء، وتُعلمنـا كيف ندعو، يقول تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

فلـكُلٍ مع ربِّه سـرٌّ، ولكُلٍ دُعاءٌ خاصٌ لا يبوح بـه لغير الله، فهو الرجاء والأمـل، وهـو الغني القـادر، وهو الرحمـن الرحيم، يأمرنا وأمره شـرف، فكيـف نغفـل عن هذا التوجيـه الربَّانـي؟ وفي هذه الآية يُرشـدنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأحسـن الدعاء وأفضله، ولطريقة نجوى الخالق وسُـؤاله، جاء في تفسـير

(١) انظر: تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة (٧/ ١٥٤).

البغـوي: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا﴾ تَذَلُّـلًا وَاسْـتِكَانَةً، ﴿وَخُفۡيَةً﴾ أَيْ سِـرًّا، قَـالَ الْحَسَنُ: «بَيْنَ دَعْوَةِ السِّرِّ وَدَعْوَةِ الْعَلَانِيَةِ سَبْعُونَ ضِعْفًا»(١).

رباهُ، ندعوك خوفًا من عذابك، وطمعًا في ثوابك.

رباهُ، ندعوك ذِلةً، ونرجوك رحمةً.

رباه، ندعوك يقينًا، ونسألك ثِقةً.

قال الشيخ ابن سعدي حول قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخلٌ في الاعتداء المنهي عنه.

وروى الطبري في تفسيره عن الحسن قال: «إنْ كانَ الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعرُ جارُه. وإن كان الرجل لقد فَقُه الفقهَ الكثير، وما يشعرُ به الناس. وإن كان الرجل ليصلِّي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر، وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السرِّ فيكون علانية أبدًا! ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربِّهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا فرضِي فعله، فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣].

وروي عن أبي موسى قال: «كان النبي ﷺ في غَزاة فأشرفوا على وادٍ يكبّرون ويهلّلون ويرفعون أصواتهم، فقال: «**أيُّها الناس، اربَعُوا**

(١) تفسير البغوي: (٢/ ٥٢١).

على أنفسكم، إنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا! إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»[١].

وقال الشوكاني في تفسيره: «أمَرَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ بِالدُّعاءِ، وقَيَّدَ ذَلِكَ بِكَوْنِ الدّاعِي مُتَضَرِّعًا بِدُعائِهِ مُخْفِيًا لَهُ»[٢].

وقال الشوكاني أيضًا: «مِنَ الِاعْتِداءِ في الدُّعاءِ: أنْ يَسْأَلَ الدّاعِي ما لَيْسَ لَهُ كالخُلُودِ في الدُّنْيا، أوْ إدْراكِ ما هو مُحالٌ في نَفْسِهِ، أوْ بِطَلَبِ الوُصُولِ إلى مَنازِلِ الأنْبِياءِ في الآخِرَةِ أوْ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالدُّعاءِ صارِخًا بِهِ»[٣].

وقال ابن عطيّة في تفسيره: ﴿**وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾؛ «أمْرٌ بِأنْ يَكُونَ الإنْسانُ في حالَةِ تَرَقُّبٍ وتَحَزُّنٍ وتَأْمِيلٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ حَتّى يَكُونَ الرَجاءُ والخَوْفُ كالجَناحَيْنِ لِلطّائِرِ يَحْمِلانِهِ في طَرِيقِ اسْتِقامَةٍ، وإنِ انْفَرَدَ أحَدُهُما هَلَكَ الإنْسانُ، وقَدْ قالَ كَثِيرٌ مِنَ العُلَماءِ: يَنْبَغِي أنْ يَغْلِبَ الخَوْفُ الرَجاءَ طُولَ الحَياةِ، فَإذا جاءَ المَوْتُ غَلَبَ الرَجاءُ. وقَدْ رَأى كَثِيرٌ مِنَ العُلَماءِ أنْ يَكُونَ الخَوْفُ أغْلَبَ عَلى المَرْءِ بِكَثِيرٍ، وهَذا كُلُّهُ احْتِياطٌ، ومِنهُ تَمَنِّي الحَسَنِ البَصْرِيِّ أنْ يَكُونَ الرَجُلَ الَّذِي هو آخِرُ مَن يُدْخَلُ الجَنَّةَ، وتَمَنّى سالِم، مَوْلى أبِي حُذَيْفَةَ، أنْ يَكُونَ مِن أصْحابِ الأعْرافِ؛ لِأنَّ مَذْهَبَهُ أنَّهم مُذْنِبُونَ»[٤].

---

(١) تفسير الطبري، (١٢/ ٤٨٥). والحديث أخرجه البخاري (٧/ ٥٢٥ رقم ٢٩٩٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٦ رقم ٢٧٠٤).

(٢) فتح القدير، الشوكاني: (١/ ٢١١).

(٣) فتح القدير، الشوكاني: (١/ ٢١٢).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية: (٢/ ٤١١).

إن للدعـاء المصحوب بالخيفـة والتضرع أثرًا كبيـرًا؛ إذ تُفتّح له أبواب السماء، ويكون أمل استجابة الدعوة بقدر حسن الظن واليقين بالله عَزَّوَجَلَّ.

سـألت عائشـة رسـول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالـت: «أرأيت إن علمـتُ ليلة القدر ما أقـول فيها؟ قال: **قولي: اللهم إنك عفوٌ كريمٌ تحب العفو فاعفُ عنـي**»[1]. والميـتُ ينقطع عـن الدنيا، ولكن الدعـوة الخالصة تصله، قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا مات الإنسـان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[2].

لقد عرف الجيل الأول من الصحابة والتابعين أهمية الدعاء، فتوجهوا لله بقلوبهم، فعاشوا السعادة والبهجة، ارتفعوا عن الدنيا وحطامها، فكانوا أكبر من الدنيا وزينتها.

في معركة أحد استشـهد أبو جابر عبدالله بـن عمرو بن حَرَام، وذهب ابنه جابر يبحث عن أبيه حتى ألفاه بين الشـهداء وقد مثل به المشـركون، كما مثلوا بغيره من الأبطال..

ووقـف جابـر وبعض أهلـه يبكونـه، ومر بهم رسـول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**ابكوه.. أو لا تبكوه.. فإن الملائكة لتُظَلِّلَهُ بأجنحتها**»[3]..!!

وقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما بعد خبرًا عظيمًا عنه، قال لولده جابر يومًا:

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢/ ٢٣٦ رقم ٢٥٣٨٤) والترمذي (٥/ ٥٣٤ رقم ٣٥١٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٥٥ رقم ١٦٣١).
(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٦٠ رقم ١٢٤٤)، ومسلم (٤/ ١٩١٧ رقم ٢٤٧١).

«يا جابر.. ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب.. ولقد كلم أباك كِفاحًا، أي مواجهةً. قال له: يا عبدي، سلني أعطك..

فقال أبوك: يا رب، أسألك أن تردني إلى الدنيا، لأقتَل في سبيلك ثانية..

قال له الله: إنه قد سبق القول مني: أنهم إليها لا يُرجعون.

فدعا أبو جابر ربه، فقال: يا رب فأبلغ من ورائي بما أعطيتنا من نعمة..

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]»(١).

نسأل الله أن يشرح الصدر، ويفرج الهمَّ، ويزيل الغمَّ، وييّسر الأمور، ويجعلنا من عباده المُخلِصين، آمين.

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٤ رقم ٤٩١٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩٠٥).

ربح البيع

قــال تعالــى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

اشـترى نفسـه، فممّن اشـتراها؟ ولماذا اشـتراها؟ وما ثمن الشـراء؟ تجاذبته الدنيا والآخرة، فاختار آخرته... ترك دُنياه وآثر دينه. نزل فيه قرآن خالد، وأصبح المسـلمون يقرؤون تلك الآيات الجليلة، فيتذكرون سِـيَر أولئك الرجال القُدوات. رزقنا الله اقتفاء أثرهم، وحشرنا معهم.

كان رضـا الله مُبتغاهـم، ورضوانه هدفهم. ويَمتنُّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليهم فيؤكّد رأفته ورحمته بأولئك العباد المشـترين أنفسـهم بالآخـرة، إنها آيةٌ كريمة قيل في سـبب نزولها أقوال منها: إنهـا نزلت في الصحابي الجليل صهيب الرومي، ولصهيبٍ قصّة تبدأ منذ طفولته؛ فقد وُلد في بيت الإمارة والعزِّ قبل البعثة النبوية الشـريفة، فوالده عربي الجذم؛ هو سنان بن مالك النُّميـري والـي (الأُبُلَّـة) لملـك الفرس كسـرى فـي العراق على شـاطئ الفـرات مما يلي الجزيرة والموصل. ونشـأ ابنه صهيب سـنواته الخمس الأولى في حضن أبيه يداعبه ويناغيه، وتعبث طفولته البريئة بزاده ومتاعه، ويرنو إليه بكل عواطف الشـفقة والحبِّ شأن كل صغيرٍ مع أبويه، ولكنها الدنيا لا يـدوم نعيمهـا، ولا يعلم البشـر ما فـي الغد والغيب؛ فـذات يومٍ

ذهبت الأم مع صغيرها صهيب، وحَرَسِها وخَدَمِها إلى منتجعٍ قصيٍّ عن الأُبُلَّة للترويح والاستجمام، فأغارت على المكان قوّة روميّة، فقتلت منْ قتلت، وأخذت الصغير مع الأسرى. وكانت بين فارس والروم ذلك الوقت عداوات وحروب؛ تارةً ينتصر هؤلاء، وتارةً ينتصر أولئك، ولم يكُ للعرب في ذلك التاريخ شأنٌ ولا اعتبار، لكن حين بدأت بشائر النبوة ونسائمها تظلّل مكة؛ انقسم أهل مكة بين فريق الإيمان وفريق الكفر، وصارت أخبار الحروب بين فارس والروم تسرُّ وتؤلم. جاء ذات سنة الخبر بهزيمة الروم في حربها مع فارس، وفارس أمَّة أوثان، ومشركو مكة أهل أوثان أيضًا؛ ولذا فرح المشركون بنصرهم، أما المسلمون فقد حزنوا لهزيمة الروم؛ لأنهم أهل كتاب. يقول الشيخ الشعراوي: «الخلاف بيننا وبين الفرس في القمَّة الإلهية، أما الخلاف بيننا والروم ففي القمة الرسالية، فهم أقرب إلينا؛ فهم يؤمنون بإلهنا، وإن كانوا لا يؤمنون برسولنا»(1). وفي تلك الحرب نزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الروم: ١-٤].

وكان صهيب قد بِيع في أسواق الرقيق الروميّة، وتداولته الأيدي، وقضى شطرًا من حياته في قصور الترف والثراء يخدم أسياده، ويقضي شطرًا من حياته، فيرى موبقاتهم وطغيانهم، ويأنف من حياة الرقّ والعبودية، فهو لا ينسى أصوله العربية، ومكانة أبيه وجاهه، وسمع ذات مرّة كاهنًا يقول: لقد قرب زمان نبي يخرج في مكة من أرض جزيرة العرب

(١) تفسير الشعراوي: (١٨/ ١١٣٠٠).

يصدِّق رسالة عيسى، فوقرت في نفسه الرغبة لرؤية النبي الموعودة به الأرض ﷺ، وطفِق يفكر في الهروب والرحيل إلى مكة، وتحقّق له ما أراد، وكابد السفر، وذاق مرارة الترحال، ووصل إلى مكة، وحالف عبدالله بن جدعان، وأطلق عليه أهل مكة اسم صهيب الرومي؛ للكنة لسانه، ووردية جسمه، واحمرار شعره. ومارس التجارة مع عبدالله بن جدعان، وصحبه في رحلاته، فدَرَّت عليه تلك المتاجرة المال الوفير، وصار له في مكة قيمة واعتبار؛ فالمال يصنع الوجاهة والمكانة.

إلا أنّ دُنياه لم تُنسه ما جاء لأجله، فقد ظلَّ يترقّب ظهور النبي الخاتم، وذات يومٍ وهو عائدٌ من سفره، علم بخروج الأمل المنتظر، فقرر المقابلة والسماع، وسأل أين يجد محمد بن عبدالله ﷺ، فقيل له: تجده في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فانطلق إلى الدار لا يلوي على أحد، وأحسبه يستحثُّ الخطى، ويكاد يقفز شوقًا ولهفة، ووصل إلى الدار، وعند الباب لقي صديقه عمّار بن ياسر. وتروي كتب السيرة عن عمار الحوار الآتي:

قال عمار: ماذا تريد يا صهيب؟

قال صهيب: وأنت ماذا تريد يا عمار؟

قال: أريد الدخول لأسمع. قال صهيب: وأنا كذلك.

ودخل الرجلان على رسول الله ﷺ، واستمعا لقوله، فوجدا الحياة والسعادة، وشعرا بالطمأنينة والراحة، وعلى الفور نطقا بالشهادة؛ (أشهد أنّ لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله)، وأمضيا بقيّة نهارهما في مدرسته المباركة، وفي المساء خرج الرجلان وهما مستخفيان

بظلام الليل، خرج الصديقان بقلوبٍ مشرقة وضَّاءة، تتلألأ بنور الإيمان، خـرج الصاحبان وقـد تركا عالمَـيّ الغواية والاتْبـاع ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وشـاع خبر إسلام الرجلين، فلقيا من أهل مكة الأذى والبلاء، وصبرا وتحمَّلا تحمُّل الجبال الرواسي. إنّه الإيمان ذاقا حلاوته، وشعرا بطراوته، ولـن يزحزحهما عن حوضه ترغيـبٌ ولا ترهيب، ولا تعذيبٌ ولا تنكيل. وهاجر المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى المدينة، فَهَمَّ صهيـبٌ بالهجرة، وكاد أن يكـون ثالـث ثلاثـة؛ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكـر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصهيـب، إلّا أن أهل مكة حالوا دونه والهجـرة، ووضعوا عليه المراقبة. وذات مـرّةٍ تمكّـن صهيـبٌ مـن مغافلة الرصد، فخـرج علـى راحلته يغذُّ السير، ويدفع مطيتـه للهرولة والنجاة، ولكن فتيان مكـة المراقبين تنبهوا لـه، ولحقـوا به، فأدركوه وتوقـف، وهناك صار الحوار، والبيع والشـراء، ونَعِمَت الصفقة؛ صفقةٌ خلّدتها السـماء، وصـارت قرآنًا يُتلى، وأضحت أحرفًا يُتعبَّد بترديدها، وصفقةً خالدة باقية ما بقى الزمان.

لقـد وقف صهيب بعزّته وشـموخه أمام أولئـك الفتية الذين ران على أبصارهـم الضـلال، وحجبـت الغواية قلوبهم عـن الحـق الأبلج، وقف صهيبٌ وقد قرّر ألا عودة، وقد أخرج سـلاحه؛ سـهامًا مـن كنانته، وأوتر قوسـه، وصاح قائلًا: «يا معشـر قريش، تعلمون علم يقين أني من أرماكم رجـلًا، وايم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سـهمٍ معي في كنانتي، ثم

أضرب فيكم بسيفي هذا حتى لا يبقى في يدي شيء، وعند ذلك أكون قد أعـذرت. فقال أحدهم: والله لا ندعك ترحل وتفوز منَّا بنفسـك ومالك؛ فقد أتيت إلينا في مكة وأنت صعلوكٌ فقير فاغتنيت، وبلغت بيننا ما بلغت، وتريد أن تهاجر بنفسك ومالك.

قال صهيب: أفئن دللتكم على مالي وتركته لكم، أتتركوني وسبيلي؟ قالوا: نعم فأرشدهم إلى موضعه وتركوه وشأنه»[١].

وكأنَّـي به وقد تهلّل بِشـرًا، وأرخى زمام ناقته يحثّ السـير إلى يثرب الخيـر والنور، يثرب الغد والأمـل، وعاد فتيان قريش إلى مكة بعد إمضاء صفقة البيع والشـراء، وأخذ المشركون ماله، ورحل بنفسه إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمشركون عادوا بحطام الدنيا.

ترك وراءه زهـرة الحياة الدنيا وأيامها المعدودة، وعاد أعداؤه بحطام الدنيا وزخرفهـا، اسـتقبل طريـق الجنـة، ونظر للخلـود القـادم، والحياة الآخرة، واشترى مرضاة ربّه، ووصل المدينة المنورة مرتاح البال، متهلّل الوجه. وما إن وصل وإذا بالسـماء قد أنبأت الأرض خبره وبيعه وشراءه، فيسـتقبله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بأبي وأمي ونفسي- فيقول له: ربح البيع أبـا يحيى. ربح البيع أبا يحيـى. ويقرأ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما نزل به جبريل من قولٍ خالد، وشـرفٍ تالـد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

---

(١) انظر: صـور من حيـاة الصحابـة: (١/ ١٩٥-٢٠٢). ورجال حول الرسـول، خالـد محمد خالد: (ص٨٥-٨٧).

ويعلـم صهيب أن خبره سـبقه به جبريل، فيزداد فرحـه، ويقول: والله ما سبقني إليك أحد يا رسول الله. وأحسب أدمعه تتقاطر فرحًا بالوصول، ورؤية رسـول الله ﷺ، ونزول جبريل مبلّغًا عنه بقرآنٍ تتلوه البشرية إلـى أن تقوم السـاعة. إن المـال يهون ويرخص، وقد تحقّـق له ما تحقّق. هنيئًا لك أبا يحيى، وجمعنا الله بك في دار الخلد.

وتمضـي السـنون ويرحل صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مـع الراحليـن، وتبقى الآية الكريمة تجدِّد ذكراه، وتدفع للاقتداء ببيعه وإيثاره آخرته على دنياه. يقول العلمـاء: لئـن نزلت الآية في حالة صهيب فهي للمسـلمين جميعهم، هي لكل مسـلمٍ يؤثر الآخرة على الدنيا، فيحيا حياة طيبة، تغمره السـعادة في مرضـاة الله، وينال الآخرة بالفوز بالجنة ونعيمها المقيم، والنجاة من النار وخزيها الأليم، وما عند الله خيرٌ وأبقى.

ثمَّـة دروسٌ عظيمـة، وإشـاراتٌ قويمةٌ كامنـةٌ في هذه الآيـة الكريمة ومناسبة نزولها، علينا أن نتعمَّق فيها، ونستفيد منها، ولا ندعها تفلت دون تدبّر؛ كي نحيا حياة طيبة تأبى السقوط والخسران.

الرزق

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

هي الأرزاقُ والأقدارُ بيدِ الله، فلا مَلَك زيدٌ التجارة بذكائه، ولا افتقر عمروٌ بغبائه، وإنما هي حِكمةٌ يعلمُها سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [البقرة: ٢١٢]. ولقد بسط عددٌ من علماء التفسير القولَ حول قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾، فقال الزمخشري: «﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ فهو يعوِّضه لا معوّض سواه: إمّا عاجلًا بالمال، أو بالقناعة التي هي كنزٌ لا ينفد، وإمّا آجلًا بالثواب الذي كل خُلفٍ دونه»(١).

أورد الطنطاوي في ذكرياته قصةً لشيخٍ كان يسكن قريبًا منه في دمشق أيام شبابه يقول: «كان يومًا في رمضان، وكان مجلسه قريبًا من باب الدار، وكانت مائدة الإفطار قد أُعِدَّت، ودَنَا المغرب، فقرع الباب فقيرٌ يسأل ويُقْسِمُ أن أهله في البيت صِيام، وليس عندهم شيءٌ يُؤكل، فتلفَّت فلم يجد حوله أحدًا من أهله، فتناول طبقًا وبعض الخبز، فوضعها جانبًا، وقال له: احمل هذا كله، فحمله فذهب به، ودخل النساء فلم يجدن الطعام، فسخطن وصِحن عليه، وتكلَّمن كلامًا شديدًا، وهو صامت.

(١) الكشاف: (٣/ ٥٦٩).

وضـرب المدفـع، وأذَّن المـؤذن من جامـع التوبة، فإذا البـاب يُقرع، وإذا بألـوان الطعام من الحـار والبارد، والحلو والحامـض، تدخل عليه. وإذا القصة أن سـعيد باشا شمدين، أحد كبار الوجهاء، كان قد دعا ضيوفًا فلم يحضروا، فأمر بحمل الطعام كله إلى دار الشيخ، فقال: أرأيتنَّ مكافأة الصدقة؟»[١].

هـي الثقة بالله؛ زار عثمان بن عفان عبدالله بن مسـعود في مرض موته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال عثمان: ما تشتكي؟[٢].

قال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمة ربي.

قال: ألا آمرُ لك بعطائك الذي امتنعتَ عن أخذه منذ سنين؟!

قال: لا حاجة لي به.

ثِقـةٌ بالله، وتوكلٌ عليـه، فالأرزاق بيد الله؛ تلكـم الطير تغدو خماصًا، وترجع بطانًا، وأسـماك البحار ومخلوقاتها، وحيوانات الأرض وطيورها وحشـراتها، كلهـا مرزوقة تعيش حياتهـا المُقـدَّرة ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هـود: ٦]. هـو الـرزق بيـد الله، فتوكل عليـه ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

(١) ذكريات، علي الطنطاوي: (١٩٣).
(٢) صور من حياة الصحابة: (١/ ١٠٥).

ولابد من العمل، فلو بَقِيَت الطيور في أوكارها، أو حُبست الحيوانات في حظائرها لهلكت جُوعًا، وماتت عطشًا. «رأى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا طويل البقاء في المسجد، فسأل منْ يُنفقُ عليه؟ قِيل لهُ أخوه. قال: أخوه خيرٌ منه!»، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأكره أن أرى أحدَكم سبهللًا لا في عمل دنيا، ولا في عمل آخرة»[1].

وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأمقُتُ الرجلَ؛ إذ أراه فارغًا... ليس في شيءٍ من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة»[2]. والرزق في حياتنا الدنيا يأتي للبر والفاجر ﴿**كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٠].

وذكر ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ**﴾ أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيرًا، ويضيق على هذا، ويقتر على هذا رزقه جدًا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿**ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا**﴾ [الإسراء: ٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مُدقع، وهذا غني مُوسع عليه، فكذلك هم في الآخرة؛ هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»[3].

---

(١): الكافي الشافي، ابن حجر العسقلاني: (ص٣٢٠).

(٢) رجال حول الرسول: (١٢٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٧٣٠ رقم ١٠٥٤).

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: يقول الله تعالى: «**أَنْفِقْ أُنْفِقُ عليك**»(١). وفي الحديث: «**أن مَلَكين يصيحان كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا**»(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «**أَنْفِقْ يا بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا**»(٣).

والتاريخ يذكرُ عددًا من المُنفقين الباذلين في سبيل الله قديمًا وحديثًا، وقد بارك الله لهم، فكلما أعطوا عوضهم الله، فذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه بذل الأموال بعد إسلامه، فأخلف الله عليه وتنامى ماله، لما عزَمَ الرسولُ ﷺ على غزوة تبوك حث الصحابة على النفقة والبذل، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله، فسارع أغنياء الصحابة وفقراؤهم إلى تقديم الأموال، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش تبوك، فقد قال الرسول ﷺ: «**من جهز جيش العُسرة فله الجنة**»، فجهزهم عثمان(٤)؛ حيث جاء بألف دينار فصبها في حجر النبي ﷺ والنبي ﷺ يقول: «**ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم**»، يرددها مرارًا(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٦٢ رقم ٤٦٨٤)، ومسلم (٢/ ٦٩٠ رقم ٩٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٤٦٩ رقم ١٤٤٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٠ رقم ١٠١٠).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣٤١ رقم ١٠٢٤)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٢٩ رقم ٦٠٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ١٦٣ رقم ٢٦٦١).
(٤) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٣ رقم ٢٧٧٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٢٦ رقم ٣٧٠١) وقال: حديث حسن غريب.

وفـي خلافـة الفاروق رضوان الله عليـه، أصابت الناسَ سـنةٌ مُجْدِبَةٌ، هلـك الزَّرعُ والضَّرعُ، حتى دُعِيَ عامُها لشـدة قحْطِه بعـامِ الرَّمَادة، وأقبل الناس ذات صباحٍ يشتكون، قالوا يا خليفة رسول الله إن السماء لم تمطر، وإن الأرض لم تنبت، وقد أشفى الناس على الهلاك، فما نصنع!

فنظر إليهم عمر بوجهٍ عصره الهم عصرًا وقال:

اصبروا واحتسبوا، فإني أرجو ألا تمسوا حتى يُفرج الله عنكم.

فلما كان آخر النهار؛ وردت الأخبار بأن عِيرًا لعثمان بن عفان جاءت من الشام، وأنها ستصل المدينة عند الصباح.

فمـا إن قُضِيت صلاةُ الفجر حتى هب الناس يسـتقبلون العير جماعةً إثر جماعةٍ..

وانطلـق التجار يتلقونهـا؛ فإذا هي ألف بعير قد وُسِـقت بُرًّا.. وزيتًا.. وزبيبًا..

أناخـت العِيرُ بباب عثمان بن عفان رضـوان الله عليه، وطَفِقَ الغِلمانُ يُنْزِلُون عنها أحمالها..

فدخل التُّجَّار على عثمان وقالوا:

بِعْنَا ما وصل إليك يا أبا عمرو.

فقال: حُبًّا وكرامة، ولكن كم تُرْبِحُونَنِي على شِرائي؟

فقالوا: نُعطيك بالدِّرهم درهمين.

فقال: أُعطيتُ أكثر من هذا.. فزادوا له..

فقال: أُعطيت أكثر ممَّا زِدْتموه.. فزادوا له.

فقال: أُعطيتُ أكثر من هذا..

فقالوا: يا أبا عَمْرو، ليس في المدينة تجَّارٌ غيرنا..

وما سَبَقَنا إليك أحدٌ.. فمن الذي أعطاك أكثر مما أعطينا؟!

فقال: إنَّ الله أعطاني بكلِّ درهم عَشَرَةً..

فهل عندكم زيادة؟

قالوا: لا يا أبا عمْرٍو..

فقال: إنِّي أُشْهِدُ الله تعالى أنِّي جَعَلْتُ ما حمَلَتْ هذه العِيرُ صدقةً على فُقَرَاءِ المسلمين.. لا أبتغي من أَحَدٍ دِرْهَمًا ولا دينارًا..، وإنَّما أبتغي ثواب الله ورضاه[1].

رجالٌ آمنوا وَصَدَّقُوا وَعمِلُوا، وجادُوا بأموالهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقانا الله الشح، ومنَّ علينا بالقبول.

(١) صور من حياة الصحابة: (١/ ٥٤٤-٥٤٦).

زيد

قال تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تناولَتْ هذه الآية الكريمة قصةً فيها دروسٌ وعبر، لكننا نقرأ هذه الآية على عجل، وتَمُرُّ بنا فلا نتريّث لتأمُّلها، ونسمعها من القُرَّاء فلا نتوقَّف لتدبُّرها، ويجهل كثيرون تلك الدروس، وكأنَّ البلادة قد رانت على عقولنا، فغطَّتها من أن ترى. هي قصةٌ خلَّدها كتاب الله، فبقي اسم بطلها زيد بن حارثة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نيّرًا مهما تعاقب الليل والنهار، وظل اسمه مذكورًا بالقرآن الكريم دون غيرِهِ من الصحابة، كما ذُكرت أسماء الرسل، وباتت أحرف اسمه قرآنًا يُتْلَى، وغدا المسلمون يتعبَّدون بقراءة اسمه في كل العصور.

إذًا لنتتبع هذه القصة، سوف نجد الأحداث قد لازمت زيدًا منذ الطفولة، فقد خرج مع أمه سُعدى بنت ثعلبة وهو ابن ثمانِ سنين إلى أخواله في رحاب طيء، فاختطفه تجار البشر، وأسرعوا به لسوق النخاسة وهم يتضاحكون، بينما باتت ثلاثة قلوبٍ تخفق خوفًا وحزنًا، وترتجف ولهًا وجزعًا؛ فكأنّي بالصغير يصرخ وقد فَقد والديه، وأنَّى له براحمٍ يُشفق عليه مع قُساة القلوب وذئاب الصحاري، وأحسبُ الأمَّ

حين شعرت بفقد صغيرها قد صاخت الأرض بقدميها، وسقطت مغشيًّا عليها، وظلَّت تندب كبدها، وكأنِّي بعينيها قد ابيضَّت من الحزن لوعةً وجزعًا، بل يا تُرى كيف تلقَّى أبوه خبرَ فَقْدِ فلذَةِ كبده؟ أظُنُّه ظَلَّ حزينًا دامع العين، وقد عَبَّر عن لوعته وحنينه بأبيات شعر تتفطَّر لها الأكباد؛ إذ يقول:

بَكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ
أحيٌّ فيُرجَى أم أَتَى دُونَهُ الأجَلْ

فوالله ما أدري وإنِّي لسائِلٌ
أغالَكَ[1] بعدي السَّهلُ أم غالَكَ الجَبَلْ

وإن هبّتِ الأرواحُ هيَّجْنَ ذِكرَه
فيا طُولَ ما حُزني عليهِ، ويا وَجَلْ

تُذكِّرُنيهِ الشَّمسُ عند طُلوعِها
وتعرضُ ذكراهُ إذا غربُها أَفَلْ[2]

سأعملُ نَصَّ العِيسِ[3] في الأرض جاهدًا
ولا أسأمُ التِّطوافَ أو تَسْأَمَ الإبلْ

حياتي، أو تأتي عليَّ منيَّتي
فَكُلُّ امرئٍ فانٍ وإن غرَّهُ الأملْ

(١) غالك: سرقك.
(٢) أفل: غاب.
(٣) سأعمل نص العيس: سأستحثُ النوق على السفر في الأرض.

وظلّت الأمُ والأب يتجرعان الحزن والألم، ويُساهران النَّجمَ والأمل، أمّا الخاطفون فباعوه في الطّائف لحكيم بن حزام، ثم انتهى الأمر بذاك الصغير ليكون في رعاية أفضل من وطِئَ الأرض ومع أكرم البشر، مع سيد الكرام الحبيب المصطفى ﷺ. إنها حكاية الصحابي الجليل زيد بن حارثة، فمنذ بداية حياته والأحداث تُلاحقه، لكنها أحداثٌ ظاهرها حزين، إلا أن باطنها ثمين. إن الإنسان لا يعلم ما في الغيب المُغطَّى، ولا ما في قادم الأيام من خير، إنّها الأحداث تقع، وفي ظاهرها ألمٌ وحزن، ولكن في باطنها خيرٌ وفضل؛ فخطفُ زيد وبيعه في سوق النخاسة كان خيرًا له؛ ظاهر الحال شكوى وألم وبلاءٌ وعذاب، ولكن النتيجة عيشٌ في بيت النبوة، ونِعمَ النتيجة. وكم يودُّ كثيرون لو أيًّا منهم كان ذلك الغلام المخطوف. ولهذا رَوِّض نفسك على تحمّل الصدمات، واستحضر دومًا قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩]. إنَّ أيام زيد الحزينة تحوَّلت إلى سعادةٍ وبهجة، فقد عاش في بيت الرسول ﷺ ومع السيدة خديجة بنت خويلد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، وصار القوم في مكة يعرفونه بمولى محمد بن عبدالله، ومضت الأيام، ونسي زيدًا ذَووه، وفي ذات عام جاء عمُّه إلى مكة زائرًا، والتقى قدرًا بزيد فَرَقَّ له قلبُه، وأحسَّ أنه ابن أخيه المفقود، فقال له ما اسمك يا فتي؟ فردَّ عليه اسمي زيد. قال العمّ: واسم أبيك؟ قال حارثة بن شراحبيل الكعبي. قال الرجل: وما اسم أمّك؟ فردَّ زيد: اسمها سُعْدَى، فضَمَّهُ الرجل، وقال: أنت ابننا المفقود. وعرف أنه يعيش مولى في بيت محمد بن عبدالله ﷺ، وأسرع الرجل عائدًا يستحثُّ الخطى، ويزفُّ

الخبر إلى أخيه، وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى[1]: أن زيدًا لقي في الحج ناسًا من قومه فعَرَفَهم وعرفوه، فقال: بلغوا أهلي هذه الأبيات، فإني أعلمُ أنهم قد جزِعوا عليَّ، وقال:

أحن إِلى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِيًا
بِأَنِّي قَطِينُ الْبَيْتِ عِنْدَ الْمَشَاعِرِ

فَكُفُّوا مِنَ الْوَجْدِ الَّذِي قَدْ شَجَاكُمُ
وَلَا تُعْمِلُوا فِي الْأَرْضِ نَصَّ الْأَبَاعِرِ

فَإِنِي بِحَمْدِ اللهِ فِي خَيْرِ أُسْرَةٍ
كِرَامِ مَعَدٍّ كَابِرًا بَعْدَ كَابِرِ

وحين عرفت أُسرةُ زيد بوجوده في مكة جاؤوا مسرعين، وكأنّي بهم يدفعون رواحلهم، ويصِلُون الليل بالنهار شوقًا ولهفةً لابنهم المفقود، ووصل الركب، وطرقوا بيت الحبيب المصطفى ﷺ، وأخبروه أن زيدًا ابنهم، وأنهم يبحثون عنه منذ فقده، ورحَّب بهم الحبيب الرحيم ذُو المروءة والشهامة، وأبدى لهم السماحة والبشاشة، لكنه ترك الخيار لزيدٍ نفسه بين الذهاب معهم أو البقاء لديه؛ فالأمر له، والقرار بيده، وكأني بذويه قد فرحوا ورضوا، وتبسَّطوا وتبسَّموا، فلسوف يختارهم ابنهم، ولن يبقى مولىً عند محمد؛ كيف وقلوب الوالدين تتناجى، وأكباد الأبوين تتواصل، لكن القوم تفاجؤوا حين أعلن زيدٌ قراره بتفضيل بيت النبوة على بيتهم، والبقاء مولى عند محمد، وليس حُرًّا مع والديه، وعند ذلك أعلن

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٠).

الحبيب الكريم قراره بأن زيدًا ابنه يُورثه ويَرِثُهُ، وكان ذلك القرار قبل نزول التوجيه الرباني بمنع العُرف الجاهلي تبنِّي أبناء الغير، ورضيت أُسرة زيد بقرار ابنها وتركته وما اختار، فمن يا تُرى يَعاف صُحبة وخدمة الحبيب المصطفى ﷺ، بل أُبوَّته! وأصبح زيدٌ يُعرف من ذلك الوقت أنّه زيد بن محمد بن عبدالله، وحظي بشرفٍ يتمنَّاه الكثيرون، ومضت الأيام، وزيدٌ فخورٌ بنسبه الجديد، فقد صار رجلًا يُقال له: زيد بن محمد، ولكن محمدًا ﷺ بشرٌ أكرمه الله بنبوته، وخَصَّه بتبليغ رسالته، ولم يخرج من بشريته ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. ولم يكُ نبي الله عليه الصلاة والسلام يعلم أن الله سيمنع ذاك القرار، إن في هذه الحادثة تأكيدًا لنبوته ﷺ، فَلَو كان يعلم أن الأمر الإلهي سيأتي بمنع التبنِّي لما تبنَّى أُبوَّة زيد، ولما عرف المجتمع المكِّي بتلك البنوّة، ولكن جاء جِبْرِيل عليه السلام بمنع تلك الأبوَّة وتلك التسمية: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وعاد زيدٌ لاسمه زيد بن حارثة، وكأنّي بزيدٍ بعد التباهي بأبوِّة محمد ﷺ قد انكسرت نفسيَّتُه؛ ففرقٌ بين البنوَّة والعبودية. إن زيدًا بشر، وللتقاليد القبلية والطبائع البشرية أثرها النفسي، إلا أن تلك النظرة البشرية تتلاشى في ميزان الآخرة؛ فالشرف والسمو ليس بالنسب ولا الحسب؛ فأبو جهل من أكابر قريش ولم ينفعه حسبه ونسبه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأبو لهبٍ عمّ رسول الله ﷺ، وجاء القرآن بذَّمِّه ووعيده ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]. ورغب الرسول ﷺ أن يرفع من شأن زيد، ويضع حدًّا لذاك الازدراء المكّي للموالي، وأن يقضي على تلك النظرة الدونية، فطرق بيت عمّته، وخطب ابنتها زينب بنت جحش، وفرحت

العمَّة بتلك الخطبة؛ ظنًّا منها أن الزواج للرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولكن جاءها الخبر اليقين أن الزوج هو زيد بن حارثة، وتلكأت بادئ الأمر، ولكن كيف تردُّ رغبة الصادق الأمين، فوافقت الأم وابنتها على مضض، وتزوج زيد من زينب، واقترن المولى ببيت الشرف والمجد، وبأسرة الحسب والنسب، فانكسر ذاك العرف القبلي، وأصبح أصهار زيد بيت الزعامة والوجاهة، البيت الذي يتمنَّى الشبان قربهم ومصاهرتهم. واستمر الزواج بُرهةً من الزمن، ولكن الإسلام جاء لنقل البشر من الظلام إلى النور، وهدم عددٍ من التقاليد البغيضة، ومنها قرار التبنِّي الجاهلي، فأراد الله محوه وإبطاله بإجراء تطبيقي؛ إذْ لم تتفق نفوس الزوجين؛ زيد، وزينب، ولم تتحقَّق بينهما المودَّة والرحمة. وأراد سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يُعوضهما بخير من ذلك الزواج، وأن يمنحهما شرف الدنيا والآخرة، وأن يجمع لهما بين وجاهة الدنيا والآخرة، وعزِّ الدنيا ورفعة الآخرة. إن زيدًا الذي مرَّت به تلك الأحداث فمحَّصته، وكشفت عن صفائه وصدقه مع الرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جاءه الشرف السماوي بذكر اسمه في القرآن، وأخبر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عن إنعامه عليه، ولعمر الله إنَّه الشرف والبشارة التي اختصَّ الله بها زيدًا من بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. ولتأكيد إبطال التبنِّي؛ جاء التزويج الربَّاني للرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من مطلّقةِ زيد الذي سبق أن تبنّاه الرسول، وجاء القرآن بنفي تلك العادة الجاهلية وإلغائها؛ لينتهي مع ذلك العرف الجاهلي ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وكان في ذلك الزواج إسعادٌ لزينب؛ فقد أصبحت

مـن أُمهـات المؤمنين، بل أصبحـت زينب تُباهي بزواجها من رسـول الله ﷺ بأن تزويجها جاء من السماء، وأن جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو من خطبها للنبي ﷺ، وظلّت تتيه على زوجات الرسول ﷺ الأُخريات بالتزويج الإلهي لها، أمّا زيدٌ فنال الشرف العظيم، والكرم الربَّاني ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، فـالله يقرِّر من فوق سـبع سـماواته إنعامه علـى زيد، وصار اسـمه خالـدًا ضمـن كلام الله يتعبَّـد المسـلمون بقراءته إلـى أن يرث الله الأرض ومن عليها!

واسـتمر زيـدٌ قريبًـا مـن رسـول الله ﷺ، وأصبـح أمينًا لسـرِّه، وقائدًا لبعوثه وسراياه، وأحد خلفائه على المدينة المنوّرة إذا غادرها خير البشرية ﷺ. تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما بعثه رسول الله ﷺ في سَريةٍ إلا أمَّرَه عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه»[1].

فسلامٌ على زيد بن حارثة، وعلى الصحابة أجمعين.

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٠٠).

زينة المرأة

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

إن تأمل هذه الآية وتدبُّرها، خيرُ درسٍ في الحياء والأدب للفتيات المسلمات! فهذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العالم بالغرائز البشرية، فالضرب بالرِّجلِ إثارة؛ حركةٌ وإيقاع، صوتٌ وتنبيه، والنظرة تُثير، والحركة تُثير، والعيون تبعث رسائل الغرام.

إن العليم الخبير يُؤدب عباده المؤمنين، ويوجههم للطهارة؛ فالميل الفطري بين الرجل والمرأة عميق، فكل أنثى جاذبة، وتزداد جاذبيتها بإظهار الزينة والجمال؛ ولهذا يأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المرأة المسلمة أن تحذَرَ من إبداء زينتها للرجال الأجانب. إن الغرائز البشرية في الرجال نحو المرأة غالبة؛ ولهذا ينهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المرأة من إثارة شهوات الرجال الكامنة، وإن الغرائز تجذب نظرات الرجال للبحث عن محاسن المرأة، ورؤية موطن جمالها؛ فعن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أردف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفضل بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يوم النحر خلفه على عَجُزِ راحلته، وكان الفضل رجلًا وضيئًا، فوقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس يُفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها، فالتفت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل، فعدل

وجهه عن النظر إليها، فقالت: يا رسـول الله، إن فريضة الله في الحج على عباده أدركت أبي شـيخًا كبيرًا لا يسـتطيع أن يسـتوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: **نعم**»(١).

إن رسول الله ﷺ يمنع الفضل من النظر إلى المرأة الخثعمية، فليست من محارمه، وزينة المرأة ليست مباحة للجميع، فقد حدد جَلَّ وَعَلَا المسموح لهم برؤية تلك الزينة؛ إذ يقول تعالى: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ**﴾ [النور: ٣٢].

حتى القواعد من النسـاء اللاتي بَلَغنَ مـن الكِبَر عتيًّـا؛ تَجَعَّدَ الوجه، وانطـوت النضارة، وغاب الحُسـن، وفرغت الرغبة في معاشـرة الرجال، هـؤلاء القواعد حيـن أذن الله لهن بوضع ثيابهن نهاهن عن التبرج بالزينة، وكشف ما بقي لهن من جمال، وما ظلَّ فيهن من زينة، فخيرٌ لهن أن يبقين كاسـياتٍ بثيابهن الواسـعة غير متبرجـات، وذكَّرهن بأن في الاسـتعفاف خيـر؛ فالعفة هي البعـد عن عوامل الإثارة ومسـببات الفتنـة، قال تعالى: ﴿**وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٠].

وتلكـم ابنتَـي نبـيِّ الله شـعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تـذودان وتـردَّان رِعاهـم عـن الشراب، ويقترب نبيُّ الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منهنَّ، ويسأل: لِمَ تحجزان الرعاء

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٥٩٠ رقم ١٥١٣)، ومسلم (٢/ ٩٧٣ رقم ١٣٣٤).

عن السُّـقيا؟ فيخبران موسى أنَّه الحذر من مخالطة الرجال! وأن والدهما شـيخ كبير أقعده العجز؛ أي لو كان لهما رجل لما جاءتا للسُّـقيا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

امرأتان تَرُدَّانِ ماشيتهما عن الماء؛ حذرًا من مخالطة الرجال، وانتظارًا لانتهائهـم مـن السُّـقيا، وحين تعود البنتـان إلى والدهما نبيِّ الله شـعيب، وتَقُصّان عليه ما عمله موسـى، يأمر إحداهما بالعودة، واسـتدعاء موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكنهـا تعـود والحيـاء يغلبها؛ سـترٌ وعفـاف ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]. ومعلومٌ أنها حين جاءت إلى موسى كانت ماشية أو راكبة، لكن لأن الحياء والسـتر يغلبها؛ وردت كلمة (تمشي) أي ماشية على استحياء. وإن وقف القارئ عند كلمة تمشـي كان الاستحياء في قولها ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، وحياء المرأة وسـترها يتبدى أكثر وأكثر في مشـيها وفي نُطقها، ولقد ورد التعبير القرآني ليؤكد سجيَّة وأخلاق ابنتَي شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الستر والحياء. فبَينَ مخالطة ومزاحمة الرجال في السّـقيا، وحيـن عادت إحداهما كان التعبير بـ (تمشي) على استحياء؛ لتأكيد الستر وإخفاء الزينة.

ذاك منهـج القـدوات، وطريـق الفضيلـة؛ فاحـذري أختـاه مـن دعاة السـفور، وذئاب البشـر. كانت المرأة تأتي إلى الإمـام أبي حنيفة النعمان -شـيخ الأحناف- تسـأله في قضية أو تستفتيه في شـأن من شؤون دينها، فيتـرك مكانه في الجلسـة العلمية بالمسـجد، ويتجه إليهـا حيث تحتجب خلف إحدى سـاريات المسـجد، ثم لا يلبث أن يعود إلى مكانه العلمي،

ويذكر للرجال الجالسين ما جرى من سؤال المرأة وجوابه عليها، وهو لا يعرف من تلك السائلة إلا أنَّها طالبة علمٍ من بنات المسلمين. إن الإمام يُعلِّم تلامذته ومستمعيه آداب معاملة النساء، فيقول لهم: إنه ذهب إليها بعيدًا؛ لكي يعصمها من نظرات الفضول، ويُحصِّنها من أحداق الرجال. هذا هو أبو حنيفة يعلم أن طلابه ومريديه في المسجد، وللمسجد حشمتُه وطمأنينتُه، ومع ذلك، يخشى على السائلات من نظرات الرجال الجالسين! إنها الحيطة والحذر.

وموقف آخر يُجسِّد حالة المرأة في الإسلام، وكيف كان الأوائل يتعاملون مع المرأة في عصورهم الزاهية. فقد عاش الإمام أبو حنيفة في العصرين الأموي والعباسي، وكانت له مهابةٌ ومكانةٌ عند العامة والخاصة، وقد كانت بينه وبين الخليفة العباسي المنصور جفوةٌ وقطيعة؛ فقد حبسه المنصور، ثم أخرجه من السجن، وأقام عليه حصارًا أو ما يُشبه الحصار، ومنعه من الفتوى، ومع ذلك يلجأ إليه الخليفة.

ذات مرَّة وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته الحرَّة لأمرٍ يتصل بالعلاقات بينهما بوصفهما زوجين، فطلبت الحرَّة الانتصاف لحقِّها، فسألها المنصور عمَّن ترضى من الفقهاء لكي يكون حكمًا بينهما، فاختارت أبا حنيفة حكمًا، وأرسل المنصور إلى الإمام يستحضره، فجاء أبو حنيفة، والتقى بالخليفة وزوجته الحُرّة. وهنا تتجلى حالة المرأة في تلك العصور الإسلامية الوضاءة، ففي قصر الخليفة، وللقصر والسلطان مهابة، ومع شيخ الفقهاء، وللعلم وقارُه، ومع ذلك تجلس زوجة الخليفة خلف ستار يحجب الرؤية، ويُسْمَع الصوت، ويدور الحوار؛

قال المنصـور: يا أبـا حنيفـة؛ الحـرَّة خلف السـتارة تسـمعنا تخاصمني، فأنصفنـي منهـا، فقال أبو حنيفة: ليتكلـم أمير المؤمنين، فقـال المنصور: يا أبا حنيفـة، كم يحـلُّ للرجل أن يتزوج من النسـاء، فيجمـع بينهن؟ قال أبوحنيفة: أربع. قال المنصور: وكم يحلُّ له من الإماء؟ قال: أبوحنيفة: له ما يشاء. ليس لهنَّ عدد. قال المنصور: وهل يجوز لأحدٍ أن يقول خلاف ذلك؟ قـال أبوحنيفة: لا. فقال المنصور لزوجته الحرّة: قد سـمعت قول الشيخ. وقبل أن تتكلَّم الحرّة أسرع الشيخ لكي يُكمل الفتوى؛ فالمنصور بدهائه، وجَّه إلى الإمام أسـئلة لا تُشـكِّل الإجابات عليها الحلَّ الشـرعي للقضيـة. قال أبوحنيفة للمنصور مكملًا فتواه وموضِّحًا الحكم الشـرعي فـي التَّعدّد: إنمـا أحلَّ الله هذا لأهـل العدل؛ فمن لم يعـدل، أو خاف ألا يعـدل، فينبغـي ألا يُجـاوز واحـدة، ويُتبـع أبو حنيفة الحكم بتـلاوة الآية القرآنية ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ويمضـي أبوحنيفـة موجِّهًـا الحديث إلـى المنصور، قائـلًا: ينبغي لنا أن نتأدب بأدب الله، ونتعظ بمواعظه. فسـكت المنصور، وطال سـكوته. فانصرف أبو حنيفة.

إن الـدارس والمُتأمِّـل للقـرآن الكريـم يجـد تلك الآيـات الواضحة الدلالة، التي تحثُّ المرأة على صَوْنِ زينتها، وستر جمالها، فحتَّى تحريك رجلهـا؛ للفـت الأنظار إلى معاينـة زينتها ينهاها الله عنـه! فكيف باللواتي يصبغن حواجبهن، ويسرحن شعورهن، ويخرجن سافرات عن حسنهنَّ؛ أين هنَّ من هذه الآية الكريمة! ربَّنا لا تُؤاخذنا بما فعل السفهاء منَّا.

سَنُريهم آياتِنا

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وردت هذه الآية في سورة فصلت، وجاء قبلها قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

هو الإنسان في هذا الزمان كما كان في زمان نزول هذه الآيات، في أيام النعمة والرخاء والصحة والعافية، والثروة والغناء ينسى ربه، وفي أيام الشدة والمرض يذكر ربه.

إن هذه الآية الكريمة وإن نزلت قبل نيف وأربعة عشر قرنًا، نراها اليوم واقعًا يتحقق، إن ما حدث فيما مضى من آيات كونية ومعجزات ربانية، نشاهده اليوم في أحداث تقع، وتقف أمامها البشرية عاجزة، لكن ماذا قال العلماء الأوائل عند تفسيرهم لهذه الآية؟ قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: نُظْهِرُها لهم حتى يروها بأعينهم، أو حتى يروها ببصائرهم. ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الآيات جمع آية، وهي في اللغة العلامة، والمراد بآيات الله علاماته الدالة على كمال علمه وحكمته وقُدْرته، وغير ذلك من مقتضيات ربوبيته. واعلم أنَّ آيات الله تعالى نوعان: آياتٌ شرعية؛ وهي ما جاءت به الرسل، ومنها هذا القرآن الكريم،

وآيـات كونية؛ وهي الدالة علـى كمال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في العلم والخلق، وكلِّ ما يتعلـق بربوبيته، وهي ما يعجز البشـر عن مثله، فالبشـر كلهم عاجزون عن أن يخلقوا أرضًا، أو سماءً، أو نجومًا، أو شمسًا، أو قمرًا.

وقولـه تعالـى: ﴿فِي ٱلْأَفَاقِ﴾ الآفاق جمع أُفُق، وهـو الناحية، والآفاق هنـا جمـع، فتدل علـى أنَّ هذه الآيات سـتكون في كلِّ ناحية من السـماء والأرض، ففي السـماء نجوم، في السـماء شـمس، في السـماء قمر، فيها مشـارق، فيهـا مغارب، كل هذه مـن آيات الله، من يسـتطيع أن يخلق مثل الشـمس؟ لا أحد، مَن يسـتطيع أن يُجرِيَها بهذا الانتظام البديع منذ خلقها الله عَزَّوَجَلَّ إلى أن يأذن الله بخراب العالم؟ لا أحد يسـتطيع، مَن يسـتطيع أن يُزَحْزِحَها من مشـارقها الشرقية الشـمالية إلى مشارقها الشرقية الجنوبية؟ لا أحد، وهلم جرًّا، هذا في آفاق السماء.

من آفاق السـماء ما يحصل من الأمطار الغزيـرة أو الخفيفة، والرعد، والبـرق، وغير ذلـك، المهم أنَّ آفاق السـماء كلُّ ما عَـلَا، كلُّ ما علا فإنَّه داخل في آفاق السماء.

كذلك أيضًا آفاق الأرض؛ آفاق الأرض فيها من آيات الله عَزَّوَجَلَّ ما يدل على كمال علمه وقدرته وحكمته ورحمته؛ جبال، وأنهار، وبحار، فيافي، أودية، هضاب، إلى غير ذلك، نباتات مختلفة، تجد النبات كأنه رُقعة ثوب مُوَشَّى، هذا أخضر، وهذا بنفسجي وهذا أبيض، وزهورها مختلفة، وثمارها مختلفة، تُسقَى بماء واحد، ويُفَضِّلُ الله بعضها على بعض في الأُكُل.

كذلـك أيضًا يدخل فـي قوله: ﴿فِي ٱلْأَفَاقِ﴾ ما يحصل فـي الآفاق من حـرْب وسِـلْم، وأمـن وخوف، وشـدة ورخـاء، كل هذا من آيـات الله في

الآفـاق، كذلـك ما يحصل من غلبـة وانهزام، وغير هذا، فـالله تعالى وعَد بأن يُرِي العباد آياته في الآفاق، أفهمتم الآن؟

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يعنـي: ونُريهـم آياتنـا فـي أنفسـهم، وذلـك مـن نواحٍ متعددة؛ أوَّلًا: من جهة الخِلْقَة؛ كيف خلق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الآدمي على هذه الصفة البديعة الغريبة، التي لا يوجد من الحيوانات ما هو مثله في حُسْـن القامة وحُسْن التدبير والعقْل، وغير ذلك.

كذلـك أيضًـا من آيـات الله في الإنسـان تركيـب هذا البـدن العجيب البديع، واسأَلْ أهل التشريح عن هذا تجد العجب العجاب، إن أتَيْت إلى الرأس، وما فيه من المخ وما فيه من الأدوات، وإذا أتيت إلى الأمعاء، وإلى المعـدة، وإلى الكبد، وإلى الغُـدَد، وإلى غيرها، تجـد العجب العجاب، يعني أنَّه دولة في الواقع، كلّ شـيء منه له عمله الخاص، مَن يسـتطيع أن يُرَكِّب هذا؟ إنه الله عَزَّوَجَلَّ.

ومما قاله الشـيخ الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسـيره لهذه الآية: السين في ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ تفيد الاستقبال؛ لذلك ستظل هذه الكلمة لها موضع إلى يوم القيامة، ستظل صادقة في كل زمان. ويقول عطاء هذه الكلمة ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ ممتدٌ في الزمان كله، وكل يوم نشـاهد جديدًا، وآية، وعجيبة من عجائب الخلق، في الآفاق وفي الأنفس.

رحم الله الشـيخ كأنه حاضرٌ يرى العالم، يصيح حول وباء كورونا في هذا العام (١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م) وكيف يفتك بالبشر، لقد عمَّ الوباء الآفاق، فوُجد في كل دولة، أصاب السكان في جميع دول العالم، وانشغلت كل

دولة بنفسها، وانسجن الناس في بيوتهم مسلمهم وكافرهم، ونال الداء قوى العلم والمال، فعرفوا عجزهم وخورهم، أي والله رأى البشر آية من آياته ومعجزة من معجزاته، فذكروا الله؛ فتلكم دولة إيطاليا لما كثرت الإصابات وزاد الموت، كل يوم تطالعنا الأخبار بوفاة مئات الإيطاليين، فقالوا: لم يبق لنا إلا السماء.

إن ما أصاب الإنسان في هذا الزمان، يُذكرنا بهذه الآية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيروس صغير لا يُرى، أرعب الكرة الأرضية، أُغلقت المساجد، ما سبق أن سمعنا المؤذنين ينادون الفروض الخمسة: (صلوا في رحالكم)، وتعطلت الأعمال، وتوقف السفر، وأُغلقت الحدود، وصار النداء والترجي أن الشفاء هو في العزل والحجر والبقاء في المنازل، وتذكر المتذكرون ما سبق أن نطق به رسولنا ﷺ: عن عبدالرحمن بن عوف أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ رضي الله عنه خَرَجَ إلى الشَّأْمِ، فَلَمّا جاءَ بسَرْغَ، بَلَغَهُ أنَّ الوَباءَ وقَعَ بالشَّأْمِ، فأخْبَرَهُ عبدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إذا سَمِعْتُمْ به بأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وقَعَ بأَرْضٍ وأَنْتُمْ بها فلا تَخْرُجُوا فِرارًا منه**. فَرَجَعَ عُمَرُ مِن سَرْغَ»[1].

كتبت صحف الغرب عن رسول الله ﷺ وعن هذا الحديث، جاء في صحيفة نيوزويك (Newsweek) الأمريكية تقريرٌ نُشر في الـ١٧ من مارس/ آذار الجاري ٢٠٢٠م، قال فيه كاتب التقرير الطبيب كريغ كونسيدين: «يقول خبراء المناعة: إن نظافة شخصية جيدة، وحجرًا صحيًّا هي أفضل الوسائل لتطويق كوفيد-١٩».

---

(١) أخرجه البخاري (١٧/ ٤١٢ رقم ٦٩٧٣)، ومسلم (٤/ ١٧٤٠ رقم ٢٢١٩).

وجـاء فـي التقريـر: هل تعـرف من الـذي اقتـرح النظافة الشـخصية والحجر الصحي في أثناء الوباء؟ إنه محمد نبي الإسلام قبل ١٤٠٠ عام. لـم يكن أبدًا خبيرًا في مسـائل الأمراض الفتاكـة، إلا أن محمدًا كان لديه نصيحـة رائعـة لمنع ومكافحـة تطور وباء مثـل فيروس كورونـا الجديد، أو ما بات يعرف باسم (كوفيد-١٩).

وأضاف التقرير: «محمد قال: إذا ما سـمعتم بانتشار الطاعون بأرض ما فـلا تدخلوهـا، أمـا إذا انتشـر الطاعون في مـكان خلال وجـودك فيه، فلا تغـادر هذا المـكان...، وقال أيضًا: المصابون بأمـراض معدية يجب إبقاؤهـم بعيـدًا عن الآخريـن الأصحاء». وألقـى التقرير الضـوء على أن «النبي محمدًا أيضًا شجع بقوةٍ البشر على الالتزام بالنظافة الشخصية التي ستبقي الناس في مأمن من العدوى».

حقًّـا هو كتاب الله تبياناً لكل شـيء، وحقًّا هو رسـول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى.

إن هذه الآية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ إخبارٌ قبل قرون، وإشعارٌ عن المستقبل، وما سيقع فيه من آياتٍ كونية، تدلُّ على القُدرة الربانية والضعف البشري، فهـا هـو العالم اليوم يتصاغر أمـام آيةٍ من آيات الله؛ أمـام فيروس لا يُرى بالعيـن المجـردة؛ آيةٌ كسـرت جبروته، وأذلـت كبرياءه، آيـةٌ عمَّت آفاق الكرة الأرضية، وأصابت أجساد البشر! وتبين للعالم أن ما جاء في كتاب الله حق، وما نطق به رسـول الله ﷺ حق! فلله الحمد والمنة على نعمة الإسلام.

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

مـن إصـداراتنـا

لخدمات البيع والتوصيل
سوق - إحدى شركات amazon
رواق
نون noon

كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazon kindle

كتبنا الصوتية
دار ضاد للنشر الإلكتروني - Dhad Audio Publishing - www.dhad.sa
Kitab Sawti - www.kitabsawti.com
storytel

Follow Us
obeikn reader
obeikanpub

الشرف الربَّاني

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧١-٧٦].

هي إرادة الله وحكمته أن خلقَ أبانا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فكرمه، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وحسده إبليس على هذا التكريم، فكان الصراع بين الحق والباطل، وكانت المشيئة الربانية أن وهب اللهُ الإنسانَ ملكة الاختيار بين الخير والشر، بين طريق الرحمن وطريق الشيطان ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

هذه المَلَكة الاختيارية باقيةٌ في يد الإنسان، طالما بقيت فيه الحياة والروح، وهي تكريمٌ وإعلاءٌ للإنسان، يختار بعقله بين الخير والشر، بين الفضيلة والرذيلة.

وبتلك النفخة كان أبونا آدم، وكُنّا نحن من بعده المستخلفين في الأرض ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]. وسخر وذلَّل لهذا الخليفة وذريته الكثير ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

ومن تشريف الله للإنسان وتكريمه أن أنعم عليه بهذا القرآن الخالد الذي يقص فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا التكريم، ويخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه بعداوة إبليس واعتراضه على التكريم الإلهي لأبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويعرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه حواره مع إبليس، وكيف رفض السجود لأبينا آدم، وغَضَب الله عليه، ولَعْنُهُ له، وطَرْدهُ من الجنة، ووعيده له بالعذاب.

إن هذا التشريف ورد في القرآن الكريم، وما جاء في القرآن حقٌّ وصدق، فلله الحمد على نعمة القرآن، وله الحمد أن أخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الشرف، لنزداد قُربًا منه، وحذرًا من إبليس وغوايته، ونحمد الله على نعمة الإسلام والإيمان ومائدة القرآن وما فيها من خيرٍ وبركة، رزقنا الله تدبره وتأمله.

رفقًا، رفقًا أيها الإنسان، انظر لذاتك وصورتك وكيف كُنت بهذا الشكل القويم مُنتصبًا تمشي على رجلين (خلقك الله في أحسن تقويم)، وكرمك أن نفخ فيك من روحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذاك لعمر الله هو الشرف والسُّمُو!

وتتعدد الآيات القرآنية التي تُوضحُ شرفكَ أيها الإنسان! وكيف حسدك إبليس على هذا الشرف، وهذا التكريم، فأبى السجود ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ

﴿ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٧٥- ٨٥].

في ذاك الحوار يُقرر سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنه خلق آدم بيديه، وذاك الشرف والكرامة، وفيه يتضح حسد إبليس وحقده علي أبينا آدم وذريته من بعده، فعصى أمرَ الله ورفض السجود، فلنحذره كل الحذر. إن إبليس تكبر وافتخر بكون خلقه من النار والعياذُ بالله منها، وزاد تكبُّرُه أن احتقرَ آدم أن خلقهُ اللهُ من طين، واللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أعلمُ بخلقهِ، فهو الذي يُقررُ الأفضليةِ والكرامةِ، وفي ذلك الحوار يبين سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ غضبَهُ على إبليس، فجعله رجيمًا، أي موضعَ الرجمِ والرمي، ولعنه وطرده من رحمته، فلنجعل إبليس كما كتبَ اللهُ وفرض، لنجعله مرجومًا ملعونًا، ولنحذر غوايته والسيرَ في ركابه. لعنهُ الله، وأعاذنا من همزاته ووقانا حضوره وتضليله ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، وفي ذاك الحوار يطلبُ إبليسُ من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إمهاله حتى يوم البعث، ولكن اللهَ يمهله إلى الوقت الذي حدده سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لا ما طلبه -لعنه الله-، وفي ذاك الحوار؛ يقسم إبليس -كفانا الله شره- على غوايتنا، ويعلمُ -لعنهُ اللهُ- أن اللهَ سيعصمُ منه آخرين. يقول الشيخ ابن سعدي في تفسيره: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ علِمَ أن الله سيحفظهم من كيده. ويُحْتَمَلُ أن الباء للاستعانة، وأنه لما علِم أنه عاجزٌ من كل وجه، وأنه لا يُضِلُّ أحدًا إلا بمشيئةِ الله تعالى، فاستعان بعزةِ الله على إغواءِ ذريةِ آدم هذا، وهو عدو الله حقًّا. ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية مَنْ شرفتهُ وكرمتهُ، فنستعينُ بعزتكَ العظيمة، وقدرتك، ورحمتكَ الواسعة لكل مخلوق، ورحمتكَ التي أوصلت إلينا

بهـا ما أوصلت مـن النعمِ الدينيـةِ والدنيوية، وصرفت بهـا عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربته وعداوته، والسـلامة من شـره وشِـركِهِ، ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدِك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الإسراء: ١٩٤].

وأقول: تفكر أيها الإنسان في نفسك، تخرجُ من رحمِ أمك ولك سمع وبصـر وفؤاد، ولـو جئت إلى الدنيا وأنـت فاقد هذه النعم كيف سـتكون حياتك! فهلا شكرت الله وعبدته حق العبادة.

وفي سـورة السـجدة جـاء خبـر المنَّـة الربانية علـى كل إنسـان يقول تعالـى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

يقـول فخـر الدين الرازي: وقَوْلُـهُ تَعالـى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ إضافَةُ الرُّوحِ إلى نَفْسِهِ كَإضافَةِ البَيْتِ إلَيْهِ لِلتَّشْرِيفِ، واعْلَمْ أنَّ النَّصارى يَفْتَرُونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ ويَقُولُونَ بِأنَّ عِيسـى كانَ رُوحَ الله، فَهو ابْنٌ، ولا يَعْلَمُونَ أنَّ كُلَّ أحَدٍ رُوحُهُ رُوحُ الله بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أيِ الرُّوحِ الَّتِي هي مِلْكُهُ كَما يَقُولُ القائِلُ: دارِي وعَبْدِي.

وقال الشـوكاني في تفسـيره لهذه الآيـة: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ الإضافَةُ لِلتَّشْرِيفِ والتَّكْرِيمِ.

أيها الإنسان، استَحْضِر عظمة الله وضعفك، وتذكَّر وقوفك بين يديه، تذكر يوم القيامة، تذكر يوم الدين، تذكر يوم الآزفة، تذكر يوم التغابن، تذكر

يوم الجمع، تذكر حالتك وقد التفَّت الساق بالساق، فهناك انتهت مرحلة الابتلاء والامتحان، مرحلة الحرية والاختيار، مرحلة الحساب والسؤال، مرحلة العمل والإمهال، هناك تقرأ كتابك ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. إن استحضارك لكل تلك المشاهد داعٍ للعمل وزاجرٌ عن الغي ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

مما يُروى عن الحسن البصري: «كان الرجل ممَّن كان قبلكم يصوم، فإذا كان عند فِطره مرَّ على بعض إخوانه، فيقول: صُمتُ هذا اليوم لله، وأردتُ أن يقبله الله منِّي أن يكون لك فيه حظٌّ فهلمَّ شيئًا من عشائك، فيأتيه الآخَرُ بما تيسر من ماءٍ وتمر، فيُفطر عنده يبتغي أن يُكسبه أجرًا، وإن كان غنيًّا عن الذين عنده»[(١)].

وعنه أيضًا: «كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُوقد النار ثم يُدني منها يده ويقول: انظر يا ابن الخطاب، كيف صبرك على النار؟ وهل لك قدرةٌ على سخط الجبار؟ ثم يستعيذ بالله من النار، ومن عمل أهل النار. ثم يقول الحسن: إن كان هذا خوف عمر -رضوان الله عليه- وهو ممن شُهد له بالجنة، فكيف أيها الناس تأمنون؟!»[(٢)]

يُروى أن دموع عبدالله بن عمر بن الخطاب كانت تهطل كُلما سمع آيات النذر في القرآن، يقول عبيد بن عمر: قرأت يومًا على عبدالله بن عمر

(١) الحسن البصري إمام الزاهدين، أحمد بن فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٧١م: (ص١٨٠).
(٢) الحسن البصري إمام الزاهدين: (١٧٩).

هذه الآيـة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١-٤٢]. يقـول عبيد: فجعل ابن عمر يبكي، حتـى نديت لحيته من دموعـه. وجلـس يومًا بيـن إخوانه، فقـرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففيـن: ١-٦]. ثـم مضى ابن عمر يردِّد الآية ﴿... يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يردِّدها ودموعه تسيل كالمطر... حتى وقع من كثرة وَجْدِه وبكائه![1].

وروى عاصم بـن أبي بكر بـن عبدالعزيز بـن مـروان عـن ابـن عمِّـه عبدالملـك ابـن الخليفة عمر بـن عبدالعزيز قال: «وفدتُ على (دمشـق) فنزلتُ على ابن عمِّي عبدالملك وهو عَزَبٌ فصلَّينا العشاء، وأوى كلٌّ منَّا إلى فراشه. فقام عبدالملك إلى المصباح فأطفأه، وأسلم كلٌّ منا جفنيه إلى الكرى[2]، ثم إني استيقظتُ في جـوف الليل، فإذا عبدالملك قائمٌ يصلي في العتمـة، وهو يقرأ قولـه جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، فمـا راعنـي منـه إلا أنـه كان يُردِّد الآية، ويَنشِـج نشـيجًا مكبوتًا؛ يقطع نيـاط القلوب، وكان كلَّما فرغ من الآية عاد إليها، حتى قلتُ: سـيقتله البكاء. فلما رأيت ذلك قلتُ: لا إله إلا الله والحمد لله، كما يفعل المستيقظ من النوم؛ لأقطع عليه البكاء، فلما سمعني سكتَ فما أسمع له حِسًّا»[3].

(١) رجال حول الرسول: (٦٧).
(٢) الكرى: النعاس.
(٣) صور من حياة التابعين: (١/ ٩١، ٩٢).

رجـالٌ عرفوا الله فَلانَت قلوبهم، وخشـعت كل خليـةٍ فيهم، واهتزوا لوعد الله ووعيده، رجالٌ أيقنوا بالآخرة والحساب، وبالشرف الرباني لهم أن جعلهـم الله مسـتخلفين في أرضه ولعبادته، فأعملـوا عقولهم، وأيقنوا أن الحيـاة الدنيا دار ابتـلاء وامتحان ليتمايز الخلق؛ فمنهم شـقيٌّ، ومنهم سـعيد؛ قال تعالـى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

شعائر الله

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

في هذه الآية الكريم يربط سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين تعظيم شعائره وتقواه، وتتحقَّق تقواه بطاعته، واجتناب نواهيه، وتنفيذ أوامره، والأخذ بما ندب إليه، قولًا باللسان، وعملًا بالجوارح، ويقينًا بالقلب، وليس التعظيم شعورًا نفسيًّا، ولكنه تطبيقٌ عمليٌّ وتنفيذٌ بشوق وطُمأنينة. يقول شيخ المفسرين ابن كثير: «هذا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: أَوَامِرَهُ، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، وَمِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ الْهَدَايَا وَالْبُدْنِ، كَمَا قَالَ الْحَكَمُ، عَنْ مقْسَم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَعْظِيمُهَا: اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا»[1].

ويقول الشيخ ابن سعدي: «والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلُّها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ومنها الهدايا والقربان للبيت. وقال: تعظيمها: إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا؛ فتعظيمها، باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكمَّلة من كلِّ وجه؛ فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمُعَظِّم لها يُبَرْهِنُ على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها، تابع لتعظيم الله وإجلاله»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي: (ص٥٣٨).

وقال الشيخ الشعراوي: «تعظيم الشيء أبلغ من فعله، أو أدائه، أو عمله، عظَّمَ الشعائرَ يعني: أدَّاها بحُبٍّ وعشق وإخلاص، وجاء بها على الوجه الأكمل، وربما زاد على ما طُلِب منه، ومثالنا في ذلك: خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أمره الله أن يرفع قواعد البيت: كان يكفيه أن يبني على قدْرِ ما تطول يده، وبذلك يكون قد أدَّى ما أُمر به، لكنه عشق هذا التكليف وأحبَّه فاحتال للأمر، ووضع حجرًا على حجر ليقف عليه، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه».

ويقول الشعراوي عن فاطمة الزهراء: «وابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تجلو الدرهم وتُلمِّعه، فلما سألها رسول الله عما تفعل، قالت: لأنني نويتُ أن أتصدَّق به، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير. هذا هو التعظيم لشعائر الله، والقيام بها عن رغبةٍ وحُب.

وفي عصور الإسلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسبقهم إلى صلاة الجماعة حين يسمع النداء، وبآخرهم خروجًا من المسجد بعد أداء الصلاة، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم، هؤلاء قومٌ عظَّموا شعائر الله فلم يُقدِّموا عليها شيئًا»(١).

يُروى عن الإمام أبي حنيفة أنه حين يصلِّي يحرص أن يؤدِّي الصلاة وهو في أتمِّ زينة، مرتديًا أجمل الثياب وأغلاها، ويتعطَّر ويُسرح لحيته، فلما قيل له: إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطانًا أو اجتمعوا في محفلٍ كبير، قال: التزيّن لله عَزَّوَجَلَّ أولى من التزين للناس»(٢).

---

(١) تفسير الشعراوي: (١٦/ ٩٨٠٨-٩٨١٠).

(٢) انظر: الأئمة الأربعة: مصطفى الشكعة، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، ط٣، ١٤٤١هـ-١٩٩١م، (ص٨٢).

ومن تعظيم شعائر الله هذه القصة التي تُروى عن الشيخ الجليل الدكتور جعفر شيخ إدريس، يقول: «زرتُ في كندا مركزًا إسلاميًّا، فرأيتُ شابًّا مسلمًا حديثَ الدخولِ في الإسلامِ، لا تفوتُهُ صلاةٌ مفروضةٌ في المركز لا شتاءً ولا صيفًا، ويأتي على درَّاجةٍ ناريَّةٍ من مكانٍ بعيدٍ، يستغرقُ مسيرُهُ إليه نحو نصف ساعة، وكان في جماعة المركز مَنْ يُشفقُ عليه من أنْ يشقَّ على نفسه بشهودِ كلِّ الصلوات في المركز (الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء)، وأخبروني أنّهم عجزوا عن إقناعه بألا يشقَّ على نفسه، وطلبوا منِّي أنْ أنصحَهُ بذلك...

يقول الدكتور جعفر: فلمَّا كلَّمتُهُ في ذلك، قال لي: أليسَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾؟

قلتُ له: بلى.

قال الشابُّ: أنا أريدُ أنْ أكونَ ممَّنْ يُعظِّمُ شعائرَ اللهِ؛ لعلَّ اللهَ أنْ يُثبِّتَ التقوى في قلبي.

يقول الشيخ جعفر: فواللهِ ما عرفتُ ما أقولُ له بعد أنْ سمعتُ قولَهُ هذا؛ فقد نبَّهني إلى معنًى في هذه الآية، لم أتنبَّهْ له من قبلُ، ولم يخطرْ يومًا من الأيام ببالي، وأنا أذهبُ إلى المسجد خمسَ مرَّاتٍ في اليوم والليلة، أنْ أحتسبَ ذهابي إلى المسجد تعظيمًا لهذه الشعيرة العظيمة من شعائر الله طلبًا لتثبيت التقوى في القلب.

وختمَ الدكتور جعفر حديثه قائلًا: وبعدَ أنْ سمعتُ كلامه سألتُ اللهَ له التثبيتَ، وطلبتُ من جماعة المسجد أن يتركوه ورغبتَهُ العظيمةَ وأنْ يدعوا له»(١).

(١) روى لي تلك القصة الشيخ الدكتور صالح العايد حفظه الله.

وبعد، فإن كثيرًا من المُصلين لا يُعظِّمون شعيرة الصلاة؛ إذ نرى عددًا منهم يأتي إلى المسجد بملابس بالية، وحالةٍ رَثَّة. لقد أوجبَ الله عَزَّوَجَلَّ الوضوء للصلاة، والوضوء نظافةٌ وطهارة وتعظيم وتقديس لهذه الشعيرة العظيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦]؛ إنه أمرٌ ربَّاني بغسل الوجه والأيدي والأرجل، والأماكن التي أوجب الله غسلها هي الأطراف الأسرع عرضةً للأذى والقذارة. وجاءت آيةٌ أخرى تأمر المسلم بأخذ زينته عند كل مسجد ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، كل هذا تعظيمٌ لشعيرة الصلاة.

لقد رانَ على قلوب كثير من البشر الغفلة عن تعظيم شعائر الله التي أمرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتعظيمها، والتعظيم صفةٌ خاصة بذوي القلوب الوجلة، وسمةٌ لأهل القلوب المستشعرة لقاءه جَلَّجَلَالُهُ ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾، يقول الشعراوي: «ليست من تقوى الجوارح، بل تقوى قلبٍ لا تقوى قالب؛ فالقلب هو محل نظر الله إليك، محل قياس تعظيمك لشعائر الله، وسبق أن ذكرنا أن الله لا يريد أن يُخضِع قوالبنا، وإنما يريد أن يخضع قلوبنا، ولو أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تخضع القوالب لخضعت له راغمة»(١).

وذاك يوم الجمعة، يومٌ فضيل، يومٌ ذكَرهُ اللهُ في القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

(١) تفسير الشعراوي: (١٦/ ٩٨١٠).

يومٌ يغفلُ كثيرٌ من الناسِ عن تعظيمهِ؛ فتراهم يأتون للمساجد بملابس رثَّة، ويتأخرون حتى يدخل الخطيب.

ذكر الزمخشري في تفسيره: أن الطرقات كانت في أيام السلف، تغُصُّ وقت السحر وبعد الفجر بالمبكرين يمشون بالسُّرُجِ.

وعن ابن مسعود أنه بكَّر، فرأى ثلاثة نفرٍ سبقوه، فاغتم وأخذ يُعاتبُ نفسهُ يقول: رابعُ أربعةٍ وما رابعُ أربعةٍ ببعيد.

إن شأن يوم الجمعة عظيم عظَّمه القرآن الكريم ﴿**إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ**﴾ وعظَّمته السنة النبوية، وردت أحاديث متعددة عن يوم الجمعة، وأفضليته وتعظيمه.

فمن تعظيمهِ؛ الغُسلُ، وارتداءُ أحسن الملابسِ وأجملها، والطيب، والسواك، والتكبير، والإنصات الى الخطيب.

عن سلمان الفارسي قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يومَ الجُمُعَةِ، ويَتَطَهَّرُ ما اسْتَطَاعَ مِن طُهْرٍ، ويَدَّهِنُ مِن دُهْنِهِ، أوْ يَمَسُّ مِن طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فلا يُفَرِّقُ بيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي ما كُتِبَ له، ثُمَّ يُنْصِتُ إذَا تَكَلَّمَ الإمَامُ، إلَّا غُفِرَ له ما بيْنَهُ وبيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى**»(١).

أحاديث متكررة حول يوم الجمعة وتعظيمه، إنه شعيرة تتكرر علينا كل أسبوع، وينسى الكثير منا فضل تلك الشعيرة العظيمة، فالغسل، الغسل، تواترت الأحاديث النادبة إليه، وذاك تعظيم لتلك الشعيرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٤ رقم ٨٨٣).

عـن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنِ اغْتَسَـلَ يومَ الجُمُعَـةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُـمَّ رَاحَ، فكَأَنَّما قَـرَّبَ بَدَنَةً، ومَن رَاحَ في السَّـاعَةِ الثَّانِيَةِ، فكَأَنَّما قَرَّبَ بقَرَةً، ومَن رَاحَ في السَّـاعَةِ الثَّالِثَةِ، فكَأَنَّما قَرَّبَ كَبْشًـا أقْـرَنَ، ومَـن رَاحَ في السَّـاعَةِ الرَّابِعَـةِ، فكَأَنَّما قَرَّبَ دَجَاجَـةً، ومَن رَاحَ في السَّـاعَةِ الخَامِسَـةِ، فكَأَنَّما قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»(١).

عن أبي سَـعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسـولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**غُسْـلُ يومَ الجُمُعةِ واجبٌ على كلِّ محتلمٍ**»(٢).

إن شـأن يوم الجمعة عظيم، اسـتحضر الملائكة وهم وقوف بأبواب المساجد يُسجلون حضورك أين سيكون اسمك في القائمة!

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذَا كانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ وقَفَتِ المَلَائِكَةُ علَى بَابِ المَسْـجِدِ يَكْتُبُـونَ الأوَّلَ فَالأوَّلَ، ومَثَلُ المُهَجِّرِ كَمَثَـلِ الذي يُهْـدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَبْشًـا، ثُمَّ دَجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ، ويَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»(٣).

ومن تعظيم يوم الجمعة أن فيهِ ساعة استجابةٍ، علينا تحريها وانتظارها كل أسـبوع، ونُلح فيها بالدعاء والرجاء، فالله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافـر: ٦٠]. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٢ رقم ٨٨١)، ومسلم (٢/ ٥٨٢ رقم ٨٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٦٩ رقم ٨٥٨)، ومسلم (٢/ ٥٨٠ رقم ٨٤٦).
(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٣٤٢ رقم ٩٢٩).

يوم الجمعة فقال: «**فيه سَاعَةٌ، لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهو يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شيئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**»[1].

ومن تعظيم يوم الجمعة الإكثار من الصلاة والسلام على حبيبنا وسيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحتى فجر الجمعة وردت أفضليته وتعظيمه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَقْرَأُ في الفَجْرِ يومَ الجُمُعَةِ: ﴿**الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ**﴾، وَ﴿**هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ**﴾[2].

جعلنا الله ممن خضعت قلوبهم؛ فعظموا شعائره، وأدَّوا فرائضه.

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٣٤٨ رقم ٩٣٥)، ومسلم (٢/ ٥٨٣ رقم ٨٥٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٣٠٣ رقم ٨٩١)، ومسلم (٢/ ٥٩٩ رقم ٨٧٩).

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

إحدى شركات

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

مـن إصـداراتنـا

لخدمات البيع والتوصيل
سوق
رواق
نون noon

كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazon kindle

كتبنا الصوتية
Dhad Audio Publishing
Kitab Sawti
storytel

Follow Us
obeikn reader
obeikanpub

الصالحات

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

كلماتٌ ثلاث تَكَرَّرَ اقْتِرانُها ببعضها في القرآن الكريم في سياق دلالي واحد؛ ﴿ءَامَنُواْ﴾، و﴿وَعَمِلُواْ﴾، و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في أكثر من خمسين آية، وفي هذه الآية بشارةٌ ووعدٌ ربَّاني لكل مسلم أن يبادر للأعمال الصالحة، لكن بتأمل الآية الكريمة نجد الإيمان ورد أولًا، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقدِّم الله الإيمان على العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح مبنيٌّ على الإيمان، فعمل بلا إيمان لا فائدة منه، فالمنافقون يعملون، يذكرون الله، ويصلون، ويتصدقون، لكن ليس عندهم إيمان، فلا ينفعهم، ولهذا يقدم الله عَزَّوَجَلَّ الإيمان على العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح مبنيٌّ عليه.

وقال الشيخ كذلك: الأعمال الصالحة ما كانت خالصة لله صوابًا في شريعة الله؛ يعني ما كان خالصًا صوابًا كما قاله الفضيل بن عياض، ما كان خالصًا صوابًا؛ يعني ما جمع بين الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ، فمن عمل عملًا أشرك به مع الله غيره ولو يسير رياء

كان عملـه غير صالح، ومن أخلص لله، لكن على غير شـريعة رسـول الله ﷺ كان عمله غير صالح.

وقـال الزمخشـري: «الصالحات: كل ما اسـتقام من الأعمـال بدليل العقل والكتاب والسُّنة»(١).

وفي هذه الآية بشارةٌ بالجنات والأنهار الجارية، وذلك ما يرجوه أهل مكة والمدينة ذلك الزمان وفي كل زمان، فبلادهم جبليةٌ شحيحةُ الأمطار ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. إنّهـم، وأهـل الجزيـرة العربية كلهـا يفرحـون بالماء، فيصفون سـنواتهم بالخيـر إذا سـقاهم الله، وبالجـدب إذا شـحَّت الأمطار، فكيـف بالأنهار الجاريـة، والميـاه العذبة، والثمار المتعـدِّدة. إنها بشـارةٌ ربَّانيةٌ للمؤمنين العاملين الصالحات ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

يـا له من وعدٍ حقٍّ من ربٍّ كريـم، وعدٌ بالجنَّة والخلود فيها إذا آمنت فـي دنياك، وعملت الصالحات. تعبيـرٌ ربَّانيٌ واضح بلفظة (الصالحات) التي جاءت بصيغة الجمع؛ لتوحي دلالتها بالإكثار من الأعمال الصالحة، فأداء فرائض الدين أعمالٌ صالحـة، واجتناب المحرَّمات أعمال صالحة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقـرة: ٢٧٧]، الصـلاة عمـلٌ صالـح، والـزكاة عملٌ صالح، وعطفهما على الصالحات من باب عطف الخاص علـى العام، كقولـه تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النسـاء: ١٣٦]، وقوله:

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، (١/ ٢٢٩).

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨]. فجبريل وميكال من الملائكة.

وتتوالى آيات الإيمان والعمل الصالح في كتاب الله الكريم؛ ففي سورة آل عمران يخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بتوفية الأجرة وتمامها للمؤمنين العاملين الصالحات ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧]. جاء في تفسير الطبري: يعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملًا لا يُبخسون منه شيئًا ولا يُنقصونه.

وفي سورة النساء يخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بما للمؤمنين العاملين الصالحات عنده من نعيم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٢]. نعيمٌ ووعدُ صِدقٍ، جعلنا الله من الفائزين به.

والآية الثالثة في النساء تزيد الخبر إيضاحًا وتأكيدًا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٤]. فذاك الخير محفوظٌ بالتمام للذكر والأنثى، حتى لو كان مقدار نقير؛ والنقير هو نُقرةٌ في ظهر نواة التمر.

وفي الآية الرابعة بسورة النساء يخبر جَلَّجَلَالُهُ أن أجورهم مستوفاة مع زيادةٍ من لدُنهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ففضلُه عظيمٌ جليل؛ جعلنا الله ممن يشملهم ذاك

الرضا وتلك الزيادة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٣]. وفي سورة المائدة نـصّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه يغفر ذنوبهم، ويمنحهم الأجـر العظيم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩]. وفـي سـورة الأعـراف يخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه لا يكلِّف النفوس البشـرية المؤمنة الصالحة فوق طاقتهـا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]؛ ولـذا فاطمئـن؛ لأن الله يعلم قدرتك البشرية، لكن المهم الصدق مع الله وإخلاص النية.

وفي سـورة الكهف يخبرنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بما جُبلت عليه نفوس البشر من حب المال والبنون، وسَمَّى ذلك المرغوب زينة، وهي زينةٌ زائلةٌ لامحالة؛ فالدنيا محدودةٌ بمراحل زمنيةٍ يعيشـها كل إنسـان ثم يرحل، لكن كثيرين ينسـون الأهـم: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦]، فالمال والبنون زينة فانية بالرغم من أنهما أكثر الأشـياء حبًّا لدى الإنسـان، لكن الباقيات الصالحات خيرٌ منها فيما يُرجى من الثواب، وما يتطلع إليه من الأمل بالفوز بالجنة ونعيمها.

وفي سـورة مريم وعدٌ ربَّاني بالودِّ والقبول عند الآخرين، وهو شـيءٌ ننشـده في حياتنـا الدنيـا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]. قال ابن كثير في تفسيره: «يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ يَغْرِس لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيـنَ الَّذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّالِحَات، وَهِيَ الْأَعْمَال الَّتِي تُرْضِي الله عَزَّوَجَلَّ لِمُتَابَعَتِهَا الشَّرِيعَة الْمُحَمَّدِيَّة، يَغْرِس لَهُمْ فِي قُلُوب عِبَاده الصَّالِحِينَ مَحَبَّة وَمَـوَدَّة، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدّ مِنْـهُ، وَلَا مَحِيد عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيث

الصَّحِيحَة عَنْ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فَقَالَ يَا جِبْرِيل إِنِّي أُحِبّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ. قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل. قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْل السَّمَاء إِنَّ الله يُحِبّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. قَالَ: فَيُحِبُّهُ أَهْل السَّمَاء، ثُمَّ يُوضَع لَهُ الْقَبُول فِي الْأَرْض. وَإِنَّ الله إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فَقَالَ: يَا جِبْرِيل إِنِّي أُبْغِض فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ. قَالَ فَيُبْغِضهُ جِبْرِيل، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْل السَّمَاء إِنَّ الله يُبْغِض فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ. قَالَ فَيُبْغِضهُ أَهْل السَّمَاء، ثُمَّ يُوضَع لَهُ الْبَغْضَاء فِي الْأَرْض**»[1].

وفي سورة العنكبوت، يخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يُكفِّر السيئات ويُجازي بأحسن الأعمال، إن كل مسلمٍ تتفاوت أعماله، ويجزمُ بتنوع درجات الأجر من الله؛ إذ تمرُّ به في أثناء عباداته أوقات تصفو فيها نفسه، ويستحضر عظمة ربِّه، ويرى أمامه الصراط وملائكة الرحمة وملائكة العذاب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]. ويبيّن جَلَّ جَلَالُهُ في سورة (ص) كيف أن الشركاء الذين اختلطت تجارتهم يغلب على أغلبهم الطمع، فيُئوِلُون[2] وينشدون المزيد فوق ما يستحقّون، ويبغي بعضهم على بعض، لكن يُستثنى من هؤلاء أولئك الذين عرفوا ربَّهم؛ فكانت الرقابة الربَّانية حاضرة: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤]. وفي سورة البيِّنة، يخبر أن أولئك العاملين هم خير البرية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

(١) أخرجه البخاري (١٨/ ٥٢١ رقم ٧٤٨٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٠ رقم ٢٦٣٧).
(٢) يُئولون: من التأويل والتحايل.

كـم هي حسـرةٌ وألـم حيـن يغفـل الغافلون عـن عمـل الصالحات، ويذهب وقتهم سُـدىً، وتمضي أيامهم عبثًا؛ يُروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللًا لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة»[1].

(١) الكشاف (٤/ ٧٧٢).

الصَّدِيق

قال تعالى عن أهل جهنّم: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦-١٠٢].

نعوذ بالله من جهنَّم، يتمنَّون العودة للدنيا، يشتكون وهم يصطرخون في النّار، لا ينفعهم لا شفيع، ولا صديق حميم، وزادهم العذاب تنافرًا، والألم كراهية؛ كونهم فرطوا في حياة الدنيا من مرافقة زملاء الاستقامة والفضيلة، ونفرت قلوبهم في حياة الابتلاء من صُحبة أصدقاء الصلاح والدين؛ ولذا احرص في دنياك على صديق المعروف والصالِحات، صديق الطاعة والصلاة، صديق الصيام والصدقات.

تقول العرب: القرين بقرينه يقتدي، والصديق بصديقه يهتدي، سمعت طبيب القلوب د.عبد الله العبد القادر يتحدث عن القلوب وما فيها من أسرار عجيبة، فيؤكد: أنهم بالبحوث العلمية أثبتوا أن لكل قلبٍ خيمة كهربائية، تتواصل مع الآخرين، وهذه الكهرباء هي التي تجعل الإنسان إذا دخل لمجلسٍ، في لحظات يرتاح لهذا، وينفر من ذاك. يقول الدكتور: إن هذه الكهرباء تؤكد ما يُروى عن رسول الله ﷺ «**الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ، فما تعارفَ منها ائْتَلَفَ، وما تَناكر منها اختلفَ**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٩٣ رقم ٣٣٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١ رقم ٢٦٣٨).

ورد في تفسير القرطبي: «عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: عليكم بالإخوان فإنَّهم عدَّة الدنيا، وعدَّة الآخرة: ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[1].

وعن الزمخشري: «جمع الشافع؛ لكثرة الشافعين، ووحَّد الصديق؛ لقلَّته؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالمٍ مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة له وحسبة، وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق فهو الصادق في ودادك الذي يهمُّه ما يهمُّك، فأعزُّ من بيض الأنوق. وقال قتادة: يُذْهِبُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة مودَّة الصديق ورِقَّة الحميم»[2].

وفي تفسير الطبري: «عن يحيى بن سعيد المسمعي، قال: كان قَتادة إذا قرأ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ قال: يعلمون والله أنَّ الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأنَّ الحميم إذا كان صالحًا شفع»[3].

وجاء في تفسير البغوي: «حدَّثنا من سمع أبا الزبير يقول: أشهد لسمعت جابر بن عبدالله يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ الرجل ليقول في الجنَّة ما فعل صديقي فلان، وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنَّة، فيقول من بقي: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم**». قال الحسن: استكثِروا من الأصدقاء المؤمنين، فإنَّ لهم شفاعة يوم القيامة»[4].

(١) تفسير القرطبي: (٧/ ٧٩).
(٢) الكشاف: (٤/ ٤٠١، ٤٠٢).
(٣) تفسير الطبري: (٩/ ٤٥٦).
(٤) تفسير البغوي: (٦/ ١٢٠).

وورد ذكر الصَّدِيق في سورة النُّور، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

قال ابن عطية في تفسيره: «قرن تعالى في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة؛ لأنّ قرب المودَّة لصيق، قال معمر: قلت لقتادة ألا أشرب من هذا الجبِّ؟ قال: أنت لي صديق فما هذا الاستئذان؟ قال ابن عباس في كتاب النقاش: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى إلى استغاثة الجهنميين ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»(١).

وورد في تفسير الواحدي البحر المحيط قال: «﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؛ أي بيوت أصدقائكم، والصَّديق يكون للواحد والجمع كالخليط والقطين. وعن جعفر الصادق: من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وترك الحشمة بمنزلة النفس والأب والابن والأخ. وقال هشام بن عبدالملك: نلت ما نلت حتى الخلافة، وأعوزني صديق لا أحتشم منه»(٢).

(١) المحرر الوجيز: (٤/ ١٩٦).
(٢) البحر المحيط: (٨/ ٥٥).

وجـاء في تفسـير الرازي: «عن ابـن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الصديـق أَكثرُ من الوالدين؛ لأنّ أهل الجنَّة لمّا اسـتغاثوا لم يسـتغيثوا بالآباء والأمهات، بل بالأصدقـاء، فقالوا: ما لنا من شـافعين ولا صديق حميـم. وحُكي أنّ أخًا للربيع بـن خثيـم في الله دخـل منزله في حـال غيبته، فانبسـط إلى جاريته حتى قدَّمت إليه ما أكل، فلمّا عاد أخبرته بذلك، فلسـروره بذلك قال: إن صدقتِ فأنت حرَّة»[١].

قال الزمخشـري في تفسـيره: «يُحكى عن الحسـن أنه دخل داره وإذا حلقـة مـن أصدقائه وقد اسـتلّوا سـلالًا من تحت سـريره فيهـا الخبيص وأطايـب الأطعمـة، وهم مكبُّـون عليها يأكلـون، فتهلَّلت أسـارير وجهه سـرورًا وضحك، وقـال: هكذا وجدناهـم، هكذا وجدناهـم. يريد كبراء الصحابـة ومـن لقيهم من البدرييـن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسـأل جاريته كيسـه، فيأخذ منه ما شـاء، فإذا حضر مولاها فأخبرته، أعتقها سرورًا بذلك».

وعـن ابن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الصَدِيـقُ أكبر من الوالديـن، إن الجهنميين لما اسـتغاثوا لم يسـتغيثوا بالآبـاء والأمّهات. فقالوا: فما لنا من شـافعين ولا صديـق حميـم. وقالـوا: إذا دل ظاهر الحـال على رضـا المالك، قام ذلـك مقام الإذن الصريح، وربما سـمج الاسـتئذان وثقـل، كمن قدِّم إليه طعام، فاستأذن صاحبه في الأكل منه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: خَدَمْتُ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْـرَ سِـنِينَ،

(١) تفسير الرازي: (٢٤/ ٤٢٢).

وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟[1].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تَحِيَّةً مِنْ عِنْدَ اللّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً»[2].

جاء في سيرة الشافعي في كتاب صفة الصَّفوة: «عن يونس بن عبدالأعلى قال: قال لي الشافعي: يا يونس، إذا بلغك عن صديقٍ لك ما تكرهه، فإيَّاك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية، فتكون ممَّن أزال يقينه بشكٍّ، ولكن القه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، واحذرْ أن تسمِّي له المُبلِّغ، فإن أنكر ذلك فقل له: أنت أصدق وأبرُّ، ولا تزيدن على ذلك شيئًا. وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهًا لعذر فاقبلْ منه، وإن لم ترَ ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ فإن ذكر ماله وجهٌ من العذر فاقبل منه، وإن لم ترَ لذلك وجهًا لعذر وضاق عليك المسلك فحينئذ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت في ذلك بالخيار: إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى وأبلغ في الكرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]. فإن نازعتك نفسك بالمكافأة، ففكر فيما سبق له لديك من الإحسان فعدَّها، ثم ابدر له إحسانًا بهذه السيئة، ولا تبخسنَّ باقي إحسانه السالف بهذه السيئة، فإنَّ ذلك الظلم بعينه. يا يونس، إذا كان لك صديقٌ فشدَّ يديك به، فإنَّ اتّخاذ الصديق صعبٌ، ومفارقته سهلٌ»[3].

(١) أخرجه البخاري (١٥/ ٢٣٢ رقم ٦٠٣٨)، ومسلم (٤/ ١٨٠٤ رقم ٢٣٠٩) واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٠٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم ٨٣٧).
(٣) صفة الصفوة: ٢/ ٢٥٤.

صلاةُ السماء

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤]. استمعتُ للقارئ عبدالباسط رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ هذه الآيات قراءة مُجوّدة فاستوقفتني، وبقيتُ أتأمَّلُها وأتدبَّرُها، وأُكرِّرُ قراءتها، فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يخاطب عِباده المؤمنين؛ أنا وأنتَ، وأنتِ وهي؛ فهذا الخطاب يشملنا جميعًا، يقول ابن مسعود: «إذا جاء الخطاب القرآني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فأعِرْهُ سمعك وبصرك، فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُخاطبك»!

إن الله يُخاطبنا ويخبرنا بصلاته وملائكته علينا في سمائه وملئه إذا ذكرناه وسَبَّحناه؛ ومنْ نكون أمام الذات الإلهية؟ إنها الكرامة والتكريم! إنها الرِفْعَةُ والمكانَة. ربَّاهُ: لك الحمد ولك الشكر، ربَّاهُ: سبحانك لا إله إلا أنت سبحانك! إنها عبادةٌ خفيفةٌ سهلة، يقول سيدنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان الى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**»(١). إنّها العبادة اليسيرة؛ استغفار الله، وذكره، وتوحيده.

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ١٩٩ رقم ٦٤٠٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢ رقم ٢٦٩٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار، فكان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سلّم من الصلاة يستغفر ثلاثًا، ويقول: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام**»[1] كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فأمرهم أن يقوموا بالليل، ويستغفروا بالأسحار، وكذلك ختم سورة المزمل، وهي سورة قيام الليل، بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]. وكذلك قال في الحج: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقد قيل: إن آخر سورة نزلت قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]. فأمره -تعالى- أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار. وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنّه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»[2].

وفي الصحيحين عنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدِّي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، لا إله إلا أنت**»[3]. وفي

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤١٤ رقم ٥٩١).
(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٠٤ رقم ٧٩٤)، ومسلم (١/ ٣٥٠ رقم ٤٨٤).
(٣) أخرجه البخاري (١٦/ ١٨٦ رقم ٦٣٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٧ رقم ٢٧١٩).

الصحيحين أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(١). وفي السنن عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله علِّمني دعاءً أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال: «**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربَّ كل شيءٍ ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشيطان وشَرَكه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أَجُرَّهُ إلى مُسلم. قُله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك**»(٢).

ومن تفسير ابن كثير نقتطف بعض ماجاء فيه حول هذه الآيات الكريمات:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ والوَرق، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ**»(٣). فلا إله إلا الله وحده لا شريك لهْ، لهُ الملك وله الحمدُ، يُحيي ويُميتُ، وهو على كلِّ شيء قدير، لا إله إلا الله سبحانه، سبحانه.

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ٧٤ رقم ٦٣٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٨ رقم ٢٧٠٥).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١١/ ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥). والحديث أخرجه أبو داود، (٥٠٦٧)، والترمذي، (٣٣٩٢)، والنسائي في السنن الكبرى، (٧٧٢٥)، وأحمد، (٥١) برواية أبي هريرة، وخلاصة حكمه صحيح عند المحدث شعيب الأرناؤوط في: تخريج المسند، رقم: (٥١).
(٣) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٧٤). والحديث في صحيح الترمذي: (٣٣٧٧). وحكمه صحيح عند الألباني.

عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَاللهِ بْنَ بُسْرٍ يَقُولُ: جَاءَ أَعْرَابِيَّانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**». وَقَالَ الْآخَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ. قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»(١). جعل الله ألسنتنا رطبةً طريةً بذكر الله ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨].

إن السعيد منْ رزقه الله تلك الطُّمأنينة، إنه يجد لذة لا تُنقل بالوصف والكلمات، وإنَّما يستشعر تلك الطُّمأنينة سكينة وسعادة تصغُرُ معها كل هموم الدنيا وشهواتها ومصائبها.

إن مُطمئن القلب يقبلُ قدَرَ الله، فَكُلُّ شيءٍ بقدرِ الله، فالله يعلمُ ونحنُ لا نعلم. ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

يقول الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا شيء ألذّ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبّة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له»(٢).

وعن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **أَمَرَ يَحْيَى ابْنَ زَكَرِيَّا** عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ **بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ... ومن هذه الكلمات أن يحيى بن زكريا قال لهم: وَآمُرُكُمْ**

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩/ ٢٢٦ رقم ١٧٦٨٠)، والترمذي (٥/ ٤٥٨ رقم ٣٣٧٥) وقال: حديث غريب. وفي نسخة أخرى: حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٩٥ رقم ١٤٩١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (٤١٧).

بِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[1].

اجعل لسانك رطبًا بِذِكْر الله، وامضِ في ذكرِ الله أينما كنت، وحيثما حللت، اذكره سرًّا وجهرًا، اذكره يذكرك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَفْرِضْ عَلَى عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا، ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ عُذْرٍ، غَيْرَ الذِّكْرِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْذُرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلا مَغْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ، فَقَالَ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣]. بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ، وَالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ».

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَقُولُ اللهُ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»**[2]. والصَّلَاةُ مِنَ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَى الْعَبدِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ. قَالَ غَيْرُهُ: الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ: الرَّحْمَةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وَأَمَّا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَبِمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَالِاسْتِغْفَارِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٤٠٤-٤٠٥ رقم ١٧١٧٠)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ١٩٥ رقم ١٨٩٥)، وابن حبان (١٤/ ١٢٤-١٢٥ رقم ٦٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٤/ ٢٩١ رقم ٨٦٥٠)، والبزار في مسنده (١٥/ ٥٧ رقم ٨٢٧٤)، والطبراني في الدعاء (رقم ١٨٦٧).

لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر: ٧-٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أَيْ: بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَدُعَاءِ مَلَائِكَتِهِ لَكُمْ؛ يُخْرِجُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾؛ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا: فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي جَهِلَهُ غَيْرُهُمْ، وبَصَّرهم الطَّرِيقَ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ وَحَادَ عَنْهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ أَوِ الْبِدْعَةِ وَأَشْيَاعِهِمْ مِنَ الطَّغَامِ، وَأَمَّا رَحْمَتُهُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ: فَآمَنَهُمْ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ يَتَلَقَّوْنَهُم بِالْبِشَارَةِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ.

فِي صَحِيحِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قَدْ أَخَذَتْ صَبِيًّا لَهَا، فَأَلْصَقَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟** قَالُوا: لَا. قَالَ: **فَوَاللهِ للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(١).

ويروي ابن قيم الجوزية عن الحَسَنِ البَصْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «تَفَقَّدُوا الحَلاوَةَ في ثَلاثَةِ أشْياءَ: في الصَّلاةِ، وفي الذِّكْرِ، وقِراءَةِ القُرْآنِ، فَإنْ وجَدْتُمْ وإلّا فاعْلَمُوا أنَّ البابَ مُغْلَقٌ. وَبِالذِّكْرِ: يَصْرَعُ العَبْدُ الشَّيْطانَ كَما يَصْرَعُ الشَّيْطانُ أهْلَ الغَفْلَةِ والنِّسْيانِ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٨ رقم ٥٩٩٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٩-٥٠).
(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٤٢).

الصلاة الوسطى

قال تعالـى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

تعدَّدت أقوال علماء التفسير حول وقت الصلاة الوسطى، ورَجَّحَ كُلُّ عالِمٍ وقتًا من الأوقات؛ فبعضهم رجَّح أن المراد بها صلاة العصر؛ ومنهم الشيخ ابن سعدي قال: يأمر بالمحافظة على الصلوات عمومًا، وعلى الصلاة الوسطى، وهي العصر خصوصًا.

قال ابن كثير في تفسيره: «يأمر الله -تعالى- بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها...، وخصَّ -تعالى- من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها: أيُّ صلاةٍ هي؟ بل لم يزل التنازع فيها موجودًا من زمن الصحابة إلى الآن...، يُرْوَى عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مُختلفين في الصلاة الوسطى هكذا، وشبَّك بين أصابعه..» وأورد ابن كثير رأيه بقوله: «وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر، وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها»[1].

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٦٩).

وقال ابن عطية في تفسيره: «تواتر الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا**». وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كنا نرى أنها الصبح حتى قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر**»[(١)]، فعرفنا أنها العصر»[(٢)].

أما الشيخ ابن عاشور فرجح أنها صلاة الفجر قال: «الصلاة الوسطى لا شك أنّها صلاةٌ من جُمْلةِ الصلوات المفروضة؛ لأن الأمر بالمحافظة عليها يَدلُّ على أنها من الفرائض، وقد ذكرها الله تعالى في هذه الآية مُعرفة بلام التعريف، وموصوفة بأنها وسطى، فسمعها المسلمون وقرؤوها؛ فإما عرفوا المقصود منها في حياة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم طرأ عليهم الاحتمال بعده فاختلفوا، وإما شغلتهم العناية بالسؤال عن مهمات الدين في حياة الرسول عن السؤال عن تعيينها؛ لأنهم كانوا عازمين على المحافظة على الجميع، فلما تذاكروها بعد وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلفوا في ذلك؛ فنبع من ذلك خلاف شديد، أُنْهِيت الأقوال فيه إلى نيفٍ وعشرين قولًا، بالتفريق والجمع، وقد سلكوا للكشف عنها مسالك؛ مرجعها إلى أخذ ذلك من الوصف بالوسطى أو من الوصاية بالمحافظة عليها؛ فأما الذين تعلّقوا بالاستدلال بوصف الوسطى فمنهم من حاول جعل الوصف من الوسط بمعنى الخيار والفضل، فرجع إلى تتبُّع ما ورد في تفضيل بعض الصلوات على بعض، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٤٣ رقم ٢٩٣١)، ومسلم (١/ ٤٣٧ رقم ٦٢٧).
(٢) المحرّر الوجيز: (١/ ٣٢٣).

﴿مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وحديث عائشة «أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب»، ومنهم من حاول جعل الوصف من الوسط، وهو الواقع بين جانبين متساويين من العدد، فذهب يتطلَّب الصلاة التي هي بين صلاتين من كل جانب، ولما كانت كل واحدة من الصلوات الخمس صالحة لأن تعدُّ واقعة بين صلاتين؛ لأن ابتداء الأوقات اعتباري، ذهبوا يعيِّنون المبدأ، فمنهم من جعل المبدأ ابتداء النهار، فجعل مبدأ الصلوات الخمس صلاة الصبح فقضى بأن الوسطى العصر، ومنهم من جعل المبدأ الظهر؛ لأنَّها أول صلاة فرضت، كما في حديث جبريل في الموطأ، فجعل الوسطى المغرب. وأما الذين تعلَّقوا بدليل الوصاية على المحافظة فذهبوا يتطلبون أشق صلاة على الناس تكثر المتطلبات عنها، فقال قوم: هي الظهر؛ لأنها أشقُّ صلاة عليهم بالمدينة، كانوا أهل شغل، وكانت تأتيهم الظهر وهم قد أتعبتهم أعمالهم، وربما كانوا في إكمال أعمالهم، وقال قوم: هي العشاء؛ لما ورد أنها أثقل صلاة على المنافقين، وقال بعضهم: هي العصر؛ لأنها وقتُ شُغلٍ وعمل، وقال قومٌ: هي الصبح؛ لأنها وقت نومٍ في الصيف، ووقت تَطَلّبٍ الدفء في الشتاء.

وأصحُّ ما في هذا الخلاف ما جاء من جهة الأثر، وذلك قولان: أحدهما أنها الصبح. هذا قول جمهور فقهاء المدينة، وهو قول عمر، وابنه عبدالله، وعلي، وابن عباس، وعائشة، وحفصة، وجابر بن عبدالله، وبه قال مالك، وهو عن الشافعي أيضًا؛ لأن الشائع عندهم أنها الصبح، وهم أعلم الناس بما يروى عن رسول الله ﷺ: من قول، أو فعل، أو قرينة حال. القول الثاني: إنها العصر، وهذا قول جمهور من أهل

الحديث، وهو قول عبدالله بن مسعود، وروي عن عليٍّ أيضًا، وهو الأصح عن ابن عباس أيضًا، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، ونسب إلى عائشة وحفصة، والحسن، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي في رواية، ومال إليه ابن حبيب من المالكية. وحجتهم ما روي «أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم الخندق حين نسي أن يصلي العصر من شدّة الشغل في حفر الخندق، حتى غربت الشمس، فقال: «**شغلونا** -أي المشركون- **عن الصلاة الوسطى، ملأ الله قبورهم نارًا**»[١].

والأصح من هذين القولين أولهما؛ لما في الموطأ والصحيحين، أن عائشة وحفصة أمرتا كاتبي مصحفيهما أن يكتبا قوله تعالى: «حافظوا على الصلوات الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». وأسندت عائشة ذلك إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم تسنده حفصة، فإذا بطل أن تكون الوسطى هي العصر بحكم عطفها على الوسطى، تعيَّن كونها الصبح، هذا من جهة الأثر. وأما من جهة مسالك الأدلة المتقدمة فأفضلية الصبح ثابتة بالقرآن، قال تعالى، مخصصًا لها بالذكر: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. وفي الصحيح أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون عند صلاة الصبح، وتوسطها بالمعنى الحقيقي ظاهر؛ لأن وقتها بين الليل والنهار، فالظهر والعصر نهاريتان، والمغرب والعشاء ليليتان، والصبح وقت متردِّد بين الوقتين، حتى إن الشرع عامل نافلته معاملة نوافل النهار؛ فشرع فيها الإسرار، وفريضته معاملة فرائض الليل؛ فشرع فيها الجهر.

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١١٠ رقم ٤١١١)، ومسلم (١/ ٤٣٦ رقم ٦٢٧).

ومن جهة الوصايا بالمحافظة عليها هي أجدر الصلوات بذلك؛ لأنها الصلاة التي تكثر المثبطات عنها، باختلاف الأقاليم والعصور والأمم، بخلاف غيرها، فقد تشقُّ إحدى الصلوات الأخرى على طائفة دون أخرى، بحسب الأحوال والأقاليم والفصول»[1].

ورَجَّحَ الشيخ الشعراوي الرأي القائل: إن وقتها مُبهم، يقول: «ولماذا أخفى الله ذكرها عنا؟ نقول: أخفاها لينتبه كل منا ويعرف أن هناك فرقًا بين الشيء لذاته، والشيء الذي يبهم في سواه؛ ليكون كل شيء هو الشيء، فيؤدي ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات.

فما دامت الصلاة الوسطى تصلح لأن تكون الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء فذلك أدعى للمحافظة على الصلوات جميعًا، فإبهام الشيء إنما جاء لإشاعة بيانه؛ ولذلك أبهم الله ليلة القدر لِلْعِلَّة نَفْسِها ولِلسببِ نفسه، فبدل أن تكون ليلة قدر واحدة؛ أصبحت ليالي أقدار»[2].

بلَّغنا الله وإيَّاكم ليلة القدر، ووفَّقنا إلى صيامها وقيامها.

(١) التحرير والتنوير: (٢/ ٤٦٧، ٤٦٨).
(٢) تفسير الشعراوي: (٢/ ١٠٢٥).

العدل

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

أعلى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من شأن العدل، وجعله مرتكزًا أساسيًّا في توازن الحياة واستمرارها، فلا صلاح للدنيا إلا بالعدل؛ ولذلك نجد أن القرآن الكريم يعلي من شأن هذه القيمة الرفيعة، ويدعو المؤمنين إلى التحلِّي بها والقيام بها حق القيام؛ فبالعدل تزدهر الحياة، وتتحقق التنمية، وتنمو الأموال، وتنهض الدول، ويسود الأمن.

وحتى مع البغضاء والكراهية، يلزمك العدل، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

لقد جعل المسلمون الأوائل العدل خُلقًا من أخلاقهم، وسجية من سجاياهم، فصار سلوكًا ممارسًا في حياتهم الخاصة والعامة، ونجحوا بذلك في صناعة القدوات نجاحًا كبيرًا سادوا به الدنيا، وبهروا العالم؛ نتيجة استشعارهم المسؤولية، واستحضارهم المراقبة الربَّانية؛ فعدلوا مع ذواتهم، ومع الآخرين. تقول المرأة في عهد عمر بن الخطاب -وقد نهى

الخليفة عن الغش وخلْط الماء باللبن- لابنتها: اخلطي الماء باللَّبن، فتردُّ الفتاة: ولكن الخليفة عمر نهى عن ذلك، فتقول الأم: وأين عمر؟ هو لا يرانا ولا يعلم، فترد البنت بقولها: إن كان عمر لا يعلم فربُّ عمر يعلم.

نجاح في اختبار النفس أمام المصالح الدنيوية؛ لأنك حين تسقط في امتحان العدل مع ذاتك فما أنت بعادلٍ مع غيرك. بهذه الأخلاق العالية التي قوامها العدل مع النفس سادوا الدنيا؛ إن تلك الأخلاق بدأت منذ أن نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ برسالة السماء لسيدنا وسيد البشرية كلها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حدث في بداية تكوين الدولة الإسلامية في المدينة المنورة قصةٌ تُجسِّد العدل مع الجميع، سواء مع المسلم أوغير المسلم، فالإسلام رسالة عدل ورحمة للعالمين، تحكي القصةُ حدوث سرقةٍ في أحد البيوت بالمدينة، وفي بعض الروايات أن المتَّهم فيها يهودي، تلك القصة خَلَّدَها القرآن الكريم في آيات نقرؤها مرارًا، وقَلَّمَا استوقفتنا واستحضرنا مشاهدها، قصةٌ تُجسّدُ العدل الحقيقي، وتعرض منهجًا ثابتًا في العدل؛ فمنذ قدوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة المنورة وهو يؤكِّد حتمية تطبيق العدل في المجتمع المدني، وكان اليهود يُناصبونه العداوة والبغضاء، فكادوا له وحسدوه، وحقدوا على كل منْ أسلم من المهاجرين والأنصار، وحاكوا المؤامرات على رسول الله وأصحابه الواحدة تلو الأخرى، وفي هذه البيئة التي تتشكل فيها الدولة الإسلامية وتترسخ قواعدها توقدت عداوة اليهود، فحدثت سرقةٌ اهتزَّت لها المدينة، ذكر ابن كثير في تفسيره[1] أن

(١) روى هذه الحادثة الترمذي (٥/ ٢٤٤ رقم ٣٠٣٦) من حديث قتادة بن النعمان قال عنه الألباني: حسن.

الناس في المدينة طعامهم التمر والشعير، وإذا قدمت قوافل التجارة من الشام يشتري ذوو اليسار منها الدقيق. وذات مرَّة قَدِمت القافلة، فاشترى منها رفاعة بن زيد حملًا من الدقيق، فجعله في خزنةٍ له في بيته مع سلاحٍ له، فعدى عليه السارق، فأخذ الطعام والسلاح، فتحسَّس رفاعة وسأل، فقيل له: إن بني الأُبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى إلا على بعض طعامكم. فقال رفاعة لابن أخيه قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا ابن أخي لو أتيتَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكرتَ له ذلك. قال قتادة: فأتيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلتُ: إن أهل بيتٍ منّا أهل جفاء، عمدوا إلى بيت عمِّي فسرقوا سلاحه وطعامه، فليردُّوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سآمر في ذلك**». فلما سمع بنو أُبيرق أتوا رجلًا منهم يُقال له أُسَير بن عُرْوة، فكلّمُوه في ذلك، فاجتمع في ذلك أُناسٌ من أهل الدار، وقالوا: يا رسول الله، إنَّ قتادةَ بن النعمان وعَمَّه عمدوا إلى أهل بيتٍ منّا أهل إسلامٍ وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بيِّنةٍ ولا ثبْتٍ، واتَّهموا بصنيعهم القبيح لبيد بن سهل رجلًا له صلاح وإسلام، وقيل إن اتهامهم كان لزيد بن السمين اليهودي، وسمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالتهم وحجَّتهم، وجاءه المتهم -وهو معدودٌ من المسلمين- ومعه جماعة من أصحابه المسلمين يُزكُّونه، وينفون عنه السرقة، فكيف سيكون الحكم!! إنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر؛ ومن ثم سيستمع إلى الأطراف كلها، وينظر ما يمتلكه كل طرف من أدلة وحجج وبراهين، تنفي التهمة أو تثبتها، وبها سيحكم. وفي هذه المناسبة ما يدل على بشريته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يقول الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أسامة بن زيد عن عبدالله بن رافع عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في

مواريث بينهما قد دُرست ليس عندهما بيِّنة، فقال رسول الله ﷺ: «**إنّكم تختصمون إليَّ، وإنما أنا بشر، ولعلَّ بعضُكم أن يكون ألحن بحجَّته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حقِّ أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها إسطامًا في عنقه يوم القيامة**». فبكى الرجلان، وقال كلٌّ منهما: حقِّي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما، ثم توخَّيا الحق بينكما، ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما صاحبه»(١).

فإذا كان رسولنا ﷺ يؤكد بشريته، وجاءه المتهمون ببيناتهم التي أحكموها، جاؤوا وهم يعلمون أنهم غير صادقين، فكيف سيكون الحُكم؛ إنه ﷺ سيحكم بما سمع من بيناتٍ وحجج، حتى وإن كانت تلك الحجج كاذبة، فهو بشر؛ لقد جاء القوم إلى رسول الله ﷺ وقد اتهموا ذاك البريء، أيًّا كان هو المتهم مسلمًا أو يهوديًّا، وجاؤوا بشهودهم والرسول ﷺ لا يعلم الغيب، وقبل النطق بالحكم البشري من رسول الله ﷺ جاء الحُكم من السماء بتفصيلٍ وبيانٍ للحقيقة، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧]. ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٤٤/ ٣٠٧-٣٠٨ رقم ٢٦٧١٧)، وأبو يعلى (١٢/ ٣٢٤ رقم ٦٨٩٧)، والدارقطني (٥/ ٤٢٨ رقم ٤٥٨٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٢٥٢ رقم ١٤٢٣).

إن الحكم بالعدل هو منهج الله الذي ارتضاه للخلق؛ مؤمنهم، وكافرهم. فالخصومات تقع بين المسلم والمسلم، وبين المسلم وغير المسلم؛ ولهذا كان التعبير بصيغة العموم (الناس) ليشمل البشر جميعًا، ويدل على أن الظلم تمقته السماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

نزل القرآن ببراءة المتهمين، وتقريع وتوبيخ الظلمة، فالعدل ركنٌ مهمٌّ في الإسلام؛ مع الصديق والقريب، مع العدو والخصم، إن هذه الآيات الكريمة وإن نزلت في حادثةٍ وقعت في عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقد قال العلماء: إنها لجميع المسلمين في كل زمان ومكان، هي درسٌ في العدل، ونموذجٌ في الحكم يهتدي به القضاة المسلمون، فلا حكم بهوى، ولا قضاء بتوجيه، فلئن استخفيت من الناس -أيها الإنسان- ومكرت -أيها الظالم- في دُنياك، فضلَّلْت، فهل تستطيع أن تستخفي من الله ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. ولئن جادلتَ يا صاحب الهوى وملت في هذه الدنيا الفانية، فأيَّدتَ الظالم، ونصرت الباغي، فسيأتي يومٌ لن تستطيع فيه المجادلة ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].

ويبيّن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في هذا الحكم أن باب التوبة مفتوح؛ فَأسرِع وتُب، واندم على خطيئتك، وكَفِّر عن سيئتك ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠]. ويتوعد القرآن الكريم ذاك المذنب الذي يجمع السوأتين؛ إذ يقع في الذنب، ويتَّهم به غيره، سواء أكان ذنبه خطأً، أم عمدًا: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ

ﱡٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﱠ [النساء: ١١٢]. ويُؤكِّد سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فَضْلَهُ ورَحْمَتَه على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ببيان الحقيقة، وهذا الفضلُ الربَّاني الذي يشملُ كُلَّ المسلمين، طالما اهتدوا بمنهجه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، واقتدوا برسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيقول: ﱡوَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﱠ [النساء: ١١٣].

إن العدل أساس الأمن والسكينة والاستقرار والنهوض، وبه ومعه تنهض الأمم، وتبنى الحضارات، وتزدهر الدول وتستقر، على عكس الظلم والجور، الذي يهدم الحضارات، ويعوق مسيرة التقدم والبناء. وقد أدرك ذلك رسول كسرى الذي جاء إلى المدينة لمقابلة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فسأل عن قصره المنيف، الذي يسكن فيه بوصفه خليفة لأكبر دولة تقود العالم آنذاك، فدلّوه على بيتٍ صغير متواضع خالٍ من التحصينات، التي يراها عند ملوك الفرس، ورآه أقرب إلى بيوت الفقراء منه إلى قصور الملوك، ووجد عمرًا ملتحفًا ببردته، ونائمًا تحت ظل شجرة دون حراسة، فقال قولته المشهورة: «حكمت فعدلت، فأمنت فنمت يا عمر»(١).

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد: (٥/ ٦٦).

العُلماء

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

في هذه الآية الكريمة يخصُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العلماء بالذكر، ويُبين أنه يرفعهم درجات وليس درجة، ودرجات الله عظيمة، وأجره جزيل، وعطاؤه كبير، وذاك -لعمر الله- الشرف كلُّه، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الرازي في تفسيره: وصف الله العلماء في كتابه بخمس مناقب، أحدها الإيمان، وجاءت أحاديث كريمةٌ تُؤكد فضل العلم وشرف العلماء، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**»[(١)].

يقول الزمخشري في تفسيره الكشاف: «فأَعْظِم بمرتبةٍ هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان بين العلم،

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٥-٤٨ رقم ٢١٧١٥)، وأبوداود (٣/ ٣١٧ رقم ٣٦٤١)، والترمذي (٥/ ٥٠ رقم ٢٦٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٢١٢).

والمال، والملك، فاختار العلم، **فأُعْطِيَ المالَ والملكَ معه**. وقال ﷺ: «**أوحى الله إلى إبراهيم، يا إبراهيم، إنِّي عليم أحبُّ كلَّ عليم**»[١].

عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية، ولْتُرَغِّبَكُم في العلم. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**بين العالم والعابد مئة درجة، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة**»[٢].

وعن بعض الحكماء: «ليت شعري أيَّ شيءٍ أَدركَ من فاته العلم، وأيَّ شيء فات من أدرك العلم. وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أربابًا، وكلُّ عِزٍّ لم يُوطَّد بعلمٍ فإلى ذُلٍّ ما يصير. وعن الزبيري: العلم ذَكَرٌ فلا يحبُّه إلا ذكور الرجال»[٣].

إن العلم يرفع مكانة الإنسان ويزيده قدرًا وجاهًا، جاء في تفسير ابن كثير: «ما رُوي أن نافع بن عبدالحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال: وما ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا. فقال عمر بن الخطاب استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئٌ لكتاب الله، عالمٌ بالفرائض، قاضٍ. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب قومًا ويضع به آخرين**»[٤].

---

(١) ذكره ابن عبد البر تعليقًا، انظر: الكشاف: (٦/ ٦٦-٦٧)، وإحياء علوم الدين (١/ ١١).
(٢) ذكره ابن عبد البر في كتاب العلم، وانظر: الكشاف: (٦/ ٦٥).
(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣٦٥)، وانظر: الكشاف: (٦/ ٦٧).
(٤) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٩ رقم ٨١٧)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٢٨).

وجـاء في سـير أعـلام النبلاء «عـن أبي العاليـة قـال: كان ابن عباس يرفَعُنـي على السـرير، وقُريش أسـفل من السـرير، فتغامزَتْ بـي قُريش، فقال ابن عباس: هكذا العلم يزيدُ الشـريفَ شرفًا، ويُجْلسُ المملوك على الأسرَّة»[١].

وفي سـير العلمـاء الكبار دروسٌ يَحسُـن عرضها وبسـطها للأجيال، ليعرفـوا كيف أعلا العلم شـأنهم، وكيـف نقلهم من النسـيان إلى الذاكرة والخلـود، فابن عباس كان يقـول: «كان إذا بلغني الحديث عند رجلٍ من صحابة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتيتُ باب بيته في وقت قيلولته، وتوسَّـدْتُ ردائي عند عتبة داره، فَيَسْفِي[٢] عليَّ الريح من التراب ما يَسفي، ولو شئتُ أن أسـتأذن عليـه لأُذِن لي...، وإنما كنـتُ أفعل ذلك لأُطيِّب نفسـه، فإذا خـرج مـن بيته رآني على هذه الحال، وقال: يا ابن عم رسـول الله، ما جاء بك؟! هلا أرسـلتَ إليَّ فآتيـك؟ فأقول: أنا أحقُّ بالمجـيء إليك، فالعلم يُؤتَى ولا يأتي، ثم أسأله عن الحديث».

وكما كان ابن عباس يُذلُّ نفسه في طلب العلم؛ فقد كان يُعلي من قدر العلمـاء، «فهـا هو ذا زيد بن ثابـت كاتب الوحي ورأس أهـل المدينة في القضاء والفقه والقراءة والفرائض يَهِمُّ بركوب دابته فيقف الفتى الهاشمي عبدالله بـن عباس بين يديه وقفة العبد بين يدي مولاه، ويُمسـك له رِكابه، ويأخذ بزمام دابته.

فقال له زيد: دَعْ عنك يا ابن عم رسول الله.

(١) سير أعلام النبلاء: (٤/ ٢٠٨). نقلاً عن ابن عساكر: (٦/ ١٣٥).
(٢) تسفي الريح التراب: تذروه وتحمله إليه.

فقال ابن عباس: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا.

فقال له زيد: أرِني يدك...

فأخرج له ابن عباس يده، فمال عليها وَقَبَّلها، وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وقد دأب ابن عباس على طلب العلم حتى بلغ فيه مبلغًا أدهش الفُحول...، فقال فيه مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين: كنتُ إذا رأيت ابن عباس قلتُ: أجمل الناس، فإذا نطق قلتُ: أفصح الناس...، فإذا تحدَّثَ قلتُ: أعلم الناس. ولما اكتمل لابن عباس ما طمح إليه من العلم تحول إلى مُعلمٍ يعلم الناس، فأصبح بيته جامعةً للمسلمين»[١].

والإمام الشافعي والإمام أحمد فقدَا أبويهما في الصِّغَر، ولم يكُ لهم إخوة ولا أخوات ورفعهما الله بالعلم، كلٌّ واحدٍ منهما رَبَّتْه أمُّه؛ فوالدة الإمام أحمد ترمَّلت وهي شابَّة، وتفرَّغت للعناية بصغيرها، وكذلك فعلت والدة الشافعي، وكانت هي الأخرى في ربيع شبابها. وإن والدة أحمد اختارت لولدها العلم نهجًا وسبيلًا، وكذلك فعلت والدة الشافعي حين تركت غزَّة واتَّجهت به إلى مكة. ويُروى أن الإمام أحمد ما رُئي إلا وهو يحمل مِحبرةً وقلمًا، وهو صاحب القول الحضاري العلمي الجليل: «مع المحبرة إلى المقبرة»[٢]. والأئمة العلماء الآخرون؛ مالك، وأبوحنيفة، ومن بعدهم ابن تيمية، والعزُّ بن عبدالسلام، ثم الشيخ

(١) صور من حياة الصحابة: (١/ ١٧٨-١٧٩).
(٢) الأئمة الأربعة: (ص٦٨٩، ٦٩٥).

محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كان لهم فضلٌ كبير في تجديد الدعوة في العصور المتأخرة، وغيرهم من علماء الأمة كثيرون.

دخل عروة بن الزبير بستانًا لعبدالملك بن مروان، فقال عروة: ما أحسن هذا البستان، فقال له عبدالملك: أنت والله أحسن منه، إن هذا يُؤتي أُكلَهُ كُلَّ عامٍ، وأنت تُؤتي أُكلَك كلَّ يوم.

ويقول عُروة لبنيه: يا بَنِيَّ تعلموا العلم، وابذلوا له حقَّه...، فإنكم إن تكونوا صغار قومٍ فعسى أن يجعلكم الله بالعلم كُبراءهم، ثم يقول: واسوأتاه! هل في الدنيا شيءٌ أقبح من شيخٍ جاهل؟![1]

يُروى عن عمر بن عبدالعزيز أنَّه قال: «إن استطعتَ فكُن عالمًا، فإن لم تستطع فكُن مُتعلِّمًا، فإن لم تستطع فأحبَّهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم»[2]. وفي الأثر: «ليس الخير أن يَكثُر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثُر علمُك، ويَعظُم حلمُك»[3].

ويقول الشيخ ابن عثيمين: «العلماء يبقى ذِكرُهُم فهم يُدرِّسون الناس وهم في قبورهم»[4].

(١) صور من حياة التابعين: (١/ ٥٣-٥٤).
(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز: (ص١١٣).
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٦/ ٣١١).
(٤) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة البقرة، آية ٩٠.

العمر

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

عرض القرآن الكريم في آيات عدة مراحل عمر الإنسان، وقصَّ بداية خلقه، وفي القرآن الخبر اليقين، وفي هذه الآية الشريفة ينبِّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشاكِّينَ في البعث والحساب، ببداية خلقهم، وأنَّهم خُلقوا من تراب؛ فأبو البشرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله من تراب، ثم خلق منه زوجه أمَّنا حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ، ومنهما كانت الذُّرِّية الآدميَّة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [النساء: ١]. إنَّ هذه الآيات تكشف للإنسان بدايته، وكيف أوجده الله في الحياة الدنيا، وفيها يأمره الله بتقواه وعبادته، فالخالق لا تُعجزه إعادة خلقه وبعثه من جديد!

لقد وضَّح القرآن الكريم مراحل العمر للإنسان، فكلُّ فردٍ يمرُّ في حياته بالمراحل التي كتبها الله له؛ فبدايته نطفةٌ في رحم أُمِّه، وخلال تسعة شهور في تلك الظلمات، يمرُّ فيها بمراحل عجيبة تزيد المتدبر إيمانًا

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، وبعد النطفة يكون علقة، ثم مضغة، مخلقة وغير مخلَّقة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الزمر: ١٤]. إنَّ تلك النُّطفة، وهي تتحول التحول السريع في الرحم، ويتكامل شكلها ونموها، تصبح في شهور طفلًا واضح المعالم، يتغذَّى ويتنفس في بطن أمِّه، وتتكون أجهزته التي يستقلُّ بها فيما بعد عن أمِّه، وتعمل حتى لحظة موته؛ فسبحان الخالق، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

عن عبدالله بن مسعود: «حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصّادِقُ المَصْدُوقُ، قالَ: **إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤْمَرُ بأَرْبَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكْتُبْ عَمَلَهُ، ورِزْقَهُ، وأَجَلَهُ، وشَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ، فإنَّ الرَّجُلَ مِنكُم لَيَعْمَلُ حتَّى ما يَكونُ بيْنَهُ وبيْنَ الجَنَّةِ إلّا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه كِتابُهُ، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ النّارِ، ويَعْمَلُ حتَّى ما يَكونُ بيْنَهُ وبيْنَ النّارِ إلّا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكِتابُ، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ**»[1].

هذا الإخبار الربَّاني، والإيضاح النبوي، يزيد المؤمنين إيمانًا بالله، ويقينًا بالبعث والنشور، فأعمارنا في الدنيا تمضي في مراحلها التي كتبها الله، فما خُلقنا عبثًا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]. سبحانه، سبحانه.

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١١١ رقم ٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣).

وحين يخرج الطفل من بطن أمِّه تعمل أجهزته التي خلقها الله فورًا فيفتح فاه ينشدُ الغذاءَ؛ منْ علَّمه! منْ أرشدَه! سبحان الخالق ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]. وينمو الوليدُ، وفي مرحلة الطفولة، يكون نموه سريعًا؛ فخلال شهور يحبو ويناغي، ثم يمشي ويزداد نموه. ويخبر سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن مرحلة الطفولة المبكرة، ومعاناة الأمِّ بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. وعن إرضاعه يقول تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

هي الأمُّ سخَّرها الله وأوجد فيها عاطفة الحب والود منذ كان نُطفةً في رحمها، تحمله كُرهًا ومشقَّةً، وتُرضعه وترعاه منذ ولادته، وتدوم عاطفة الأمِّ معه في كل مراحل عُمره حتى الموت. غفر الله ورحم أمهاتنا، آمين.

وتمضي الأيام ويشبُّ الصغير، ويدخل مرحلة الفتوة، ويتعلَّق بالدنيا، وكلَّما تقدَّم عمر الإنسان زاد تعلُّقه بالدنيا، وزاد جهله وعناده، ونسيان أصله وبدايته، وتمضي الأيام، وبعد أن يتنعم بمرحلة الفتوَّة والشباب، يدلِفُ إلى مرحلة الكهولة ويكتمل أشدُّه. هي الحياة الدنيا تمضي أيامها، وتطوي لياليها عمرَ الإنسان، وقد أخبر الله أن أشدَّ العمر هو بلوغ الإنسان الأربعين سنة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وتتابع الأسابيع، وتغيب الشهور وترحل السنون، ويصل عمر الإنسان الستِّين، فيُقال له الشيخ، ويدبُّ إليه الضَّعف، ولو سأل السعيدون بزهرة

العمر ونضارتهِ الشيوخَ كيف ذاكرتكم عن ماضي العمر؟ أحسب أن الشيوخ سيُجيبُون ويقولون: هو حلمٌ مضى، وذكريات انطوت، بقيت كالخيال، وما كأنها غبرت، ولا نحسبها مرَّت! لكن وإن رحل العمر، وامَّحى الماضي، فكلُّ أعمال الإنسان مكتوبة، نسيها وهي مدونة في كتابه ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وفي سورة الحاقة يصل الخبر اليقين: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ١٩-٣٧].

هذا وإن منْ يطول به العمر يضعف ويفقد لذة الدنيا وبهجتها، قال القرآن عن تلك المرحلة: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وقد استعاذ الرسول ﷺ من أرذل العمر: «يُروى عن سعد بن أبي وقاص: أنه كانَ يُعَلِّمُ بَنِيهِ هَؤُلاءِ الكَلِماتِ، كما يُعَلِّمُ المُعَلِّمُ الغِلْمانَ الكِتابَةَ، ويقولُ: إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَتَعَوَّذُ منهنَّ دُبُرَ الصَّلاةِ: **«اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الجُبْنِ، وأَعوذُ بكَ أنْ أُرَدَّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ، وأَعوذُ بكَ مِن فِتْنَةِ الدُّنْيا، وأَعوذُ بكَ مِن عَذابِ القَبْرِ»**[1].

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٣ رقم ٢٨٢٢).

وجاء في تفسير ابن الجوزي عن أرذل العمر قال: «يُروى عن عَطاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قالَ: لَيْسَ هَذا في المُسْلِمِينَ، المُسْلِمُ لا يَزْدادُ في طُولِ العُمُرِ والبَقاءِ إلّا كَرامَةً عِنْدَ اللهِ، وعَقْلًا، ومَعْرِفَةً. وقالَ عِكْرِمَةُ: مَن قَرَأ القُرْآنَ، لَمْ يُرَدَّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ»[1].

وفي آية أخرى ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التنكيس: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

قال ابن الجوزي: «مَعْنى الكَلامِ: مَن نُطِلْ عُمْرَهُ نُنَكِّسْ خَلْقَهُ، فَنَجْعَلُ مَكانَ القُوَّةِ الضَّعْفَ، وبَدَلَ الشَّبابِ الهَرَمِ، فَنَرُدُّهُ إلى أرْذَلِ العُمُرِ؛ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَن فَعَلَ هَذا قادِرٌ عَلى البَعْثِ؟»[2].

وجاء في تفسير ابن كثير «أن الْمُرَادَ مِنْ هَذَا -والله أَعْلَمُ- الإخبارُ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ بِأَنَّهَا دَارُ زَوَالٍ وَانْتِقَالٍ، لَا دَارُ دَوَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أَيْ: يَتَفَكَّرُونَ بِعُقُولِهِمْ فِي ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ، ثُمَّ صَيْرُورَتِهِمْ إِلَى نَفْس الشَّبِيبَة، ثُمَّ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خُلقوا لِدَارٍ أُخْرَى، لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا، وَلَا مَحِيدَ عَنْهَا، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ»[3].

قال علماء اللغة العربية: «إن لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان، من أول حياته إلى حين وفاته، اسمًا خاصًا بها.

فماذا قالوا؟

(١) تفسير ابن الجوزي: موقع الباحث القرآني: https://tafsir.app/zad-almaseer/36/68
(٢) تفسير ابن الجوزي: موقع الباحث القرآني: https://tafsir.app/zad-almaseer/36/68
(٣) تفسير ابن كثير: (٦/ ٥٨٨).

قالوا: إنَّ الإنسان ما دام في الرَّحم فهو: جنين.

فإذا وُلد، فهو: وليد.

ثُمَّ ما دامَ يَرْضَعُ فَهو رَضِيعٌ.

ثُمَّ إذا قَطَعَ اللَّبَنَ فَهو فَطِيمٌ.

ثُمَّ إذا دَبَّ ونَما فَهو دارِجٌ.

فَإذا بَلَغَ خَمْسَةَ أَشْبارٍ فَهو خُماسِيٌّ.

فَإذا سَقَطَتْ رَواضِعُهُ فَهو مَثْغُورٌ.

فَإذا نَبَتَتْ أَسْنانُهُ فَهو مُثْغِرٌ بِالتَّاءِ والثَّاءِ، كَما قالَ أَبُو عَمْرٍو.

فَإذا قارَبَ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ جاوَزَها فَهو مُتَرَعْرِعٌ وناشِئٌ.

فَإذا كانَ يَبْلُغُ الحُلْمَ أَوْ بَلَغَهُ فَهو يافِعٌ ومُراهِقٌ.

فَإذا اِحْتَلَمَ واجْتَمَعَتْ قُوَّتُهُ فَهو حَزَوَّرٌ، واسْمُهُ في جَمِيعِ هَذِهِ الأَحْوالِ غُلامٌ.

فَإذا اِخْضَرَّ شارِبُهُ وأَخَذَ عِذارُهُ يَسِيلُ قِيلَ: قَدْ بَقَلَ وجْهُهُ.

فَإذا صارَ ذا فَتاءٍ فَهو فَتًى وشارِخٌ.

فَإذا اِجْتَمَعَتْ لِحيَتُهُ وبَلَغَ غايَةَ شَبابِهِ فَهو مُجْتَمِعٌ.

ثُمَّ ما دامَ بَيْنَ الثَّلاثِينَ والأَرْبَعِينَ فَهو شابٌّ.

ثُمَّ كَهْلٌ إلى أنْ يَسْتَوْفِيَ السِّتِّينَ.

ثُمَّ يُقالُ شابَ، ثُمَّ شَمِطَ، ثُمَّ شاخَ، ثُمَّ كَبُرَ، ثُمَّ هَرِمَ، ثُمَّ دَلَفَ، ثُمَّ خَرِفَ، ثُمَّ اِهْتَـرَّ، ومَحا ظِلُّهُ إذا ماتَ، وهَذا التَّرْتِيبُ إنَّما هو في الذُّكُورِ.

وأمَّا في الإناثِ فيُقالُ لِلأُنْثى ما دامَتْ صَغِيرَةً طِفْلَةٌ.

ثُمَّ ولِيدَةٌ إذا تحَرَّكَتْ.

ثُمَّ كاعِبٌ إذا كَعَبَ ثَدْيُها.

ثُمَّ ناهِدٌ. ثُمَّ مُعْصِرٌ إذا أدْرَكَتْ.

ثُمَّ عانِسٌ إذا اِرْتَفَعَتْ عَنْ حَدِّ الإعْصارِ.

ثُمَّ خَوْدٌ إذا توَسَّطَتِ الشَّبابَ.

ثُمَّ مُسَلِّفٌ إذا جاوَزَتِ الأرْبَعِينَ.

ثُمَّ نَصَفٌ إذا كانَتْ بَيْنَ الشَّبابِ والتَّعْجِيزِ.

ثُمَّ شَهْلَةٌ كَهْلَةٌ إذا وجَدَتْ مِنَ الكِبَرِ وفِيها بَقِيَّةٌ وجَلَدٌ.

ثُمَّ شَهْرَبَةٌ إذا عَجَزَتْ وفِيها تَماسُكٌ.

ثُمَّ حَيْزَبُونٌ إذا صارَتْ عالِيَةَ السِّنِّ ناقِصَةَ العَقْلِ.

ثُمَّ قَلْعَمٌ ولِطْلِطٌ إذا اِنْحَنى قَدُّها وسَقَطَتْ أسْنانُها.

هذا ما ذكره الآلوسي في تفسيره روح المعاني»[١].

رزقنا الله الاتّعاظ والعمل للآخرة؛ حتى نلقى الله غير فاتنين ولا مفتونين.

(١) انظر: روح المعاني: الآلوسي: (١/ ١٥٧).

الغالبون

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

قضاءُ الله نافذ، وأمرُه غالب، ناصرٌ لأوليائه، مُعزٌّ لدينه. في هذه الآيات الكريمات وعدٌ قطعي، وإخبارٌ إلهيٌّ أن الغلبة لجنوده؛ فمَن هم جنودُ الله؟ وهل هم باقون أم رحلوا مع رسله الراحلين، وهل بقيت الأرض خالية من رسله وجنوده؟ وهل صارت بلقعًا من أنصار الله؟

إن رُسل الله -وإن انتهى زمانهم- فإن دعوتهم خالدة، ودينهم واحد، ورسالتهم باقية، يقول ابن تيمية: «من أطاع رسولًا واحدًا فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحدٍ منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحدًا منهم فقد عصى الجميع، ومن كَذَّب واحدًا منهم فقد كَذَّبَ الجميع؛ لأن كل رسول يُصدِق الآخر، ويقول: إنَّه رسولٌ صادق، ويأمر بطاعته؛ فمن كذَّب رسولًا فقد كذب الذي صدَّقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته»(١). ويقول أيضًا: «والأنبياء كلُّهم دينهم واحد، وتصديق بعضهم مستلزِمٌ تصديق سائرهم، وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم، وكذلك

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٩/ ١٨٠).

التكذيب والمعصية: لا يجوز أن يُكذِّب نبيٌّ نبيًّا، بل إن عرفه صدَّقه، وإلا فهو يصدِّق بكل ما أنزل الله مطلقًا، وهو يأمر بطاعة من أمر الله بطاعته؛ ولهذا كان من صَدَّق محمدًا فقد صَدَّق كلَّ نبي، ومن أطاعه فقد أطاع كلَّ نبي، ومن كذَّبه فقد كذَّب كلَّ نبي، ومن عصاه فقد عصى كلَّ نبي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥](١).

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، الأنبياء إخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنَّه ليس بيني وبينه نبيٌّ**(٢)**، فالدين واحد، وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾**[المائدة: ٤٨]»(٣).

إن دين الله الذي شرعه ووصَّى به رسله قد بشر الله باكتماله وتمامه ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٩/ ١٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧ رقم ٣٤٤٣).
(٣) فتاوى ابن تيمية: (١٥/ ١٥٩).

والدين الذي ارتضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لخلقه هو الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

إن هذا الدين الكامل الخالد لا بُدَّ له من قوَّةٍ بشرية تُقيم حدوده، وتطبِّق تعاليمه، وتلك القوة تستمد قوَّتها وعزَّتها من ربِّ الكون وخالق الخلق، ولهذا شرَّف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حُماة دينه بأن جعلهم جنوده، وكرَّمهم بأن نسبهم إلى ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾، وعَدَ بنصرهم وعزِّهم، وقد تحقَّق وعده؛ لقد مكَّنهم الله حين صدقوه فأعزَّهم ونصرهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وعودة للتاريخ الإسلامي، ننظر إليه منذ قيام دولة النبوة والراشدين في المدينة المنورة، لقد قامت الحضارة الإسلامية في سنوات وجيزة، وما إن تُوفي عمر بن الخطاب إلا وقد تغيَّرت الأرض، وزالت حضاراتٌ ضاربة في التاريخ، تائهة بقوتها، مُغترةٌ بزينة الحياة الدنيا، لقد جاءهم جند الله في خلافة أبي بكر وعمر؛ جاؤوهم في بِضعٍ وعشر سنوات، فأزالوا تلك القوى الظالمة، وحطَّموا تلك النفوس الطاغية، وأعلوا دين الله في أرضه، وانطلقت الحضارة الإسلامية في أرض الله، تتوالى انتصاراتها، وتتابع عزَّتها، كانوا جند الله المنصورين ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟

خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] قال: «نحن مأمورون بأن نُعدَّ العدة، وأن نقاتل، لكن إذا جاءنا ما لا طاقة لنا به حينئذٍ يأتي نصرٌ من الله ليس لنا به طاقة ولا لغيرنا، وله شواهد في التاريخ، لهذا القول الذي قلته شواهد في التاريخ؛ فموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما خرج من مصر، وكان فرعون قد جمَع له جميع أهل المدائن، كُل المدن جَمَعَهُم من أجل القضاء على موسى وقومه، وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤] ليُخفّف شأنَهم عند قومه حتى يستعدُّوا ويهموا بالقضاء عليهم، وصلوا إلى البحر، هل للإنسان طاقةٌ بالبحر؟ ليس له طاقة، ولهذا قال قومه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ لأن البحر أمامهم، وفرعونُ وجنودُه خلفهم، كيف يفتكُّون؟ قال: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، فأمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يضرب البحر، فضربه مرةً واحدةً بعصا، عصا تُحمل باليد، مرةً واحدةً فقط، فانفلق اثني عشر طريقًا يبسًا بلحظة، هذه الأرض الرطبة التي هي وحل وطين صارت بلحظة يبسًا، وهذا الماء السيَّال صار كل فرق منه كالطود العظيم كالجبل؛ جبالٌ واقفة ليست سيَّالة، حتى إن بعض العلماء يقول: إن الله جعل في هذه الكتل المائية، جعل فيها فُرجًا، حتى ينظر بنو إسرائيل بعضهم إلى بعض؛ لأن الإنسان في وسط الماء، المياه على يمينه ويساره، ويخشى أن أصحابه قد غرقوا، فجعل الله لهم فُرجًا في هذه الأطواد، ينظر بعضهم إلى بعض بلحظة، هذه لا طاقة للبشر بها، لكن من كان الله مولاه فهو منصور، خرجوا من البحر ناجين، ثم دخل فرعون وقومه، فلما دخلوا في البحر وتكاملوا داخلين، أمر الله البحر أن ينطبق بلحظةٍ فانطبق، بلحظةٍ أغرقهم، وكان فرعون قد أرعب بني إسرائيل، فأخرجه الله عَزَّوَجَلَّ لهم جسدًا ينظرون إليه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ [يونس: ٩٢] فاطمأنُّوا أنه هلك.

وفيما يُذكر من تاريخ هذه الأمة أن العلاء بن الحضرمي لما وصل إلى البحرين وجد البحر أمامه، وليس معه سفن، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ فعبَر الماء على أقدامه، والخيول والإبل كلها تمشي على الماء كأنما تمشي على صفاة؛ يعني الحجر، هذه ليس لنا بها طاقة.

وكذلك أيضًا ما يُذكر عن سعد بن أبي وقاص عند فتح المدائن، أنه وصل إلى دجلة، وهي تقذف زبدًا من قوة الجريان، والفرس عبروها بسفنهم وجسورهم، وكسَّروا الجسور وأغرقوا السفن، ولم يبقَ للمسلمين شيء يَعبرون به، فقال سعد بن أبي وقاص لسلمان الفارسي: أعطنا من آرائك؛ لأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ذا رأيٍ في الحرب، وهو الذي أشار بالخندق على المدينة في عام الأحزاب، فقال: والله لا أرى حيلةً في هذا، البحر بين أيدينا، وليس معنا سفن ولا جسور، ولكن دعني أنظر في القوم، إن كانوا على ما ينبغي وهم أهلٌ للنصرة، فليس بنو إسرائيل بأولى منا من النصرة، والله عَزَّوَجَلَّ قد فلق البحر لهم وعبروا، فذهب فوجد القوم فرسانًا في النهار ورهبانًا في الليل، في الليل ركوعًا وسجودًا، وفي النهار يصلحون معدَّات الحرب ويستعدون، فرجع إليه بعد ثلاث، وقال: إني وجدتُ القومَ على أحسن ما يرام، ولكن توكَّل على الله، فنادى سعد بالرحيل، وأنه سوف يَنْفُذُ البحرَ، وقال: إني مكبِّرٌ ثلاثًا، فإذا كبَّرت الثالثة فخوضوا البحر باسم الله، ففعلوا، فيقال: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنهم عبروا كلهم بخيلهم ورجلهم وإبلهم، حتى إن بعض المؤرِّخين ذكر أن الخيل إذا تعبت أنشأ الله لها ربوة تقف عليها وتستريح، هذا نصر ليس لنا به طاقة، لكن من الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال هنا: لا تراؤوا الكافرين، ولا تطيعوهم استجلابًا للنصر أو خوفًا منهم؛

لأن لكم وليًّا أعظم منهم عَزَّوَجَلَّ وهو الله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، هو خير الناصرين: يعني خير من ينصر، بل هو خير الناصرين وأعظم الناصرين وأقدرهم وأقواهم عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] لا أحد. انتهى ما ذكره الشيخ ابن عثيمين.

إنه حين تهتز العلاقة الربانية، يصير الضُّمُورُ والتراجع، فكما أنهم في غزوة أحد ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ معهم أصابتهم الهزيمة حين خالفوا المنهج الرباني، فهم كذلك في كل العصور ما إن يحيدوا إلا ويحل بهم الخذلان. إنه لا ناصر سواه، ووعده باقٍ بنصر منْ ينصُرُ دينَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

قال الشيخ الشعراوي رَحِمَهُٱللَّهُ: «الرسل لامحالة منصورون، والجند لا محالة غالبون، هذه كلمةٌ سبقت من الله وقضاءٌ لا يُرَد؛ لذلك أخذ العلماء وأهل المعرفة من هذه الآيات أن للجندية شروطًا، من استوفاها استحقَّ الغلبة، ومن أَخَلَّ بها استحقَّ الهزيمة؛ فحين ننظر في نتيجة معركةٍ بين مسلمين وكافرين، فإن انتصر المسلمون فاعلم أنهم حقَّقوا شروط الجندية لله، وإن هُزموا فعليهم أن ينظروا في أنفسهم ويبحثوا عن أسباب الخلل، ووجه المخالفة لقانون الجندية؛ لأنهم لو ظلُّوا على جنديتهم لله لَتَحقق لهم وعد الله بالغلبة».

الغُلول

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١-١٦٣].

.. قيمتها يسيرة، ولكن المنهج عند الله عظيم، فالأمانة أصلٌ في الشريعة الإسلامية، وصلاح المجتمعات مرهونٌ بالأمانة، وتنهار الأمم بالفساد، وتفلس الدول والشركات بالسرقة والرشوة وعدم الأمانة، وتضع كل دولةٍ القوانين لمحاربة الفساد، وتنشئ الهيئات للحدِّ منه، ويتحايل اللصوص على القوانين البشرية، وكلما كانت القوانين قويَّة وتطبيقاتها حازمة كلما سمعنا الإشادة والثناء بتلك القوانين وبهاتيك الدول. ونقرأ عن تصنيف الدول في الشفافية وترتيبها في النزاهة، ويتألَّق اقتصاد دول النزاهة والشفافية، وتزدهر مجتمعاتها، وتستقر أحوالها، ولئن تَغنَّى المادحون بقوانين تلك الدول، وأشادوا بنظامها، فإن لدينا في الإسلام قانون السماء الذي أعلى من شأن النزاهة، وحذَّر من الفساد، ومنع التحايل.

إن دين الله كاملٌ خالد، أوامره ونواهيه لكل فردٍ مسلم، إذا استقام الواحد وصلح سلم المجتمع كلُّه ونجا، فهو لكل زمان ولكل مكان،

وجـاء القانـون الإسـلامي فـي بداية تكويـن الدولـة الإسـلامية فحدَّ من الفساد، وكانت البداية لرأس الدولة، فالنزاهة تبدأ منه. قِيل: فَقَدَ الصحابة قطيفـةً حمراء، قطعة قماشٍ في أول المعارك الإسـلامية، في معركة بدر، فهمس هامس أن قد يكون رسول الله ﷺ أخذها؛ فنزل القرآن فورًا ليوضِّح المنهج، ويقرِّر الشفافية، ويحمي الأموال العامة.

إن آية الغلول الكريمة جاءت مع بداية تأسيس الدولة الإسـلامية في المدينة المنـورة، وخَصَّت نبي الله ﷺ بالذكر ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾؛ أي لا يمكن أن يسـرق النبي، ويختلس قطعة قماش لا قيمة لها ولا وزن، إنـه القائـد والرجل الأول، هـو القدوة وهو الأسـاس (إذا صلـح الراعي صلحت الرعية).

إن رضوان الله لا يتحقَّق إلا باتِّباع أوامره واجتناب نواهيه، فالله من فوق سبع سماواته يحذِّر من الغُلُول، ويُخوِّف من السرقة، وينهى عن الرشوة، فمن زَجَرَ نفسه واتبع أمر الله نجا، ومن خالفه باء بسخطٍ من الله، فكل شيءٍ مُسجَّل؛ لك أو عليك، ويؤكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أهل الخير وأهل الشر درجات؛ فكلما زاد عفافك وتحوّطك كلما زادت درجاتك عند ربك. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصيرٌ عليمٌ سـميعٌ لا يعزب عنه مثقال ذرَّة ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، ويؤكِّـد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآية التي بعدها على مَنِّه وفضله على أمة الإسلام أن بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم كتابه الخالد، ويوضِّح لهـم الحلال والحـرام، الخطأ والصـواب، يقول تعالـى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

عن أبي حُميد الساعدي قال: استعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا من الأزد يُقال له: ابن اللُتْبيَّة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر، فقال: «**ما بال العامل نبعثه، فيجيء فيقول: هذا لكم، وهذا أُهدي لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه، فينظر أيُهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمدٍ بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر. ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت. ثلاثًا**»(١).

إن هذا الحديث الشريف وغيره من أحاديث أخرى تغيب عن كثيرٍ من المسلمين، ويجهلها الأغلبية، وإن الواجب شرحها وإيضاحها للناس ليعلم كل مسلم عِظَم الأمانة، وعاقبة الفساد، فالشيطان حريصٌ على الغواية والضلال، وعلى التلبيس والتدليس، وعلى التحايل والتبسيط، وقانا الله شرَّه ووسوسته.

إن هذه الآية العظيمة -وإن خَصَّت النبي بالذكر- فهي لكل المسلمين حكَّامًا ومحكومين، رؤساء ومرؤوسين. ﴿**وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ**﴾. إن الفاسد المرتشي يتخفَّى ويخشى الفضيحة من الناس، لكنَّه يغفل عن الفضيحة الكبرى؛ فيوم القيامة فضيحته أشهر، وعقابه أشنع؛ فعلى رؤوس الخلائق يُنادَى باسمه، وتهتف الملائكة بسرقته ورشوته، وينال جزاءه، ولا ينفع الندم، ولا تفيده الحسرة؛ استمتَع بالمال في دنياه وقتًا وجيزًا ثم تركه للوارث، وهناك في

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٧٠ رقم ٧١٧٤).

الآخرة وجد كل شيء ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. إذا كان وزن الذَّرَّة من أعماله مُسجلًا وسيراه، فكيف يجرؤ على سرقة المال الحرام واختلاس المال العام.

لقد رَبَّت هذه الآية الكريمة وتلك الأحاديث الجليلة أُمَّة الإسلام الأولى؛ فأتوا بالعجائب في حفظ الأمانة، وسادوا الدنيا بعدالتهم وورعهم، فحين حُملت الغنائم إلى عمر بن الخطاب بعد معركة القادسية، وفيها تاج كسرى برونقه وبهائه، وجماله وإغرائه، وثمنه الذي لا يُقوَّم، نظر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لتلك الغنائم وذاك التاج، وقال في غبطةٍ وسرور كلمته المشهورة: «إنَّ قومًا أدَّوا هذا لأميرهم لأمناء»[1]. تضحيةٌ عند المغرم، وعفافٌ عند المغنم، وتلك من شيم النفوس أن تترفع عما يشينها، وقد كان الأبطال المشهورون من العرب يعفُّون عند الغنائم؛ صيانةً لأنفسهم عن انحراف المسار في بلوغ الغاية العليا التي يطمحون إليها.

ولذا رأينا من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من استوعب معاني هذه الآيات الكريمات، فغلب بريق إيمانه على بريق المادة؛ وقدَّموا نماذج فريدة في العفاف وشيم النفوس، ورضوا بحياة الفقر والفاقة مقابل أن تحيا المبادئ وتسود القيم، فكانو خير قدوة. «وَفِدَ على أمير المؤمنين وفدٌ من حِمص يثق بهم، فقال لهم: اكتبوا لي أسماء فُقرائكم حتى أَسدَّ حاجتهم. فرفعوا كتابًا فإذا فيه: فُلانٌ وفُلانٌ، وسعيد بن عامر.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: (١٠/ ٩).

فقال: وَمَن سعيد بن عامر؟!

فقالوا: أميرُنا.

قال: أميركم فقير؟!

قالوا: نعم، ووالله إنّه لَتَمُرُّ عليه الأيام الطوال، ولا يُوقَد في بيته نار.

فبكى عُمر حتى بَلَّلَت دموعُه لِحيَتَه، ثم عَمَدَ إلى ألف دينارٍ فجعلها في صُرَّةٍ، وقال: اقْرؤوا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ منِّي، وقولوا له: بَعَثَ إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجاتك.

جاء الوفد لسعيدٍ بالصُّرَّة فنظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يُبعدها عنه وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون -كأنما نزلت به نازلة أو حلَّ بساحته خَطب- فهَبَّت زوجته مذعورةً، وقالت: ما شأنُك يا سعيد؟!... أمات أمير المؤمنين؟!

قال: بل أعظم من ذلك.

قالت: أَأُصيب المسلمون في وَقْعة؟!

قال: بل أعظم من ذلك.

قالت: وما أعظم من ذلك؟!

قال: دَخَلَتْ عليَّ الدنيا لتُفسد آخرتي، وَحَلَّت الفتنة في بيتي.

قالت: تخلَّص منها -وهي لا تدري من أمر الدنانير شيئًا-.

قال: أَوَ تُعينينِي على ذلك؟

قالت: نعم.

فأخذ الدنانير فجعلها في صُرَرٍ، ثم وَزَّعها على فقراء المسلمين»[١].

لقد كان المسلمون الأوائل يعيشون تلك القيم، ويجسِّدونها حقيقة، فكانت أخلاق التجار الذين انداحوا في شرق آسيا سببًا في هداية تلك الأمم وإسلامهم، كان المسلم يعيش الإسلام حقيقةً وسلوكًا، وكانت الآخرة في حسِّه واقعًا، ويوم العرض الأكبر شاخصًا بين عينيه، هذه قيمنا الخالدة، وذاك طريق النجاة.

(١) صور من حياة الصحابة: (١/ ٢٥-٢٦).

الفتنة

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ١-٥].

هذه الآيات بداية سورة العنكبوت تعرض لجيل الصحابة، ونحن من بعدهم أن الابتلاء أمرٌ قد قضاه الله وقدَّره، وتُبشِّر بعاقبة الصبر، وتحثُّهم على التحمل، وتقصُّ لنا هذه السورة ابتلاءات أنبياء الله السابقين وصبرهم على أذى أقوامهم. إنَّ مهر الجنَّة غالٍ، وطريقها صبرٌ وعملٌ. إنَّ الإيمان بالله ليس كلمة باللسان، بل هو قولٌ وعملٌ، اعتقادٌ وثبات، عملٌ يستمر معك حتى لحظة الغرغرة، وأنت تعمل لرضا الله فتتشهد؛ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، عملٌ وصبرٌ منذ بلوغ سن الرشد، والعمل للجنة يلازمك، فلا تغفل وتسترخي، وهو طريقٌ تعترضك فيه ابتلاءاتٌ، فهل تصبر؟ طريقٌ تهزُّك فيه محنٌ، فهل تصْمُد؟ رضا الله هدفك، وطاعتُهُ منهجك! وتحمُّلُ الأذى في سبيله خُلُقُك، نسأل الله الثبات والتثبيت ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

إن مطلع هذه السورة الكريمة يُنبِّه لرحلة العمر، فليست سالكةً سَلِسَة؛ فسوف يمرُ بنا كما مرَّ برسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وقبلهم أنبياء الله ورسُله من تمحيصٍ وشدة، امتحانٌ بعده امتحان، وابتلاءٌ يعقبه ابتلاء. إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكرم عباده المسلمين بقرآنه العظيم، فكشف به لهم الطريق، وأنار لهم العقل. إن في هذه الآية تحذيرًا وحثًّا؛ تحذِّرنا من الانهزام والانحراف والغواية، وتحثُّنا على الصبر والثبات ورضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. قال الشيخ ابن سعدي: «يُخبرُ تعالى عن تمام حكمته، وأنَّ حكمته لا تقتضي أنَّ كلَّ مَن قال: إنَّه مؤمن، وادَّعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يَعرضُ لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمُحق من المُبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يَثْبتُ إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكًّا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصرفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله؛ فمستقلٌّ ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها»(١).

قال ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر: «يَبِينُ إيمانُ المُؤمن عند الابتلاء، فهو يُبالغ في الدعاء ولا يرى أثرًا للإجابة، ولا يتغير أملهُ ورجاؤهُ ولو قَوِيتْ أسبابُ اليأس؛ لعلمِه أن الحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان فإنه لم يُحكمْ عليه بذلك، إلا وهو يُريدُ من القلب التسليمَ، لينظر كيف صبرُه، أو يُريد كثرة اللُّجوء والدعاء، فأما من يُريد تَعجيل الإجابةِ ويتذمرُ إن لم تتعجل فذاك ضعيفُ الإيمان، يرى أن له حقًّا في الإجابة، وكأنه يتقاضى أُجرة عمله، أما سمعت قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ بقي ثمانين سنة في البلاء، ورجاؤه لا يتغير، فلما ضُمَّ إلى فَقْدِ يوسف، فَقْدَ بنيامين لم يَتغيرْ أملُه، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومعلوم أن هذا لا يصدر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص٦٢٦).

ومن هذا قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**».

قيل له: وما يستعجل؟

قال: يقول: دعوت فلم يستجب لي[(١)].

فاياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله، وإن طال البلاء».

قال ابن قيِّم الجوزية: «الفتنة كيرُ القلوب، ومحكُّ الإيمان، وبها يتبيَّن الصادق من الكاذب؛ فالفتنة قسمت الناس إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمن ومنافق، وطيبٍ وخبيثٍ؛ فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها»[(٢)].

ويخبرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لاقاه من أذى قريش فيقول: «**لقد أُخِفتُ في اللهِ وما يُخافُ أحدٌ، ولقد أوذيتُ في الله وما يُؤذى أحدٌ، ولقد أتت عليَّ ثلاثونَ من بينِ يومٍ وليلةٍ وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأْكلُهُ ذو كبدٍ، إلَّا شيءٌ يواريهِ إبطُ بلالٍ**»[(٣)].

ولقي المسلمون الأوائل الأذى، وفُتنوا في دينهم، وعُذب عددٌ منهم، وكان الحصار الاقتصادي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام في شِعب أبي طالب، دخلوا الوادي وظلُّوا فيه محاصرين، فاشتدَّ عليهم البلاء

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٩٦ رقم ٢٧٣٥).

(٢) تفسير ابن قيم الجوزية: (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٩/ ٢٤٥ رقم ١٢٢١٢)، والترمذي (٤/ ٦٤٥ رقم ٢٤٧٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه ابن حبان (١٤/ ٥١٥ رقم ٦٥٦٠)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص ١٥٠).

والجهد والجوع، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجالٌ من قريش على ما حدث، وأجمعوا على نقض الصحيفة، وقد أعلمهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه لم يبق فيها سوى كلمات الشرك والظلم، وانتهت المقاطعة.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «سألتُ رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ فقال: **لقد لقيتُ من قومكِ، وكان ما أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَة**[١]**، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال**[٢]**، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أسْتَفِق إلا بقرن الثعالب**[٣]**، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **قد سمع قول قومِك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، قد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئتَ أن أُطبق عليهم الأخشبين**[٤]**؟** فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا**»[٥].

هذا حبيبنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمرُّ به هذه الفتن فيصبر ويحتسب، وتكون العاقبة الخير للإسلام والمسلمين، ومنه نتعلم، وبه نقتدي ونصبر. وفي دروس صحابته الكرام وما لقوه من فتنةٍ وأذى عبرةٌ وعظة، فالصبر

---

(١) المقصود: عقَبَة الطائف.

(٢) من أكابر أهل الطائف.

(٣) هو قرن المنازل ميقات أهل نجد.

(٤) جبلان بمكة.

(٥) أخرجه البخاري (٤/ ١١٥ رقم ٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠ رقم ١٧٩٥).

الصبر! يُروى عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أنها قالت لمعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «مَن أرْضى اللهَ بِسَخَطِ النّاسِ كَفاهُ الله مُؤْنَةَ النّاسِ، ومَن أرْضى النّاسَ بِسَخَطِ الله لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ الله شَيْئًا»(١).

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٠٩ رقم ٢٤١٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨/ ١٥٣٣ رقم ٢٧٨٨).

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group
إحدى شركات
العبيكان للنشر
Obeikan Publishing
من إصداراتنا
تذكر عندما لم يكن يؤلم
8 خطوات للتحرر من آلام الظهر
أثر الهدوء!
كيف تكون انبساطيًا ناجحًا...
سلفيا لويهكن
عزيزة مصطفى عادي
طبعة منقحة وجديدة
تاريخ
المملكة العربية السعودية
الجزء الأول
عبدالله الصالح العثيمين
حسن كمال محمد محمد
أشجان بلا شطآن
(ديوان شعر)
أدب الأطفال
بحوث ودراسات
مجموعة مؤلفين
أطلس
الفرق والمذاهب
في التاريخ الإسلامي
تأليف وتصميم
سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث
Follow Us
obeikn reader
obeikanpub
كتبنا الصوتية
storytel
Kitab Sawti
كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazonkindle
لخدمات البيع والتوصيل
نون noon
رواق
سوق

قالت نملة

قال تعالـى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٧-١٩].

قالـت نملـة، أيُّ نُطْقٍ وأيُّ لُغـةٍ كان ذلك القول! لو جـاء خبرُ النملةِ، وأنهـا تكلمت فـي غير القرآن، لما صدقنـا أن تتكلم النملـةُ وتنطقُ! فهل لها لسانٌ وبأي لغة تكلمت، وهي صغيرة ضعيفة لو صدر منها صوت لما سُـمع! لكن أما وقد جاء الخبر اليقين في القرآن الكريم فذاك حق لا ريب فيه!

قالت نملـةٌ، والقولُ يتمُ بعد علمٍ ومعرفةٍ، إن تلكَ النملة استشـعرت الخطـر عن بُعد، فنادت بني جنسـها بالوسـيلة التي تتفاهـم بها جماعات النمـل، وسـمى الله ذلـك التفاهـم بالقـول، قالـت: يا أيها النمـل ادخلوا مسـاكنكم، إذًا لهـم مسـاكن يعرفونهـا؛ يخرجـون منها وإليهـا يعودون، ونبهتهـم لبـلاءٍ قريب، وحين نـادت جموعَ النمل مـن حولها، وأوصتهم بدخول المسـاكن، بيَّنتْ سـببَ خوفها وطلبها منهم الدخول، لقد عرفت

أن القادمَ نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كيف عرفتِ اسمه وكيف علمت أن معه جنوده، سبحان الذي أعطي كل شيء عِلْمَهُ وعلَّمَهُ. قالت النملةُ: إن لم تختبؤا وتهربوا فسيحطمكم سليمان وجنوده، فأنتم معشر النمل ضعاف لا تتحملون قوة القادمين، فمصيركم الهلاك والتحطيم، ولئن أتلفكم سليمان وجنوده وحطموكم فليس ذاك منهم بقصد وإرادة؛ اعتذرت للقادمين أنهم لا يشعرون ولا يعرفون بوجودكم يا معشر النمل.

هذا الحديث النملي لا تقبله عقول البشر؛ ولذا يسخر منه الكفار والملحدون، ويصدقه المسلمون الموحدون! إن خالق النمل والبشر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله قادر على كل شيء؛ فهو المُعلم الأول، علم الإنسان ما لم يعلم، وعلم غيره من المخلوقات، وجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لتلك المخلوقات لغة تواصل، ويسر لها منطقًا خاصًّا بها، علمه نبيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] جاء في لسان العرب: «رُوي عن قتادة في قوله: عُلِّمْنا مَنْطِق الطير، قال: النَّمْلة من الطير».

هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القادر على كل شيء؛ إنها أمور غيبية، فوق الإدراك البشري، يجب علينا تقبلها والتصديق بها! ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

إنها القدرة الإلهية، فكل مخلوقاته، خلقها وعلَّمها علمًا يُناسبها، هي أُمم أُخرى تماثلنا نحن البشر، وإلى ربها تُحشر، كما نُحشر نحن البشر ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وجميع مخلوقاته تسبح لـه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وحين لا نفقه ذاك التسبيح فلا يعني ذلك إنكاره ونفيه.

إن نبي الله سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين عَلَّمَهُ اللهُ، وفَهِمَ حدِيثَ النملةِ، تبَسَّم شاكرًا لله أن خصَّهُ وأكرمهُ بهذا العلم، وبهذا الإدراك المعرفي لِما قالتهُ النملة لبني جِنسها، عِلمٌ ما ناله أحدٌ قبله، ولن يناله أحدٌ بعده. لقد شكر الله ودعاه، هؤلاء أنبياء الله ورسله يشكرون الله ويدعونه كل حين وفي كل حالة، وكل كلمة في دعائه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تتضمن معنىً له دلالته ودِقَّته، نادى ربَّه، تذللًا ورقة، قال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، وفي قواميس اللغة كلمة ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ بمعنى استوزعت الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني، والوزع كف النفس عن هواها، بهذه الكلمة يرجو الله أن يكفه عن الأشياء إلا شكر نعمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأدخل والديه في دعوته، وسأل ربه عونه ليعمل، وأن يكون العمل صالحًا، فقد يعمل الإنسان ويكون عمله فاسدًا ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، وسأل ربه رضاه عن ذاك العمل الصالح، قال: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾، ثم ختم دعوته أن يدخله الله برحمته في عباده الصالحين.

إن تَأَمُّلَ دُعَاء أنبياءِ الله ورُسُله، وتَدَبُّر رجائهم هدايةٌ لنا ونور، رزقنا الله الاقتداء بهم.

إن في تدبر هذه الآية دروسٌ وعِبر، نملةٌ لا يمنحها البشر أي اهتمام ويذكرها القرآن، وفي ذلك تنبيهٌ بأن لا يغتر الإنسان بجاهه وسلطانه، فالحكمة قد تأخذها من نملة، نملةٌ تهتم ببني جنسها وتغار عليهم

فتُحذرهم وتأمرهم بالنجاة، فهل نتعلم ونُقدم الإحسان للآخرين كما النملة!

نملةٌ أعطت نبي الله سليمان درسًا بالرفق ورحمة الضعيف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، فيبتسم من قولها، ويتعلم منها الرفق والتؤدة، هو درسٌ لكل صاحب سلطة أن يترفق ويتحسس الصغير والضعيف، نملةٌ يشاء الله أن تكون عظتها في القرآن مع نبي الله سليمان، مع النبوة والملك، فهل نسترشد بمنهج النملة في التعامل مع ذوي القَدْرَ والفَضْل، فلا نُشنع عليهم، ونحكم عليهم بالسوء، فهذه النملة لم تَقُل السوء في نبي الله سليمان وجنوده، وإنما التمست لهم العُذر.

جاء في مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ): ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ المَعنى أَنَّها تَكَلَّمَتْ بِذَلِكَ، وهَذا غَيرُ مُسْتَبْعَدٍ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى قادِرٌ على أنْ يَخْلُقَ فِيها العَقْلَ والنُّطْقَ. وعَنْ قَتادَةَ: أَنَّهُ دَخَلَ الكُوفَةَ فالتَفَّ عَلَيْهِ النّاسُ فَقالَ: سَلُوا عَمّا شِئْتُمْ، وكانَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حاضِرًا وهو غُلامٌ حَدَثٌ، فَقالَ: سَلُوهُ عَنْ نَمْلَةِ سُلَيْمانَ أكانَتْ ذَكَرًا أمْ أُنْثى؟ فَسَأَلُوهُ فَأُفْحِمَ، فَقالَ أَبو حَنِيفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كانَتْ أُنْثى، فَقِيلَ لَهُ: مَن أَيْنَ عَرَفْتَ؟ فَقالَ مِن كِتابِ اللهِ تَعالى وهو قَوْلُهُ: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾، ولَوْ كانَ ذَكَرًا لَقالَ (قالَ نَمْلَةٌ)، وذَلِكَ لِأَنَّ النَّمْلَةَ مِثْلُ الحَمامَةِ والشّاةِ في وُقُوعِها عَلى الذَّكَرِ والأُنْثى، فَيُمَيِّزُ بَيْنَهُما بِعَلامَةٍ نَحْوُ قَوْلِهِمْ حَمامَةٌ ذَكَرٌ وحَمامَةٌ أُنْثى وهو وهي.

هذا وبالله التوفيق.

قَدَّرَ فَهَدَى

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣].

نقرأ هذه السورة الكريمة في الوتر، ويقرأها الأئمة في صلاة الجمعة اقتداءً برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أن التدبر والتفكر قليل.

توقفتُ ذات مرة متدبرًا قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، كلمتان عظيمتان جليلتان، قدَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفورًا هدى، نظرت في معاجم اللغة العربية، وتفاسير بعض العلماء، وإذ بهم قد أطنبوا في الحديث والبسط في دلالتهما.

جاء في قاموس اللغة (لسان العرب) القَدِيرُ والقادِرُ: من صفات الله عَزَّوَجَلَّ يكونان من القُدْرَة ويكونان من التقدير.

وقوله تعالى: إِن الله على كل شيء قدير؛ من القُدْرة، فالله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قدير، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُقَدِّرُ كُلِّ شيء وقاضيه.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾:

قدَّرَ كلَّ شيءٍ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، قدَّره في حاله وفي مآله، في ذاته وفي صفاته، كلُّ شيءٍ له قَدْرٌ محدودٌ،

الآجال محدودة، الأحوال محدودة، الأجسـام محدودة، كلُّ شـيءٍ مقدَّر تقديرًا كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

وقولـه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ يشـمل الهداية الشـرعية والهدايـة الكونيـة: الهداية الكونية أنَّ الله هدى كلَّ شيءٍ لِمَا خُلِق له؛ قال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. تجد كلَّ مخلـوقٍ قد هداه الله تعالى لِمَـا يحتاج إليه، الطفل الآن.. انظر إلى الطفل إذا خـرج من بطن أمِّـه وأراد أن يرضع، هل فيه أحد يقول: ارفعْ رأسَـك، ارضـعْ من الثـدي؟ لا. ولو كان أرشـده أحد ما فَقَه، لكـن يهديه الله عَزَّوَجَلَّ إلـى هذا الثدي يرتضـع منه. وانظر إلى أدنى الحشـرات؛ النمل مثلًا، أين تضـع بيوتها؟ لا تضـع بيوتها إلا في مكانٍ مرتفعٍ مـن الأرض، على ربوةٍ من الأرض، لماذا؟ تخشـى من السـيول تدخل بيوتها فتُفسـدها، أيضًا إذا جـاء المطـر وكان في جحورها أو في بيوتها طعامٌ مـن الحبوب تخرج به إذا طلعت الشـمس تنشـره، لمـاذا؟ لئلَّا يعفن، وهي قبـل أن تدَّخره تأكل أطرافهـا -أطرافَ الحبَّة- لئلَّا تنبت فتفسـد عليهم، هذا الشـيء مشـاهَد مجرَّب، مَـن الذي هداها لذلـك؟ هداها الله عَزَّوَجَلَّ، هذه هدايـة كونية؛ أنَّه هَدَى كلَّ مخلوقٍ لِمَا يحتاج إليه.

أمَّا الهداية الشـرعية -وهي الأهمُّ بالنسـبة لبنـي آدم- فهي أيضًا بيَّنها الله عَزَّوَجَلَّ، حتـى الكفَّار قـد هداهم الله؛ يعني بيَّن لهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، والعياذ بالله، استحبُّوا الكفرَ على الإيمان.

الهدايـة الشـرعية هـي المقصودة مـن حياة بنـي آدم؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٦٥]، وإنما أخبرنا الله بذلك لأجل أن نلجأ إليه في جميع أُمورنا؛ إذا عَلِمنا أنَّه هو الخالق بعد العَدَم وأصابنا المرض إلى مَن نلجأ؟ نعم، إلى الله، الجأْ إلى الله؛ لأنَّ الذي خَلَقك وأَوْجدك من العدم قادرٌ على أن يصحِّح بَدَنك، إذَن الجأ إلى ربك، اعتمدْ عليه، ولا حرج أن تتناول ما أباح لك من الدواء لكنْ مع اعتقاد أنَّ هذا الدواء مثلًا سببٌ من الأسباب جَعَله الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا شُفيتَ بهذا السبب فمَن الذي شفاك؟ الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي جعل هذا الدواءَ سببًا لشفائك، ولو شاء لَجعل هذا الدواء سببًا لهلاكك، فإذا عَلِمنا أنَّ الله هو الخالق، فنحن نلجأ في أمورنا كلِّها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، إذا عَلِمنا أنه هو الهادي فإننا نستهدي بهدايته، بشريعته؛ حتى نَصِل إلى ما أعدَّ لنا ربُّنا جَلَّوَعَلَا من الكرامة. نسأل الله تعالى أن يهدينا وإيَّاكم الصراط المستقيم، وأن يُحِلَّنا وإيَّاكم دارَ كرامته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

جاء في التفسير الكبير لابن تيمية قال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ يتضمن أنه قدَّر ما سيكون للمخلوقات، وهداها إليه، علم ما يحتاج إليه الناس والدواب من الرزق فخلق ذلك الرزق وسواه، وخلق الحيوان وسواه وهداه إلى ذلك الرزق، وهدى غيره من الأحياء أن يسوق إليه ذلك الرزق، وخلق الأرض، وقدَّر حاجتها إلى المطر، وقدَّر السحاب وما يحمله من المطر، وخلق ملائكة هداهم ليسوقوا ذلك السحاب إلى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره، وقدر ما نبت بها من الرزق، وقدَّر حاجة العباد إلى ذلك الرزق، وهداهم إلى ذلك الرزق، وهدى من يسوق ذلك الرزق إليهم.

وقد ذكر المفسرون أنواعًا من تقريره وهدايته، فروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهما، بالإسناد الثابت عن مجاهد في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال: الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها، وكذلك رواه عبد بن حميد في تفسيره، قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتعها.

وقال حدثنا يونس، عن شيبان عن قتادة ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال: لا والله. ما أكره الله عبدًا على معصية قط ولا على ضلالة، ولا رضيها له، ولا أمره، ولكن رضي لكم الطاعة فأمركم بها، ونهاكم عن معصيته.

أقوالٌ متعددة، وتفاسيرٌ متقاربة، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ذات مرة كنتُ في المزرعة، وإذ بي أرى في حظيرة الأغنام شاةً تلد، وفور سقوط وليدها يبادر الصغير برفع رأسه يتحسس ثدي أمه! سبحانك ربي من علمه؟ من هداه؟ من دله؟ من أرشده؟ وتحركتُ نحو النخيل وإذا بالطيور تتناغى على الأشجار متآلفة، وتُسرع نحو صغارها تحمل بمناقيرها غذاء الصغار، سبحان من هداها وعلمها! وكل مخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتوالد وتتغذى وتعيش بهديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل تسبح بتعليمه وهديه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

القرض الحسن

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

نداءٌ ربَّاني لنا للبذل في وجوه الخير، فهل نستجيب! وهل نغلب شُحَّنَا وحُبَّنَا للدنيا! نداءٌ إلهي لذوي العقول والأفهام! فهل نُسارع! أم تكون عقولنا مع المال كالأنعام، صمٌ بكمٌ عُميٌ لا نعقل! نداءُ حقٍّ، ووعدُ صدقٍ؛ تنفق ريالًا فتجده يوم التغابن أضعافًا كثيرة! ضمانٌ ربَّاني، فهل نُمسكُ ونتناسى، أم نجود ونبذل!

هو كتاب الله كلما قرأناه وجدنا فيه منهج السعادة الدنيوية، وطريق السعادة الأخلد والأبقى ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]. هو القرآن الهادي لصلاح المجتمع المسلم، وبناء العلاقات الإنسانية الناعمة بين الأفراد ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. تتعدد فيه الآيات التي تسمو بغرائزنا الدنيوية، وتكبتُ فينا سَجِيَّة الشُح والتَّقْتير، وتدفع الإنسان للإيثار والسخاء، فالتَّغول المادي مرضٌ نسأل الله السلامة منه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. لقد حرَّم الإسلام الربا، وأجاز التبايع ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وحثَّ على التسامح. روى البخاري وابن ماجه عن جابر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

«رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى»[1].
إن السماحة هديٌ ربَّاني، ودعوة نبوية، فالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تحثُّ على الجود والصدقة وعدم المَنّ، وبلغ الترغيب الربَّاني في السخاء أن جعل الإنفاق في وجوه الخير قرضًا حسنًا، ومعلومٌ أن القرض يَلزمُ إعادته، فكيف إذا كان حسنًا؟ فالوفاء آكدُ وأثْبَتْ.

إن القرض في التعامل البشري حاجةٌ مادِّيةٌ بين مُقرِضٍ ومُقترِض، واجبة السداد في مدَّةٍ يتَّفق عليها الطرفان، وغالبًا ما يرتهنُ المُقرِضُ شيئًا أثمن من القرض ذاته، والقرض؛ إمَّا يكون بفائدة جائزة وفق إجراء شرعي فصَّلهُ الفقهاء، أو بفائدةٍ رِبوية حرَّمها الإسلام، أو بدون فائدة وهي القرض الحسن. وكثيرًا ما عانى المقترضون، وعجزوا عن أداء قروضهم، فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوفِّي ودرعه مرهونة عند يهودي. وقد حثَّ ديننا الحنيف على تفريج الكُرب؛ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«منْ فَرَّجَ عن أخيه المؤمن كُربةً من كُرب الدنيا فرَّج الله عنه كُربةً من كُرب يوم القيامة، ومن ستر على مسلمٍ ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عونٍ أخيه»**[2]. وجاء القرض الحسن في القرآن الكريم ﴿**وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾ [المزمل: ٢٠]. عن ابن مسعود أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ما مِن مُسلمٍ يُقرِضُ مُسلمًا قَرْضًا مرَّتينِ، إلَّا كان كصدَقَتِها مرَّةً»**، وفي رواية: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنَّ السَّلَفَ يَجْري مَجْرى شَطْرِ الصَّدَقةِ»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٥٧ رقم ٢٠٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٨ رقم ٢٤٤٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٤ رقم ٢٦٩٩) واللفظ له.
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٨٠-٨٢ رقم ٣٩١١)، وابن ماجه (٢/ ٨١٢ رقم ٢٤٣٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٢٢٥).

وتكررت آيات الحثِّ على الإقراض الحسن، وذلك باستعمال صيغة الإقراض المسند إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الغني عن خلقه؛ فأن يُقرض البشرُ ربَّهم تعبيرٌ شريف يوحي بالحثِّ على بذل المال للمحتاجين، وإنفاقه في وجوه الخير، علاوةً على ما في الإقراض الحسن من علاج لداء الشحِّ والبخل، وتنميةٍ للحبِّ والودِّ في المجتمع المسلم، وليس هناك أفضل من سُقيا بذور الخير وريِّها بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]. جُدْ بمالِك، تجد أضعافه ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]. وعودٌ ربَّانية ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]. وبعد أن نزلت هذه الآيات في المدينة المنورة وسمعها المسلمون واليهود؛ كان التصديق والتكذيب، السخرية والتطبيق؛ فاليهود تطاولوا على الذات الإلهية. ورد في تفسير ابن كثير: «عن عكرمة أنه حدَّثه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: دخل أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بيت المدراس، فوجد من يهود أناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يُقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبرٌ يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص، اتقِ الله وأسلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله -يا أبا بكر- ما بنا إلى الله من حاجةٍ من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان عنَّا غنيًّا ما استقرض منَّا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم

عن الربا ويعطناه، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أبصِر ما صنعَ بي صاحبك. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر: «**ما حملك على ما صنعت؟**» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولًا عظيمًا، زعمَ أن الله فقير وأنَّهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص ردًّا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿**لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ**﴾ [آل عمران ١٨١]. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ»[١].

هؤلاء هم اليهود في ذلك الزمان، وتلك طباعهم؛ كذبٌ وجحود، وغدرٌ وخيانة، ولا زالوا كما هُم، كفانا الله شرَّهم، أما المسلمون فحين سمعوا هذه الآيات النادبة للإقراض تسابقوا يجودون بمالهم. جاء في تفسير القرطبي، ما روي عن عبدالله بن مسعود قال: «لما نزلت: ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ قال أبو الدحداح: يا رسول الله، أو إن الله تعالى يريد منا القرض؟ **قال: نعم يا أبا الدحداح**، قال: أرني يدك، قال فناوله، قال: فإني أقرضت الله حائطًا فيه ست مئة نخلة. ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأمُّ الدحداح فيه وعياله، فناداها: يا أمَّ الدحداح، قالت: لبَّيك، قال: اخرجي، قد أقرضت ربّي عَزَّ وَجَلَّ حائطًا فيه ست مئة نخلة. وقال زيد بن أسلم: «لما نزل: ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ قال أبو الدحداح:

---

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ١٥٥-١٥٦).

فداك أبي وأمِّي يا رسول الله، إن الله يستقرضنا، وهو غنيٌّ عن القرض؟ قال: «**نعم، يريد أن يدخلكم الجنَّة به**». قال: فإنِّي إن أقرضت ربي قرضًا يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة؟ قال: «نعم» قال: فناولني يدك، فناوله رسول الله ﷺ يده: فقال: إن لي حديقتين؛ إحداهما بالسافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضًا لله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «**اجعل إحداهما لله، والأخرى دعها معيشةً لك ولعيالك**». قال: فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائطٌ فيه ست مئة نخلة. قال: «إذًا يجزيك الله به الجنة».

فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول:

هداكِ ربِّي سبلَ الرشادِ ... إلى سبيلِ الخيرِ والسدادِ
بِيني من الحائطِ بالودادِ ... فقد مضى قرضًا إلى التنادِ
أقرضتُه اللهَ على اعتمادي ... بالطَّوعِ لا مَنٌّ ولا ارتداد
إلا رجاءَ الضعفِ في المعاد ... فارتحلي بالنَّفسِ والأولادِ
والبِرُّ لا شكَّ فخيرُ زاد ... قدَّمهُ المرءُ إلى المعادِ

قالت أمُّ الدحداح: رَبِح بَيْعُك، بارك الله لك فيما اشتريت، ثم أجابته أمُّ الدحداح، وأنشأت تقول:

بشَّركَ اللهُ بخيرٍ وفرَح ... مثلُك أدَّى ما لديهِ ونَصَح
قد متَّعَ اللهُ عيالي ومنَح ... بالعجوةِ السوداءِ والزَّهوِ البلح
والعبدُ يسعى ولهُ ما قد كدَح ... طولُ الليالي وعليهِ ما اجترح

ثـم أقبلت أمُّ الدحـداح على صبيانها تُخرج ما فـي أفواههم، وتنفض ما فـي أكمامهم حتى أفضت إلـى الحائط الآخر، فقـال النبي ﷺ: «**كم من عذق رداح، ودار فياح لأبي الدحداح**»[1].

جـاء في كتـاب تاريخ بغداد فـي ترجمة دعلج بن أحمد السجسـتاني أن رجـلًا قال: «حضـرت يوم الجمعة مسـجد الجامع بمدينـة المنصور، فرأيـت رجـلًا بين يـديَّ في الصف حسـن الوقـار، ظاهر الخشـوع، دائم الصلاة، لم يزل يتنفَّل مذ دخل المسجد إلى قرب قيام الصلاة، ثم جلس. قـال: فعلتني هيبته، ودخـل قلبي محبَّته، ثم أُقيمت الصـلاة فلم يُصلِّ مع النـاس الجمعـة، فَكَبُرَ عليَّ ذلك مـن أمره، وتعجبتُ مـن حاله، وغاظني فعلـه، فلما قُضيـت الصلاة تقدَّمتُ إليـه، وقلتُ له: أيُّهـا الرجل ما رأيت أعجـب من أمرك! أطلت النافلة وأحسـنتها وتركـت الفريضة وضيَّعتها؟ فقـال: يا هذا إن لي عُـذرًا، وبي عِلَّة منعتني عن الصـلاة، قلت: وما هي؟ فقال: أنا رجلٌ عليَّ دَين اختفيت في منزلي مدّةً بسـببه، ثم حضرت اليوم الجامـع للصلاة، فقبل أن تُقام التفـتُّ فرأيت صاحبي الذي له الدَّين على ورائـي، فمـن خوفـه؛ أحدثت في ثيابـي، فهذا خبـري، فأسـألك بالله إلا سـترت عليَّ وكتمت أمري. قال فقلـت: ومن الذي له عليك الدَّين، قال: دعلج بـن أحمد. قـال الرجل: وكان إلى جانبه صاحـبٌ لدعلج قد صلَّى وهـو لا يعرفه، فسـمع هذا القـول، ومضى في الوقت إلـى دعلج فذكر له القصـة، فقال له دعلـج: امض إلى الرجـل واحمله إلى الحمـام، واطرح عليه خلعة من ثيابي، وأجلسـه في منزلي حتى انصرف من الجامع، ففعل

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٠٧).

الرجل ذلك، فلمَّا انصرف دعلج إلى منزله أمر بالطعام فأحضر، فأكل هو والرجل، ثم أخرج حسابه فنظر فيه، وإذا له عليه خمسة آلاف درهم، فقال له: انظر لا يكون عليك في الحساب غلط، أو نسي لك نقد، فقال الرجل: لا، فضرب دعلج على حسابه وكتب تحته علامة الوفاء، ثم أحضر الميزان ووزن خمسة آلاف درهم، وقال له: أما الحساب الأول فقد حللناك مما بيننا وبينك فيه، وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم وتجعلنا في حلٍّ من الروعة التي دخلت قلبك برؤيتك إيّانا في مسجد الجامع أو كما قال»[(١)].

هذا الموقف الخيِّر من دعلج المتوفى سنة ٣٥١هـ، وإسقاطه ذاك القرض جعل الرُواة يتناقلون حسن تصرفه، ويترحم عليه كل من قرأ القصة وعرف عنها.

---

(١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، (٨/ ٣٨٩).

القَسَم العظيم

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

كان صوتُ الإمام شجيًّا، يأخذ بنياط القلوب، وهو يقرأ بالمصلين سورةَ الواقعة، وعند القَسَم الربَّاني أجهش باكيًا، وكأنَّه يُناجي ربَّه؛ إلهي من نكونُ لتقسم لنا بهذا القسمِ العظيم، ربَّاه منْ نحنُ لتؤكِّدَ لنا شرف هذا الكتابِ الجليل، وبعد الصلاة انصرفَ المصلُّون، وبقيَ القَسَم العظيم ماثلًا أمامه، وفتح المصحفَ الشريف، وأمضى صدرًا من ليله مع كتاب الله، يتلوهُ بتأمُّلٍ وتدبُّر، فاستوقفته آيات يُقرِّرُ الله بها شرفَ القرآن وهدايته، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، أوصافُ شرفٍ ومجد!

نزل من السماء قبل أربعةَ عشرَ قرنًا، فبقي مؤثِّرًا ومحفوظًا، استمعهُ مَن كَتب اللهُ لهم الهدايةَ فأسلموا، واستمعه أهلُ الشقاوةِ فأعجزهم بيانه، وتحدَّاهم أن يأتوا بمثله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨]. وفي هذا الزمان رأيناهم يقرؤونه بتروٍّ وتأمُّلٍ، وهُم ينشدون العيوبَ، فغسل القرآنُ قلوبَهم

فأسلموا، هو مؤثِّرٌ منذ نزوله، أسلم بإعجازه وبيانه الأوائل، وأسلم بقوَّتِهِ وتأثيره الأواخر.

يُروى أن الإمام أبا حنيفة صلَّى العشاء، فقرأ الإمام سورة الزلزلة، وبعد الصلاة انصرف المصلون، وبقي الإمام أبو حنيفة ممسكًا بلحيته يهزُّها، ودموعه تتقاطر، حتى قرابة الفجر وهو يردد: «حتى وزن الذرَّة سوف تُحاسب عليها يا أبا حنيفة، ويقول: يا منْ يجزي بمثقال ذرةِ خيرٍ خيرًا، ويا منْ يجزي بمثقال ذرّةِ شرٍّ شرًّا، أجِر النعمان عبدك من النار، وما يُقرِّب منها من السوء، وأدخله في سعة رحمتك»[1]. قلوبٌ عمرها الإيمان، وتدبَّرت القرآن.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

يقول خارجة: «صلَّيت مع أبي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة، وخرج الناس، ولم يعلم أنّي في المسجد، وأردت أن أسأله عن مسألة من حيث لايراني أحد، فقام فقرأ -وقد افتتح الصلاة- حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، يقول خارجةُ: فأقمت بالمسجدِ أنتظرُ فراغَهُ، فلم يزل يردِّدها حتى أذَّن مؤذِّنُ الفجرِ. وفي إحدى الليالي يُسمع أبو حنيفة وهو يُردِّدُ هذه الآية ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. فيمضي أبو حنيفة في ترديدها، ويبكي ويتضرعُ إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ»[2].

(١) الأئمة الأربعة: (ص٨١).
(٢) الأئمة الأربعة: (ص٨١).

حدّث محمدُ بن سوقة[1] جماعةً من زُواره، قال: «ألا أسمعكم حديثًا لعلَّه ينفعكم كما نفعني؟

قالوا: بلى.

قال: نصحني عطاء بن أبي رباح ذات يوم، فقال: يا ابن أخي...، إن الذين من قبلنا كانوا يكرهون فضول الكلام.

فقلت: وما فُضول الكلام عندهم؟

فقال: كانوا يَعُدُّون كلَ كلامٍ فُضُولًا ما عدا كِتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُقرأ ويُفهم...، وحديثَ رسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يُروى ويُدرى...، أو أمرًا بمعروف ونهيًا عن مُنكر، أوعلمًا يُتقرَّبُ به إلى الله تعالى... أو أن تتكلم بحاجتك ومعيشتك التي لا بُد لك منها، ثم حدَّق إلى وجهي، وقال: أتنكرون ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وأن مع كُلٍّ منكم ملكين؛ ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧-١٨].

ثم قال: أما يستحي أحدنا لو نُشرت عليه صحيفتُه التي أملاها صدرَ نهارِه؛ فوجد أكثر ما فيها ليس من أمرِ دينه، ولا أمرِ دُنياه... ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء ١٣-١٤]»[2]. رجالٌ جعلوا القرآن معهم في كل حين.

---

(١) محمد بن سوقة: أحد علماء الكوفة وعُبَّادها.

(٢) صور من حياة التابعين: (١/ ١٩).

فهو خيرُ كتاب أنزل من السماء؛ قراءته أجر، وتأمُّله خير، وتبصُّره رشاد، يزيد المؤمنين طُمأنينة، وتمنح تلاوته راحةً للنفس، وسعةً للصدر ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. هو الهداية وفيه الشفاء ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. استمعه الجنُّ فآمنوا به، وأخبر اللهُ سيّدَنا محمدًا ﷺ خبرهم وماذا قالوا ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]، وفي آية أُخرى كشف الله عن نصيحة الجنِّ لبني جنسهم ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

يستمعه المستشعرون عظمة الخالق، فتقشعرّ جلودهم، وتخشع قلوبهم، وتهتزُّ مشاعرهم، وتلين عواطفهم، وترقُّ نفوسهم، وذاك -لعمرُ اللهِ- هو العطاء والخير، جعلنا الله منهم ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

القَـوْل

قال تعالى: ﴿رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤].

استوقفتني هذه الآية الكريمة؛ ففكَّرت كم من ملايين البشر يتحدثون هـذه اللحظـة، -إي والله قَسَـمِي- ملاييـن يتكلَّمـون كلَّ حيـن، وبلغات مختلفـة، وفـي أقطـار متعـدِّدة، فـي البـرِّ والبحـر وفـي الأرض والجـو، ويسمعهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويميز بينهم؛ دقَّة تعبير، ووضوح عبارة، ليس سماعًا فقط، وإنَّما سماع وعلمٌ فوري، هو يعلم مُراد كل متكلِّمٍ قبل نُطقه، وقصد كل متحدث قبل حديثه، يسـمع الجميع، ويعلم الكل، هو فوق كل شـيء ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: «تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سنِّي، وانقطع ولدي، ظاهرَ منِّي، اللهمَّ إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»[(١)]. وسواء

(١) تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٥٤).

رفعت الصوت أو همست به فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سميع عليم، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طـه: ٧]. وفي آيةٍ أُخـرى يُبين جَلَّ جَلَالُهُ أنه معنا في كُل لحظة، يسمع قولنا، ويشهد قراءتنا، ويرى حالنا، ويعلم أحوالنا وأعمالنا مهما تناهت في الصِّغَـر: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وسواء جهرنا بالقول أو همسنا به أو أسررناه في أنفسنا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلـم ذلـك أينمـا كنَّـا ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وحتى ولو كتمت القول وتردَّد في ذهنك، فالله يعلمُه، ويعرف نيَّتك ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

أورد الزمخشري في تفسيره الأبيات الآتية(١):

يَـا مَنْ يـرى مَـدَّ البَعُـوضِ جَناحَها
فـي ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ البَهِيـمِ الأليَـلِ

ويَـرَى عُـرُوقَ نِيَاطِهـا فـي نَحْرِهـا
والمُـخَّ فـي تِلْـكَ العِظَـامِ النُّحَّـلِ

اغْفِـر لِعبْـدٍ تـابَ مِـنْ فَرَطاتِـهِ
مـا كانَ مِنْـهُ فـي الزَّمـانِ الأوَّلِ

---

(١) الكشاف، الزمخشري: (١/ ١٢١).

وقصة إسلام عمير بن وهب نراها في هذه الآية ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾. يقول الرواة: «بعد معركة بدر، وفي ضُحى ذات يوم، توجَّه عُميرٌ إلى المسجد الحرام، للطواف بالكعبة والتبرُّك بالأصنام، فوجد صفوان بن أُمية جالسًا إلى جانب الحجر، فأقبل عليه عمير، وقال: عِم صباحًا ياسيد قُريش.

فقال صفوان: عم صباحًا يا أبا وهب. اجلس نتحدث ساعة؛ فإنما يُقطعُ الوقتُ بالحديث.

فجلس عمير بإزاءِ صفوان بن أمية، وطَفِقَ الرجلان يتذاكران بدرًا ومُصابها العظيم، ويُعدِّدان الأسرى الذين وقعوا بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممَّن كان يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه عناءً وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أُسارى بدر، فقال صفوان: والله ما إن في العيش بعدهم خيرًا، وكان يتلمَّظُ حقدًا، فإن أباه أُميّة بن خلف قد لقي مصرعه في بدر، وسكنت عظامُه القليب!

قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَيْن عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، وأحسم أمره، وإن في وجود ابني وهب لديهم ما يجعل ذهابي إلى يثرب أمرًا لا يُثيرُ الشبهات.

اغتنم صفوان بن أمية عاطفةَ عُمير، فقال: عَليَّ دَيْنُكَ أنا أقضيه عنك، مهما بلغ...، وعيالُك سأضمُّهم مع عيالي ما امتدت بي وبهم الحياة...

وإن في مالي من الكثرة ما يسعهم جميعًا، ويكفل لهم العيش الرغيد.

فقال له عمير: فاكْتُم عليَّ شأني وشأنك، ولا تُطلع عليه أحدًا.

قال صفوان: لك ذلك.

قام عميرٌ ونار الحقد تتأجَّج في قلبه على رسول الله ﷺ، ثم أمر بسيفه فشُحِذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قَدِم المدينة، ويمَّم المسجد يُريدُ رسول الله ﷺ، وأناخ راحلته قريبًا من باب المسجد.

وكان عمر بن الخطاب جالسًا في نفرٍ من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم؛ إذْ حانت منه التفاتةٌ، فرأى عمير بن وهب، وقد أناخ راحلته على باب المسجد، ويمضي متوشِّحًا سيفه نحو المسجد، فهبَّ عمرُ رضي الله عنه مذعورًا، وقال:

هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حَرَّش بيننا وَحَزَرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشِّحًا سيفه، قال: «**فأدخله عليَّ**»، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنَّه غير مأمون.

ثم دخل به على رسول الله، فلمَّا رآه رسول الله، وعمرُ آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه، قال: **أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير**، فدنا ثم قال: أنعم صباحًا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله: **قد أكرمنا الله بتحيةٍ**

خيرٍ من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة قال: أما والله يا محمد إن كُنتُ بها لحديثَ عهد. قال الرسول: **فما جاء بك يا عمير...؟**

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال الرسول: **فما بال السيف في عنقك...؟**

قال عُمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئًا؟؟!

قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اصدقني يا عُمير، ما الذي جئت له؟**

قال: ما جئت إلا لذلك.

وهنا كان الخبر قد وصل من السماء لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصل الخبر ممن ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وصل حديث صفوان وعمير قرب الكعبة.

قال له الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عُمير ما هذا خبرك، بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية عند الحِجْرِ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قُلْتَ: لولا دَيْن عليَّ، وعيال عندي، لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمَّلَ لك صفوان بن أمية بدَيْنك وعيالك، على أن تقتلني... واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك...!**».

فقال عمير: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، قد كُنَّا يا رسول الله نُكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنِّي لأعلم ما أتاك به إلا الله. فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق.

فقال رسـول الله لأصحابـه: «**فَقِّهُوا أخاكم في دِينِـه، وعلِّمُوهُ القرآن، وأطلقوا أسـيره**»، ففعلوا. يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفسـي بيـده، لخنزيرٌ كان أحبَّ إلـيَّ من عُمير حين طلع علينا.. ولهو اليوم أحبُّ إليَّ من بعض ولدي».

وجلـس عمير يفكـر فـي أيامه الماضيـة، وكيف كان يصـدُّ الناس عن ديـن الله، ويُـؤذي المسـلمين، فأقبل على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم قائلًا: يا رسول الله إنِّي كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان علـى ديـن الله، وأنا أُحـبُّ أن تأذن لي، فأقدِم مكـة فأدعوهم إلى الله، وإلى رسـوله، وإلى الإسـلام لعلَّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنـت أوذي أصحابـك فـي دينهم، فأذن له رسـول الله، فلحـق بمكة بغير القلـب الذي جاء به، عاد إلى مكـة داعيًا إلى دين الله بعد أن غادرها عدوًّا لدين الله.

وكان صفوان بن أميَّة حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشـروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيام تُنْسـيكم وقعةَ بدر، وكان صفوان يسـأل عنه الركبان، حتى قدم راكبٌ فأخبره عن إسـلامه، فنزل الخبرُ عليه نُزُول الصاعقة...، كان صفوان يظنُّ أن عُميرًا لا يُسلمُ ولو أسلم جميعُ منْ على ظهرِ الأرض. هي الهداية بيدِ الله سُبحانه.

وقدم عمير مكة، وأقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذىً شديدًا، فأسلم على يديه ناس كثير[1].

---

(١) انظـر: صـور من حيـاة الصحابـة: (١/ ٣٣-٣٩). وانظر: رجـال حول الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خالد محمد خالـد: (٢٠٢-٢٠٧).

هُم صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سِيَرِهِم عبرةٌ وعظة، وفي تاريخهم شواهد تحكي عظمة دين الله.

دخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة مطأطئًا رأسه فاتحًا، وقال لأهل مكة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(١)، ودخل الكعبة، وأمر بلالاً أن يعلو ظهر المسجد، ويُؤذِّن.

وأذَّنَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكان ثلاثة نفر من أشراف قريش جُلوسًا بفناء الكعبة هم: أبو سفيان بن حرب، وكان قد أسلم منذ ساعات، وعتَّاب بن أُسَيد، والحارث بن هشام -وكانا لم يُسلما بعد- ورأى الثلاثة بلالًا وهو يدوس أصنامهم بقدميه، ويعلو جدار الكعبة ويُؤذِّن، وكأنهم لم يُصدقوا أعينهم، ولم يسمعوا صوته النَّدي وهو يردِّد:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمدًا رسولُ الله، أشهد أن محمدًا رسولُ الله.

وراعهم المشهد، وأذهلهم الصوت، فقال عتَّاب بن أُسيد: لقد أكرم الله أُسَيدًا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه.

وقال **الحارث**: أما والله، لو أعلم أن محمدًا مُحقٌّ لاتبعته!

و**قال**: أبو سُفيان بن حرب: إني لا أقول شيئًا، فلو تكلمتُ لأخْبَرَتْ عني هذه الحصى!

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١١٨ رقم ١٨٠٥٥)، وفي معرفة السنن والآثار (١٣/ ٢٩٣ رقم ٥٦٧٥).

وحين غادر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة رآهم، وقرأ في وُجُوهِهِم مشاعرهم تلك، وقال لهم: «**لقد علمت الذي قُلتم**». ومضى يُحدثهم بما قالوا...

فصاح الحارث وعتَّاب، وقالا: نشهدُ أنك رسول الله، والله ما سَمِعَنَا أحدٌ فنقول أَخْبَرَك[1]. إنهم كانوا لا يعلمون ولا يُصدِّقون قبل ذلك الوقت أن الذي أخبره هو الذي يعلم القول في السماء والأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هو القولُ مهما كان، وبأي لغةٍ جاء، وفي أي زمانٍ وقع، وفي أي مكانٍ حدث، معلومٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق: ١٨]، فاحفظ لسانك عما يُغضبُ ربَّك!

(١) انظر: رجال حول الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (٦١).

الكِبْر

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

الكبرُ داءٌ مقيت، وعاقبته وخيمة؛ وهو أقرب إلى خُلق إبليس منه إلى خُلق المؤمن؛ فقد تكبَّرَ على الله فأخرجه من الجنَّة. وأخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيات عدَّة عن أمره الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا فورًا، إلا إبليس رفض الأمر الإلهي؛ تكبرًا وتعاليًا على أن جنس آدم أقل منه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وفي آية أخرى قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] إن الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَمْقُت الكِبْر، فإيَّاك والتكبر، ولا تغترَّ بلونك أو جنسك أو علمك أو مالك أو وظيفتك أو جاهك؛ فقد رأى إبليس نفسه أفضل من آدم؛ لكونه مخلوقًا من نار، وآدم مخلوق من طين، فغضب الله عليه، وأخرجه من الجنَّة. اقرأ بتدبُّر حواره مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢-١٣].

وفي سورة الحجر، يخبرنا سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ببداية خلقنا من صلصالٍ من حمأٍ مسنون. قال ابن كثير: «أي من تراب، وهو الطين الأملس»(١)، ويذكر سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أمره للملائكة بالسجود لأبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واستجابتهم، ورفض إبليس وتكبُّره، وغضب الله عليه وإخراجه من الجنة، ورجاء إبليس إمهاله إلى يوم البعث؛ لكي يُضِل ذُرية آدم -وقانا الله شره- وقد أمهله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى وقتٍ معلوم عند الله، وليس كما طلب لعنه الله.

فمكمن تكبره ناشئٌ عن اعتراضه على إرادة الله في خلق آدم وتفضيله، وجعله خليفة على الأرض، فحسده على ذلك التكريم الإلهي، ولازال كيده وحسده مستمرَّين ما دامت أرواحنا في أجسادنا؛ إذ يدعونا لمنهجه القائم على التكبر والبغي، وقانا الله وسوسته وحيلَه.

والكبر من صفات الكفار أيضًا؛ فقد وصفهم الله به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو من أخلاق الفراعنة: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقوم عاد غرَّتهم قوَّتهم ودنياهم، فاستكبروا وركنوا إلى قوَّتهم، فعاقبهم الله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٤).

هذا، وكم من شـخصٍ تزدريه الأعين في الدنيا، ولكنه عند الله رفيع! وكم من آخر تهفو النفوس إليه، وتنظر إليه بتعالٍ وهو عند الله وضيع: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١-٣]، فترى يوم القيامة أناسًا كانوا في الدنيا مِلءَ السمع والبصر، لهم سلطةٌ ومال، وعِزٌّ وجاه. في حين ترى بسطاء قد كانوا خدمًا لا يلتفت لهم أحدٌ في الدنيا؛ ترى الفريقين يوم القيامة في حالتين مختلفتين؛ فترى ذاك المرتفع في الدنيا هاوٍ لأسفل سافلين، قد ذهب عنه جاهُه ومالُه، وولَّى عنه عزُّه وسلطانه ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وتُشاهد ذاك البسيط وقد ارتفع إلى الأعلى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ ولهذا حذار من ازدراء أيٍّ من خلقهِ، فالكبر عاقبته ذميمة. وقد قرَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منذ الأزل مقتَه للكِبْر والمتكبرين، فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. قال ابن عطية في تفسيره سأصرف: «المعنى: سأمنع وأصدُّ. وقال سفيان بن عُيينة: الآيات هنا: كل كتاب منزَّل»[١]. ولهذا فالحسرة للمتكبرين، والويل للمتعالين. ورد في الحديث الشريف: «**يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذُّل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يُسمى: بُولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عُصارة أهل النار طِينَةَ الخبالِ**»[٢]. وقانا الله ذاك العذاب.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة:**

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢/ ٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٦٧ رقم ٢٩١١)، وطينة الخَبَال: عصارة أهل النار: القيح والدم.

فما لي لايدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهُم، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك منْ أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أُعذِّب بك من أشـاء من عبادي، ولكل واحدة منكمـا ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتـى يضع الله فيهـا رجله فتقول: قطٍ قـطٍ، فهنالك تمتلـئ، يَزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنَّة فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينشـئ لها خلقًا»[1].

وقـد غلب الكِبْر سـادات قريـش؛ كأبي جهل، وأبي لهـب، وآخرين، فأوردهـم النار وبئس المصير؛ إذ سـلكوا طريق إبليس اللعيـن، فتكبَّروا على ضعفاء مكة ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

لقد جاء الإسـلام بالعدل، فـلا فضل لعربي على أعجمـي، ولا لغنيٍ علـى فقيـر، ولا لأمير علـى سُـوقة إلا بالتقـوى. وحين طبَّق المسـلمون معيـار العدل، وتصدَّوا لداء الكبر وحاربوه سـادوا الدنيـا؛ فذاك جَبَلة بن الأيهم سـيِّد من سـادات الجاهلية، وآخر ملوك الغساسـنة في الشام، لما أراد أن يُسـلم، كتب إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلمه بذلك، ويسـتأذنه في القدوم عليه، فسُـرَّ عمر لذلك والمسـلمون، فكتب إليه: أن أقدم ولك ما لَنـا وعليـك ما علينـا، فخرج جبلة في خمـس مئة فـارس، فلما دنا من المدينة لبس جبلةُ تاجه، وألبس جنوده ثيابًا منسوجةً من الذهب والفضة، ودخل المدينة فلم يبق أحد إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان، فلما

---

(١) أخرجـه البخـاري، (١٢/ ١١٦ رقـم ٤٨٥٠)، ومسـلم، (٤/ ٢١٨٦ رقـم ٢٨٤٦) واللفظ له. وفي روايـة: قالَ رَسـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْتَجَّـت الجَنَّةُ والنَّـارُ فَذَكَرَ نَحْوَ حَديـث أَبِي هُرَيْـرَةَ، إلى قَوْلِهِ ولِكِلَيْكُمـا عَلَـيَّ مِلْؤُهـا ولَمْ يَذْكُـرْ ما بَعْدَهُ مِـنَ الزِّيادَةِ**».

انتهى إلى عمر رحَّب به وأدنى مجلسه! ثم أراد الحج، فخرج معه جبلة، فبينما هو يطوف بالبيت؛ إذ وطئ على إزاره رجلٌ من بني فزارَة فحلَّه، فالتفت إليه جَبَلة مغضبًا، فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفزاري عمر بن الخطاب، فبعث إليه، فقال: ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزاري فهشمت أنفه! فقال: إنه وطئ إزاري فحلَّه؟ ولولا حرمة البيت لضربت عنقه، فقال له عمر: أما الآن فقد أقررت، فإمَّا أن تُرضيَه، وإلا أقدتُه منك. قال: أتقيده منِّي وأنا مَلِك وهو سوقة! قال عمر: يا جَبَلة، إنه قد جمعك وإيَّاه الإسلام، فما تَفْضُلُه بشيءٍ إلا بالتقوى والعافية، قال جَبَلة: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز منِّي في الجاهلية، قال عمر: دع عنك هذا، فإنَّك إن لم تُرض الرجل أقدته منك، قال جبلة: إذن أتنصَّر، قال: إن تنصَّرت ضربت عنقك. فقال جَبَلة: أخِّرني إلى غدٍ يا أمير المؤمنين. قال: لك ذلك، ولمَّا كان الليل خرج جَبَلة وأصحابه من مكة، وسار إلى القسطنطينية فتنصَّر، ثم إن جَبَلة طال به العهد في الكفر، فتفكَّر في حاله، وجعل يبكي، وأنشأ يقول:

تنصَّرَتِ الأشرافُ من عارِ لطمةٍ
وما كانَ فيها لو صَبَرْتُ لها ضرر

تَكَنَّفَنِي منها لجاجٌ ونخوةٌ
وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَور

فياليتَ أمّي لم تلدني وليتني
رجعتُ إلى القولِ الذي قال لي عمر

ويا ليتنـي أرعـى المخـاضَ بقفـرةٍ
وكنـتُ أسـيرًا فـي ربيعـةَ أو مُضـر

ويـا ليـتَ لـي بالشَّـامِ أدنى معيشـةٍ
أجالـسُ قومي ذاهـبَ السَّـمعِ والبصر(١)

إنهـا لطمـةُ كِبرٍ أَضَلَّتـهُ، ولو تواضع لله لرفعـه مقامًا عليًّـا، ولكنه اتبع غروره فأورثه الوهن، وصغر في أعين الخلق، وكان سـبيله إلى الذُّل أكثر منه إلى العلو، فندم ولات ساعة مندم.

وفـي المقابل وصـف الله عبـاده المؤمنين بالتواضـع ومدحهم به في قولـه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وأمـر نبيـه بالتواضـع فقـال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. فـكان النبي ﷺ مثـالًا للتواضع والأخـلاق الحميدة. عن أبي هريرة، عن رسـول الله ﷺ قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله**»(٢).

وسـار الصالحون على هذا النهج العظيم فسـادوا الدنيـا بتواضعهم؛ «ذُكـر عـن عمر بـن عبدالعزيـز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أتـاه فـي ذات ليلة ضيـف، فلما صلَّى العشـاء وكان يكتب شـيئًا والضيـف عنده، كاد السـراج أن ينطفئ، فقال الضيف: يا أمير المؤمنين، أقوم إلى المصباح وأُصلحُه؟ فقال: ليس مـن مروءة الرجل أن يسـتعمل ضيفه. قال: أفأنبِّهُ الغـلام؟ فقال: لا، فهي

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٣٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨).

أوَّل نومـةٍ نامهـا. فقام عمـر وأخذ البَطَّة ومـلأ المصباح. فقـال الضيف: قمت بنفسـك يا أميـر المؤمنيـن؟! قال: ذهبـت وأنا عمـر، ورجعت وأنا عمر، وخير الناس من كان عند الله متواضعًا»[١].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٣٣).

كفارة وتبديل

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

هنيئًا للمسلمين يقرؤون كتاب الله، فيجدون هذه الآيات المُبشرة؛ محو السيئات، واغتفار الزَّلات!

هذه الآية الكريمة من آيات الفرج والأمل؛ فغير المسلم إذا أسلم وعمل الصالحات محا الله سيئاته قبل الإسلام وكفَّرها، وكان جزاؤه يوم يلقى ربَّه بأحسن عمل عمله، والمسلم منذ بدء سن التكليف، وكُلُّ أعماله مُدونة ومُسجلة، وأعماله تلك فيها السيئات التي حصلت منه عمدًا بجهالة، وفيها التي عملها غفلة وخطأ، ولو بقيت تلك السيئات دون تكفير وعفوٍ لكانت حالة المسلمين حسرة وأسى.

لقد حمدتُ الله، وسجدتُ له شكرًا أن استوقفتني هذه الآية متأمِّلًا، فلطالما قرأتُها دون تفكُّرٍ ولا تدبُّر، لكن حين قرأتُها ذات يومٍ بتدبُّر وأناةٍ وتأمُّلٍ كدتُ أطيرُ فرحًا، فهي إخبارٌ من الله بتكفير سيئاتنا وزلاتنا ومحوها؛ لتصبح كأنَّها لم تكن، هي بشارةٌ أن الجزاء سيكون لأفضل حسنةٍ قدَّمتها، لقد شعرتُ كأن الله يخاطب عباده أن آمِنوا واعملوا الصالحات، أطمِس

خطاياكـم وأجزِكُـم بخيـر أعمالكم. خطـابٌ ربَّانـي يُبارك فـي الأعمال ويُزكيها، خطابٌ يبعث الحياة والنشـاط، ويدفع المسلم للفرح والسرور، ربَّاه لك الحمد. اجعل مضمون هذه الآية من دعائك، ردِّدها في خلواتك، قُلها في سـجودك، قُلْ يارَبِّ كفِّرْ سـيئاتي، يارَبِّ اجزني بأحسن أعمالي، عِشْ مع الله تجد البهجة والسعادة.

فـي صحيح مسـلم عن أبي ذرٍّ قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**إنِّي لأعلـم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهـل النار خروجًا منها: رجل يُؤتى به يوم القيامة، فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يـوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول نعم. لا يسـتطيع أن ينكر وهو مشـفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه. فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول يا ربِّ قد عملت أشـياء لا أراها هاهنا**». فلقد رأيت رسـول الله ﷺ ضحـك حتى بدت نواجـذه. وقال أبو طويل: يا رسـول الله، أرأيت رجلًا عمـل الذنـوب كلهـا ولم يترك منها شـيئًا، وهـو في ذلك لم يتـرك حاجة ولا داجة إلا اقتطعها فهل له من توبة؟ قال: هل أسـلمت؟ قال: أنا أشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأشـهد أنك عبد الله ورسـوله. قال: **نعـم، تفعـل الخيرات وتتـرك السـيئات يجعلهن الله كلهن خيـرات**. قال: وغدراتـي وفجراتي يا نبي الله؟ قال: **نعـم**. قال: الله أكبر! فما زال يكررها حتى توارى»(١).

---

(١) ذكـره الثعلبـي. قال مبشـر بـن عبيد، وكان عالمًـا بالنحو والعربيـة: الحاجة التي تقطـع على الحاج إذا توجَّهـوا، والداجـة التـي تقطع عليهـم إذا قفلوا. وكان الله غفـورًا رحيمًـا. والحديث في صحيح مسـلم: (١/ ١٧٧ رقم ١٩٠).

إن الله يندبنا للتوبة، ويُرغّبنا في الإنابة، ويُبشّرنا بعفوه ومغفرته. اقرأ ما ورد في سورة الفرقان عن تبديل السيئات بالحسنات تشعر بالطمأنينة، يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها؛ بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا ألا يعود، ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي، وفعل الطاعات، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدَّة لعمل السيئات تتبدل حسنات؛ فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدَّل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة، وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة، ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده، حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم»(١).

وفي سورة هود وردت آية الفرح والبشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص٤٩٦).

هيا أسرِع وتَوضَأْ لصلاتك، فالحسنات يُذهبن السيئات، فكُلُّ بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، كرامة ربانية بمحو الذنوب، ووعد إلهي بإزالة السيئات، وإخفاء تلك الخطيئات.

إنه القرآن الكريم؛ فيه البشائر، وبه الفضائل، فإياك والقنوط، واعلم أن الله غفورٌ رحيم، وإياك والتسويف والتأجيل؛ فقد تخترمك المنون وأنت في كامل صحتك وبهجتك، وعند ذاك لا ينفع الندم، بادِر لنداء ربك، فهو يعلم السر وما هو أخفى من السر ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وأُولئك حملة العرش، ومن حوله يستغفرون لك أخي في الله! ومن أنت لتستغفر لك تلك الملائكة؟! إنه التكريم الربَّاني! قال أحدهم لآخر: ادعُ لي، واستغفر لي، ردَّ عليه العارف بالله، قال: يا هذا هناك من هم خيرٌ مني ومنك يستغفرون للذين آمنوا، فاحرص أن تكون من أولئك المُستغفر لهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

سُئل الشيخ الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أجمل حكمة سمعها في حياته، فقال: لقد قرأت لأكثر من سبعين عامًا، فما وجدت حكمةً أجمل من تلك التي رواها ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن مشقَّة الطاعة تذهب ويبقى ثوابها...، وإن لذة المعصية تذهب ويبقى عقابها...، كُن مع الله ولا تُبالي...، ومُدَّ يدَيك

إليه في ظُلمات الليل، وقُل: ياربِّ ما طابت الدُّنيا إلا بذكرك، ولا الآخرة إلا بعفوك، ولا الجنة إلا برؤيتك. صافِح وسامِح، ودع الخلق للخالق، فنحن وهم راحلون. افعل الخير مهما استصغرته، فإنك لا تدري أيَّ حسنة تُدخلك الجنة.

وأقول: إنها الحسنات يُذهبن السيئات؛ عطفك على فقير حسنة، تبسمك لعامل النظافة وإحسانك إليه حسنة، بشاشتك في العمل، وإنجاز حوائج الناس حسنة، سجدتك في نافلة تناجي ربك حسنة، إماطتك الأذى عن الطريق حسنة. هي الحسنات؛ وسائلها كثيرة، ومجالاتها مُتعدِّدة، والسعيد من هداه ربُّه، وحبَّبَ إليه فعل الحسنات.

اللهم حبِّب إلينا فعل الخير، وزيِّنه في قلوبنا.

الكيل

قال تعالـى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

هـو ديـن الله الكامل؛ إصـلاح للمجتمـع، وتنقيـةٌ للنفـوس، لا غشَّ ولا خـداع، طهارةٌ ونقاء، وفـاءٌ وأمانة، حفظٌ للحقوق، وصونٌ للمال. أمرٌ قطعيٌّ بالوفاء في الكيل والوزن، في السرِّ والعلانية. إن النفوس البشـرية جُبلـت علـى حـبِ المـال ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]؛ ولـذا فإن خـداع الناس، وأكل مالهـم بغير حقٍّ، يجلب العـداوة، ويجعل المجتمع في كراهيةٍ وقطيعة، فكلٌّ يتربَّص بالآخر، ويتغافله في الكيل والوزن؛ علَّه يختلس منه ولو حفنةً من زاد!

وتكرَّرت الآيات القرآنية المحذِّرة، وجاءت الرسـل بالعدل والوفاء؛ فنبيُّ الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجد قومه يختلسون، ويُطفِّفون في كيلهم ووزنهم، فنهاهم وزجرهم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ولكن غلبتهم الشـقاوة، فردوا

نصيحته وتحذيره؛ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وتوالت الآيات الكريمات في التحذير من التطفيف في الكيل والوزن؛ ففي سورة الإسراء تأتي الوصايا الحاثة على بناء المجتمع وإصلاحه، ومنها الوفاء وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

ويُغري نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إخوتَهُ قبل أن يعرفوا أمره أنه يُتم الكيل، ولا يبخس منه شيئًا، وفي إتمام الكيل رضا النفوس وبهجتها، فيقول: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩].

عن ابن عباس قال: لما قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل اللهُ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، فأحسَنُوا الكيلَ بعدَ ذلك.

لقد حثَّ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إحسانِ التَّعامُلِ بينَ النَّاسِ في البيعِ والشِّراءِ وإيفاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وحذَّر مِن الغشِّ والتَّدليسِ، وإنقاصِ الموازين والمكاييلِ.

قال شُراحُ الحديثِ: يقولُ ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَمّا قَدِم النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ كانوا مِن أخبَثِ النّاسِ كَيلًا»، أي: كان أهلُ المدينةِ ومَن فيها مِن التُّجَّارِ يُطفِّفون في المكاييلِ، ويتَحايَلون فيها بالغِشِّ والتَّدْليس، «فأنزَل اللهُ سبحانَه»، أي: قولَه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، تَوعَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في تلك الآيةِ مَن يُطفِّفون المكيالَ بالعذابِ، والويلُ: هو الهلاكُ والعذابُ،

وقيل: الوادي الَّذي يَسِيلُ مِن صَديدِ أهلِ جَهنَّمَ في أسفَلِها، والمطفِّفون هم الَّذين يَنقُصون النَّاسَ، ويَبخَسونهم حُقوقَهم في مَكاييلِهم إذا كالُوهم، أو مَوازينِهم إذا وَزَنوا لهم عن الواجبِ لهم مِن الوفاءِ. قال ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فأحسَنوا الكيلَ بعدَ ذلك»، أي: إنَّ أهلَ المدينةِ استَجابوا لأمرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ورجَعوا عن تلك المعصيةِ.

هذا، ومما يُؤسَفُ له أنه في زمننا هذا غلبت شهوةُ الدنيا عددًا من المسلمين، فَعَميَتْ بصائرهُم؛ يُصلُّون، ويصومون، ويَحُجُّون، ويُؤدُّون شعائر الإسلام، ولكن تجدهم يتحايلون، ويغلبهم الطمع، يُطففون في الكيل، ويبخسون في الوزن، ويَسْتَخِفُّون بوقت العمل، ويتكاسلون في إنجاز الأعمال المكلفين بها، ونسوا قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

كان الناس في المدينة المنورة يخلطون اللَّبن بالماء في دورهم، ثم يذهبون به إلى السوق ويبيعونه، ونهى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ذلك العمل، ونادى منادي الخليفة بمنع الخلط وبيع اللَّبن صافيًا، وأسمع المنادي جميع أهل المدينة؛ حتى علم ذلك النهي الكبار والصغار، الرجال والنساء، وتناقلوا الخبر أنّ وليَّ الأمر منع وزجر، ومنْ خالف فسوف يحاسبه الخليفة ويُؤدِّبه، وكان الخليفة الفاروق يرقُب السوق بنفسه، ويتفقد المحتاجين، يطوف بالمدينة ساهرًا؛ فقد يلقَى محتاجًا، أخرجه ستر الليل وظلامه ينشد قوتًا، ويطلب مساعدة، وذات ليلة، وهو يطوف بالمدينة -وبيوتها صغيرة جدًّا- يسمع الصوت وهو بالطريق، سمع الخليفة حوارًا بين أمٍّ وابنتها؛ تقول الأم: بُنيَّتي قومي واخلطي الماء

باللَّبـن، وتردُّ البنـت: أُمَّاه: أوما علمـت أنَّ أمير المؤمنيـن نهى عن خلط الماء باللَّبن وأمر ببيعه صافيًا.

قالـت الأمُّ: بلى، لقد علمت ذلك، وما بقي بيتٌ من بيوت المدينة إلا وقد علم بنهي أمير المؤمنين!

قالـت البنـت: إذن كيف نعصي أمـر الخليفة وقد صار القـرار معلومًا للجميع، فلا يمكن الخلط بعد أمره الناس.

قالـت الأمُّ: وإذا خلطـتِ الماء باللَّبن فمن سـيعلم؟! قُومي أسـرعي واخلطي فقد جهزت الماء، وها هو قُرب إناء اللَّبن.

قالـت البنـت: أُمّـاه، أعلـم أن عُمـر لـن يعلـم بخلطنا، ولـئـن خلطته ولو بشيء يسير، فإن المشتري لن يعرف أننا خلطناه!

قالت الأمُّ: هو كذلك. هيا أسرعي ونفِّذي ما أمرتك به.

قالـت البنت: أُمَّـاه ترفقي! أُمَّاه تذكري! أمَّاه اعلمـي أن عمر، وإن لم يعلم فربُّ عمر يعلم! أُمَّاه، هو الله يعلم السرَّ وأخفى. لا لن نخلط اللبن، لا لن نغش، لا لن نخدع. أُمَّاه، المال الحرام سُـحت! أُمَّاه، المال الحرام يمحق البركة!

وكان عمر بن الخطاب قرب الدار، فسـمع الحوار وتهلَّل وجهه بشرًا ومسرَّة، وأمر مُرافِقَهُ التَّعرفَ على البيت، وفي الغدِ ندب أحد أبنائه؛ للزواج من تلك الفتاة الحصان الرَّزان، وهو ما كان، وتحقَّقت فراسة عمر، فأنجبت بنتًا أنجبت عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين!

المتقون

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

إنه كتابُ الله الكامل، جاء الخبر اليقين بكماله وسلامته، مضت قرونٌ وقرون وما استطاع ناقد، ولا تمكن كائن من أن يُشَكِّكَ فيه، بل كُلما تقدم الزمن ظهرت دلائله وبان صدقُه، وانكشف يقينُه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨].

وبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فالزم أخي في الله منهج المتقين، وصاحِب القرآن، واجعلهُ نديمَك، واتخِذْهُ جليسَكَ وسلوتَكَ، واعمل بأوامِره، واجتنب نواهيه، تجِد الهدايةَ وتلق الرشاد. جعلنا الله وإياك من عباده المتقين.

جاء في تفسير الرازي: اعْلَمْ أنَّ مَقامَ التَّقْوى مَقامٌ شَرِيفٌ، قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقالَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقالَ عَلِيُّ بْنُ أبِي طالِبٍ: التَّقْوى تَرْكُ الإصْرارِ عَلى المَعْصِيَةِ، وتَرْكُ الاغْتِرارِ بِالطّاعَةِ.

قالَ الحَسَنُ: التَّقْوى ألا تَخْتارَ عَلى الله سِوى الله، وتَعْلَمَ أنَّ الأُمُورَ كُلَّها بِيَدِ الله.

وقالَ إبْراهِيمُ بْنُ أدْهَمَ: التَّقْوى ألا يَجِدَ الخَلْقُ في لِسانِكَ عَيْبًا، ولا المَلائِكَةُ في أفْعالِكَ عَيْبًا، ولا مَلِكُ العَرْشِ في سِرِّكَ عَيْبًا.

وقالَ الواقِدِيُّ: التَّقْوى أنْ تُزَيِّنَ سِرَّكَ لِلْحَقِّ كَما زَيَّنْتَ ظاهِرَكَ لِلْخَلْقِ.

ويُقالُ: التَّقْوى ألا يَراكَ مَوْلاكَ حَيْثُ نَهاكَ.

ويُقالُ: المُتَّقِي مَن سَلَكَ سَبِيلَ المُصْطَفى، ونَبَذَ الدُّنْيا وراءَ القَفا، وكَلَّفَ نَفْسَهُ الإخْلاصَ والوَفا، واجْتَنَبَ الحَرامَ والجَفا، ولَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُتَّقِي فَضِيلَةٌ إلا ما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ كَفاهُ؛ لأنه تَعالى بَيَّنَ أنَّ القُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ في قَوْلِهِ: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثُمَّ قالَ هَهُنا في القُرْآنِ: إنَّهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، فَهَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ المُتَّقِينَ هم كُلُّ النّاسِ، فَمَن لا يَكُونُ مُتَّقِيًا كَأنَّهُ لَيْسَ بِإنْسانٍ.

وجاء في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا رأيت الله قد منَّ عليك بفهم كتابه والعمل به، فاعلم أنك ممن؟ من المتقين؛ لأن الله قال: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، فإذا رأيت من نفسك أن الله منَّ عليك بالعلم والعمل بكتابه فأبشر فإنك من المتقين.

وقال: إذا رأيت الغفلة وعدم الانتفاع بالقرآن فاحذر؛ فإن هذا يدل على نقص تقواك؛ لأنه لو كانت تقواك كاملة لكان هذا القرآن هدى لك، ويتفرع على هذا أيضًا: الحث على التقوى، وأنها سبب للاهتداء بالقرآن، وأنك كلما اتقيت الله ازددت انتفاعًا بالقرآن واهتداء به.

التقوى فيها جماع الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَهِيَ وَصِيَّةُ الله فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَهِيَ خَيْرُ مَا يَسْتَفِيدُهُ الْإِنْسَانُ، كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ: إِنَّ أَصْحَابَكَ يَقُولُونَ الشِّعْرَ وَأَنْتَ مَا حُفِظَ عَنْكَ شي، فَقَالَ:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَى مُنَاهُ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِي وَمَالِي وَتَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»(١).

وجاء في القرآن بشائر للمتقين، جعلنا الله منهم، لقد تكررت البشائر، فالله مع المتقين، ورد تقرير ذلك في سورة البقرةِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وتكرر تأكيد ذلك الحب في القرآن الكريم، فمن أحبه الله فقد فاز، جعلنا الله منهم، ورد في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وفي سورة التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وجاء في سورة الجاثية ولاية الله للمتقين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

ونعيم الجنة نقرؤه في آيات تأخذ مجامع القلوب، وعدٌ ثابتٌ لا شك فيه للمتقين ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

يكفيك أخي في الله قراءة آيات النعيم الآتية:

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٩٠ رقم ١٤٦٧).

﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ
فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَـٰذَا
مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٤٩-٥٤]، وفي سورة
القلم اقرأ الآيات ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].، وفي سورة النبأ
تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا
(٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

وانظر ما ورد في سورة الحجر ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا
نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٩]،
وتأمل ما جاء في سورة الدخان ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ
(٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤)
يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ
وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧]،
وقف مع النعيم الوارد في سورة الطور ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَـٰكِهِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ
وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ
كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ
(٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ
ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ١٧-٢٨].

واسمع قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]، وفي سورة القمر نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

وتوقف مُردِّدًا ما ورد من نعيم في سورة المرسلات ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

نسأل الله من فضله، هل بعد هذا الخير من خير؟ وهل بعد هذه البشائر من بشائر؟ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلًا.

المثقال

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

هو كلام الله الكامل الشامل، تَطَوّرَ علمُ الكونيات الحديث، وتنوعت الاختراعات، وتعدَّدت الابتكارات، فصنعوا أجهزة التصوير وأدوات الاتصال، ووسائل النقل وغيرها من علومٍ حديثة، ربطت العالم بعضه ببعض، ومع هذا التطور العلمي، لم يكتشفوا شيئًا يُشَكِّكُون به في القرآن الكريم، وما ورد فيه من معلوماتٍ غيبية نزلت في ذلك الزمان، على تلك الأُمَّـةِ الأُمِّيَّة في بيئتها الصحراويةِ، لقد كان المعلوم لديهم ذلك الوقت، بل إلى وقتٍ قريب، أن الذَّرَّة أصغر الأجسام.

ذكر ابن الجوزي في (زاد المسير) أنه ورد في المُرادِ بِالذَّرَّةِ خَمْسَةُ أقْوالٍ. أحَدُها: أنَّهُ رَأْسُ نَمْلَةٍ حَمْراءَ، رَواهُ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ. والثّاني:

ذَرَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنَ التُّرابِ، رَواهُ يَزِيدُ بْنُ الأَصَمِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. والثَّالِثُ: أَصْغَرُ النَّمْلِ، قالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ، وابْنُ فارِسٍ. والرّابِعُ: الخَرْدَلَةُ. والخامِسُ: الواحِدَةُ مِنَ الهَباءِ الظَّاهِرِ في ضَوْءِ الشَّمْسِ إذا طَلَعَتْ مِن ثُقْبٍ، ذَكَرَهُما الثَّعْلَبِيُّ. واعْلَمْ أنَّ ذِكْرَ الذَّرَّةِ ضَرْبُ مَثَلٍ بِما يُعْقَلُ، والمَقْصُودُ أَنَّهُ لا يَظْلِمُ قَلِيلًا ولا كَثِيرًا.

وأشار علماء التفسير المتأخرون إلى أن ما هو أصغر من مثقال الذرة يتوافق مع ما وصل إليه العلم الحديث، قال الشيخ الشعراوي: «قال الذين يحبون أن يستدركوا على كلام الله: ذكَر القرآن أن الذرة هي أصغر ما في الكون، وها نحن فَتَّتْنا الذرَّة إلى أجزاء، ولو ألَمّ هؤلاء بكل القرآن، وقرؤوا هذه الآية: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ لعرفوا أن القرآن احتاط لما سيأتي به العلم من تفتيت الذرة، وأن في كلام الله رصيدًا لكل تقدم علمي.

وتَأَمَّل الدقة الأدائية هنا، فقد ذكر الذرة، وهي أصغر شيء عرفه الإنسان، ثم ذكر الصغير عنها والأصغر بحيث مهما وصلنا في تفتيت الذرة نجد في كلام الله رصيدًا لما سنصل إليه»(١).

وبناء على تفسير الشعراوي نقول إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبر عباده في هذه الآية بِعِلمٍ قادم؛ فالقوم في ذلك الوقت لا يعلمون أن للذرة جزيئيات. سبحانه، سبحانه. ورد في معجم لسان العرب: «الذَّرةُ: واحدة الذَّر قيل:

(١) انظر: تفسير الشعراوي: (١٩/ ١١٦٥٢).

إنَّ مئة منها وزن حبَّة من شعير، فكأنَّها جزء من مئة، وقيل الذرة ليس لها وزن، ويُراد بها ما يُرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة»[1]. لكن القرآن هو الأصدق والأبلغ، جعل للذرَّة وزنًا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

لقد أكَّدَ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنَّه مهما صغُر من شيء، فلا يعزب عن علمه، حتى ولو كان أصغر من وزن الذرَّة!

جاء في تفسير ابن كثير: «يخبر تعالى نبيه -صلوات الله عليه وسلامه- أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعةٍ وآنٍ ولحظة، وأنه لا يَعزُب عن علمه وبصره مِثقال ذَرَّةٍ في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فأخبر سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المُكلَّفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٧-١٩]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور: مادة: ثقل، ومادة: ذرر.

﴿قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١]؛ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما سأله جبريل عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

أفلاكٌ دائرة، ونجومٌ لامعة، وشمسٌ ساطعة، وقمرٌ نيِّر، وبحارٌ تفوق اليابسة، وأشياء غيبية لا تدركها حواسنا، ولا تحيطها عقولنا، وسماواتٌ وأراضين، كل تلك وما فيها وما يخرج منها، وما يعرج إليها، في كل لحظة، كل ذلك في علم الله جَلَّجَلَالُهُ، مهما تناهى في الصغر.

تأخذني الأسفار أحيانًا، فأرى في بعض الدول تلك الغابات الشاسعة الطول والعرض، الملتفة الأشجار، الكثيفة الأغصان، المخيفة الدخول، فأتخيل ما فيها من حشرات ودود، وطيور وفراشات، وحيوانات وزواحف، تتوالد فيها وتتكاثر، وما فيها من أوراق وقطرات مياه، كلها في علم الله ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وكل ما في تلك الغابات وما في الكون كلِّه جميعهم يُسبحون لله ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وحين أنظر لجذوع تلك الغابات، وأغصان تلك الأشجار أتذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٤ رقم ٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦ رقم ٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٢).

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. رَبَّـاه آمنَّا بِك، وَشَـهِدنا أنّه لا إله إلا أنت سـبحانك إنّا كنَّا من الظالمين! نظلم أنفسنا بالغفلة، ونظلم أنفسـنا بالقصـور فـي عبادتـك، ونظلم أنفسـنا فـي هَجْرِ كتابـك، ونظلم ذواتنا بنسيان ذِكرك وتسبيحك، سبحانك، سبحانك، غُفرانك.

قال الشـيخ ابن عاشور في تفسـيره: «وذُكِرَتِ الذَّرَّةُ مُبالَغَةً في الصِّغَرِ والدِّقَّـةِ لِلْكِنايَـةِ بِذَلِكَ عَنْ إحاطَةِ العِلْمِ بِكُلِّ شَـيْءٍ، فَـإنَّ ما هو أعْظَمُ مِنَ الذَّرَّةِ يَكُونُ أوْلى بِالحُكْمِ، والمُرادُ بِالأرْضِ والسَّـماءِ هُنا العالَمُ السُّـفْلِيُّ والعالَـمُ العُلْوِيُّ. والمَقْصُودُ تَعْمِيمُ الجِهـاتِ والأبْعادِ بِأخْصَرِ عِبارَة»[١]. قال الزمخشري: «فإن قُلتَ: لِمَ قُدِّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله فـي سـورة سـبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟ قلـت: حـقُّ السـماء أن تُقَـدَّم على الأرض، ولكنـه لمَّا ذكر شـهادته على شـؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهـم، ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لاءمَ ذلك أن قدَّم الأرض على السماء، على أنَّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير: (١١/ ٢١٤).
(٢) الكشّاف: (٢/ ٣٤٢).

المُصيبة

قال تعالـى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

ورد فـي تفسـير ابـن سـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالـى مخبرًا عـن عموم قضائـه وقـدره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وهـذا شـاملٌ لعمـوم المصائب التي تصيب الخلق، من خيرٍ وشـر، فكلها قد كُتبت في اللـوح المحفوظ؛ صغيرها وكبيرها. وهذا أمرٌ عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلـك؛ لأجـل أن تتقرَّر هذه القاعدة عندهم، ويبنـوا عليها ما أصابهم من الخير والشر»[1].

وأقـول: هـذه الدنيا مصائبهـا تَتْـرى، هـي دار ممرٍّ، وميـدان أفـراحٍ وأحـزان، وسـاحة اختبـار، وما من أسـرة إلا وشـهدت الحـزن، وذاقت الألـم، وهذه هي العدالة الإلهية؛ فالملـوك، والأغنياء، والفقراء، والعامَّة يتسـاوون في تجرُّع الأحـزان؛ فتخترمهم المنون، وتمسُّ أحبَّتهم سـكرة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي: (ص٨٤٢).

الموت، فيحزنون، فخالق الموت والحياة هو رب العباد ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢]، إنّه الابتلاء والامتحان. ومن نعم الله علينا –معشر المسلمين– نعمة الإيمان بالقضاء والقدر، واليقين بأن هذه الحياة الدنيا التي نعيشها ما هي إلا أيام وتمضي. نقول هذا الكلام ونعتقد هذا الاعتقاد وفراق الأحبَّة مؤلم، وتصدُّع الشمل موجع؛ ولهذا فالسعيد من تذكَّرَ واستحضرَ عند المصائب البشارة الربَّانية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قال الراوي: قالت أم سلمة: جاءني أبو سلمة ذات يوم من عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: لقد سمعت من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولًا سُررت به. قال: «**لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها فُعل ذلك به**». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفِّي أبو سلمة استرجعت، وقلت: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها. ثم رجعت إلى نفسي فقلت من أين لي خيرًا من أبي سلمة؟ فلمَّا انقضت عدَّتي استأذن عليّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أدبغ إهابًا لي، فغسلت يدي من القرَظِ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليفٌ، فقعد عليها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله، ما بي ألا يكون بك الرغبة، ولكنِّي امرأة فيَّ غيرةٌ شديدة، فأخاف أن ترى منِّي شيئًا يعذِّبني الله به، وأنا امرأة دخلت في السنِّ، وأنا ذات عيال. فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أمَّا ما ذكرتِ من الغيرة فسوف**

يذهبها الله عَزَّوَجَلَّ عنك، وأمَّا ما ذكرت من السنِّ فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأمَّا ما ذكرت من العيال فإنَّما عيالك عيالي. قالت: فقد سَلِمت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتزوجها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت أم سلمة بعد: أبدلني اللهُ بأبي سلمة خيرًا منه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

إنها جائزة عظيمة لأمِّ سلمة، فقد استرجعت وصبرت، فنالت شرف الزواج النبوي وأصبحت من أمَّهات المؤمنين. ويقول الرواة: «كان زوجها أبو سلمة مضرب المثل في المدينة المنورة؛ حيث يقال: زوج ولا كزوج أم سلمة»(٢)؛ ولهذا فالصبرَ الصبرَ عند تلك الحالات النفسية الصعبة، والاهتداء بالهدي القرآني والتوجيه الربَّاني ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، والدعاء بما أرشدنا إليه سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا ولقد أُصيب سيد البشرية نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحزن، وجاءته المصائب؛ إذ عاش يتيمًا فاقد الأبوين، وسمَّى المسلمون عام وفاة زوجته خديجة وعمِّه أبي طالب بعام الحزن، وفي معركة أُحُد اكتوى بالحزن والألم؛ جراء ما أصابه من بلاء، وفقد خيرة أصحابه وأقربائه.

ورد في سيرة ابن هشام عن أبي سعيدٍ الخدري أن عتبة بن أبي وقَّاص رَمى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذٍ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبدالله بن شهاب الزهري شَجَّه في جبهته، وأن ابن قَمِئَة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حَلَق المِغْفَر في وجنته، ووقع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حفرةٍ من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها

---

(١) أخرجه مسلم مختصرًا (٢/ ٦٣١ رقم ٩١٨).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٠٢).

المسلمون، وهم لا يعلمون؛ فأخذ عليُّ بن أبي طالب بيد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائمًا.

وفَقَدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددًا من أصحابه يوم أُحُد، يقول ابن إسحاق: «وكان يوم أُحُد يوم بلاءٍ ومصيبةٍ وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومَحَنَ به المنافقين مِمن كان يُظهر الإيمان بلسانه، وهو مُستخفٍ بالكُفر في قلبه، ويومًا أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته»....«فكان ممَّا أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في يوم أُحُدٍ من القرآن ستُّون آية من آل عمران، فيها صفة ما كان في يومهم ذلك، ومعاتبة من عاتب منهم»[١].

ويذكر التاريخ موقفًا لسيدةٍ اكتوت بالحزن والألم يوم أُحُد؛ لفقد أبيها وأخيها وزوجها، ولكن هانت مصيبتها ذاك اليوم بخبرٍ أفرحها وأسعدها، يقول الراوي: «قفل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائدًا من أُحُد، وفي الطريق مَرَّ بسيدةٍ من بني دينار استشهد في المعركة أبوها، وزوجها، وأخوها...، وحين أبصرت المسلمين العائدين من الغزو سارعت نحوهم تسألهم عن أنباء المعركة...، فنعوا إليها الزوج، والأب، والأخ...، وإذا بها تسألهم في لهفة: وماذا فعل رسول الله؟

قالوا: خيرًا يا أم فلان... هو بحمد الله كما تحبِّين.

قالت: أَرُونيه؛ حتى أنظر إليه.

ولبثوا بجوارها حتى اقترب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأته أقبلت نحوه تقول: كل مُصيبةٍ بعدك جَلل؛ أي أمرها يهون»[٢]. يالها من امرأةٍ

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (٢/ ٩١).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: (٢/ ٨٦).

صابرةٍ مُحتسبة، سَطَّر التاريخ موقفها الفريد العجيب، وظلَّت مقولتها: كلُّ مصيبةٍ بعدك أمرها يهون، خالدةً تتناقلها الأجيال.

رزقنا الله وإياكم اليقين، وثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. جاء في الحديث المتفق عليه: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خيرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبرَ فَكانَ خَيْرًا له**»[١]. فاللهم لك الحمد ولك الشكر.

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩).

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

إحدى شركات

العبيكان للاستثمار Obeikan Investment Group

من إصداراتنا

لخدمات البيع والتوصيل

سوق إحدى شركات amazon | رواق | نون noon

كتبنا الإلكترونية

Google Play | amazon kindle

كتبنا الصوتية

ضاد للنشر الإلكتروني Dhad Audio Publishing WWW.DHAD.SA | Kitab Sawti www.kitabsawti.com | storytel

Follow Us

obeikn reader

obeikanpub

المكر

قال تعالى: في سورة آل عمران: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

حين نسمع كلمة مكر يتبادر إلى الذهن الاحتيال والخديعة، وجاء في لسان العرب عن ابن الأثير قال: «مكرُ الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه».

مما قاله الشيخ ابن عثيمين: «أن نصفَ الله بالمكر على الإطلاق، فنقول: إن الله ماكر، ونطلق فهذا لا يجوز، لماذا؟ لاحتمال النقص؛ لأن المكر ليس كمالًا في كلِّ حال، ولا نقصًا في كلِّ حال، فإذا أُطلق صار قابلًا لأن يكون نقصًا، فإذا قُيِّد بالحال التي يكون فيها كمالًا لم يحتمل أن يكون نقصًا، إذن نقول: المكر يوصف الله به لا على سبيل الإطلاق، ولكن في الحال التي وصف الله نفسه فيها به، ولهذا جاء في الحديث: «**الْحَرْبُ خُدْعَةٌ**»، وكلٌّ يعرف أن الخدعة في الحرب كمال ولا نقص؟ لمَّا خرج علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى مبارزة عمرو بن ودٍّ، صاح به، وقال: ما خرجت لأبارز رجلين، فظنَّ عمرو بن ودٍّ أنه قد تبعه أحدٌ من قومه،

فالتفـت لينظر هل لحقه أحـد، فلما التفت ضربه عليٌّ بالسـيف حتى طَنَّ رأسه، هذه خدعةٌ محمودة؛ لأنه جاء ليقتله، هو جاء ليقتل عليًّا، فتخلَّص منه عليٌّ بهذه الخدعـة، هذه تُعدُّ منقبةً لعلي بن أبي طالب، وصفة كمال. وحينئذ نقول: المكر في موضعه مدح وكمال».

وقال الشيخ: «والمكر هو أن يُتوصل إلى الانتقام من خصمه بأسباب غير متوقعة، يعني بأسباب خفية، فإن الإنسان يتوصل إلى أن ينتقم من خصمه من حيث لا يشـعر بأسـباب خفية. وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ يعني أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مَكـر بهم حينما مكروا بعيسـى، ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، يعني أقواهم في المكر وأشدُّهم، وأعلمهم بالأسباب التي تحيط بأعدائه.

فـإن قيل: ما هذا المكر الذي مكروه؟ فالجواب على هذا أنهم مكروا بعيسى، حيث تمالؤوا على قتله، فأنجاه الله منهم، ومكر بهم فجعل شبهه في رجل، إما منهم من الذين جاؤوا لقتله، وإما من أصحاب عيسى، ألقى الله شـبهه علـى واحد منهـم فقُتِل، المهم أن هـؤلاء تمالؤوا علـى القتل، وجـاؤوا إلى عيسـى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فدخلوا عليه ولم يُشـعروه أنهم يريدون قتله؛ لئلَّا يسـتنجد بأحد أو يدافع عن نفسه. وما أشبه هذا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ ألقى شبهه على واحد منهم، أو على واحد من أصحابه الحواريين. في هذا قولان للمفسِّـرين؛ منهم من قال: إن الله ألقى شـبهه على واحد منهم وهو زعيمهم، جعل الله شـبه عيسى في هذا الرجل، فلما أرادوا أن يقتلوه قال: أنا صاحبكم، قالوا: كذبت لست صاحبنا، بل أنت عيسى، فقتلوه وصلبوه، وهـذا مكر عظيـم أعظم من مكرهـم؛ لأن هذا الرجل الذي جـاء متزعمًا

هؤلاء القوم ليقتل عيسى صار هو القتيل، وهذا القول أقوى من حيث إنّ فيه مكرًا بهؤلاء عظيمًا. أما القول الثاني فيقولون: إن عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما أحسَّ بأنهم دخلوا عليه ليقتلوه قال لأحد أصحابه: من يَقبل أن يلقي الله عليه شبهي فأضمن له الجنة؟ فانتدب واحد منهم لذلك، وألقى الله شبهه عليه، وقيل: بل ألقى الله شبهه على جميع من كانوا مع عيسى، حتى إن هؤلاء القوم لما دخلوا كان كل واحد يقول: أيكم عيسى؟ أيكم عيسى؟ أيكم عيسى؟ لم يعلموه. هذان قولان رئيسان.

هذا هو مكرهم أنهم جاؤوا إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليقتلوه على وجهٍ لا يَشعر بذلك، أما مكر الله بهم فهو أنه ألقى الشبه، إما على واحد منهم، أو من أتباع عيسى فقتلوه، فظنوا أنهم قتلوا عيسى، وصاروا يعلنون قتلنا عيسى وصلبناه، وهم ما قتلوه وما صلبوه»[١].

إن هذا المكر الإلهي عظيم، جعلهم الله يحتارون أين عيسى! إنه مكرٌ لا يمكن أن يعمله البشر. سبحان القادر على كلِّ شيء، سبحان مَنْ إذا قال للشيء كُنْ فيكون، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي الآية الثانية ورد المكر مع كفار قريش، يقول الشيخ ابن سعدي: «اذكر أيها الرسول ما منَّ الله به عليك؛ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة، فيما يصنعون بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إمَّا أن يثبتوه عندهم بالحبس ويوثقوه، وإمَّا أن يقتلوه فيستريحوا -بزعمهم- من شرِّه، وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم. فكلٌّ أبدى من هذه الآراء رأيًا رآه،

(١) تفسير ابن عثيمين، موقع الباحث القرآني: https://tafsir.app/

فاتَّفق رأيهم على رأي رآه شريرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتًى، ويعطوه سيفًا صارمًا، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد؛ ليتفرَّق دمه في القبائل، فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديته، فلا يقدرون على مقاومة سائر قريش. فترصَّدوا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الليل، ليوقعوا به إذا قام من فراشه، فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذرَّ على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آتٍ، وقال: خيَّبكم الله، قد خرج محمد، وذَرَّ على رؤوسكم التراب، فنفض كلٌّ منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيَّده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له، وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج مستخفيًا منهم، خائفًا على نفسه. فسبحان اللطيف بعبده، الذي لا يغالبه مغالب»[١].

سبحان الله القادر على كلِّ شيء ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، مكروا بخير البشرية صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخيب الله عملهم وأبطله ومكر بهم، فكان سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خير الماكرين! أخرجه من بينهم، وأعمى أبصارهم، واجتازهم وفي يده حفنة من تراب، ذرَّها على رأس طاغوتهم وكبيرهم، على رأس أبي جهل ومن كان معه، وهو يتلو قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

وحين عرف أبوجهل بمكر الله بهم، وخروج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بينهم، فَقَدَ عقله، وصار كالمسعور يبحث عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير جدوى.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣١٩).

إن أنبياء الله ورسله محفوظون؛ فمعهم القوي الجبار، الحافظ العزيز، يمكر بأعدائهم، ويُـذلُّ خصومهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. فـالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ خيـرٌ حافظًـا وهـو أرحم الراحمين.

الميثاق

قـال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

نقـرأ في كتـاب الله فنجد النور والهداية، ونرى البصيرة والرشـاد، هو خيـر نعمـةٍ منحها الله عباده المسـلمين عامـةً والعرب خاصةً، فبلسـانهم نـزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، هو دسـتورٌ خالد يبنـي المجتمعات الصالحـة المطمئنـة المتحابـة؛ ولـذا يخبرنـا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنـه ما خُلقنـا للهـو والمرح، ولا للعذاب والشـقاوة، ولا لرزقه وإطعامه، وإنما لعبادته وحده لا شريك له ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريـات: ٥٦-٥٧]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ويخبرنا في آية هذا المجلس بأخذه المواثيق والعهود على الأمم السـابقة لإفراده بالعبادة، وقرن جَلَّجَلَالُهُ هذا الطلب بما يعمر الأرض ويصلـح مجتمعاتهـا، فمع عبادتـه أخذ ميثاقـه كذلك على بني إسـرائيل بالإحسـان إلى الوالدين، وجعل بعد ميثاق عبادته ميثاق بِرِّهما ورعايتهما وخفض الجناح لهما ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل، «وفي رواية: أحبُّ إلى الله»، «وفي أخرى: أقرب إلى الجنة»؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «**برُّ الوالدين**»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[١].

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رَغِمَ أنفه، رَغِمَ أنفه، رَغِمَ أنفه**»، قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك أبويه عند الكِبَر، أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة**»[٢].

ثم يرد ميثاق الإحسان لذوي القربى، بل جعل لهم حقًّا في مالك ﴿**وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ**﴾ [الإسراء: ٢٦]. عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «**من أحبَّ أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصلْ رحمه**». و(للبخاري) عن أبي هريرة، مثله[٣]. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل من إذا قُطعت رَحمه وصلها**»[٤].

وتتكرر الآيات التي تُوصي بحقوق الوالدين والأقربين ورعايتهم. دينٌ كاملٌ، ومواثيق عظيمة، تبني المجتمعات، وتزيد تماسكها، وتُزيل كل مسبِّبات الغيرة والحسد والشح.

وجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ميثاق اليتامى ورعايتهم يتكرر في كتابه الخالد، وذلك بالترغيب في احتضان اليتيم وخدمته؛ فرسول الله ﷺ أوّل الأيتام الذين امتنَّ الله عليهم بالرعاية ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ**﴾ [الضحى: ٦]. وقال

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٣٨ رقم ٥٢٧)، ومسلم (١/ ٨٩ رقم ٨٥).
(٢) إخرجه مسلم (٤/ ١٩٧٨ رقم ٢٥٥١).
(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٥ رقم ٢٠٦٧)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢ رقم ٢٥٥٧).
(٤) أخرجه البخاري (١٥/ ١٦٢ رقم ٥٩٩١).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار بإصبعيه**»[1]؛ أي قرنهما. ثم جاء ميثاق المساكين والعطف عليهم وبذل المال لهم ﴿**تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا**﴾ [البقرة: ٢٧٣]، يَسْتَحُون مُتعففون. تلك عمارة الأرض؛ إفراد الله بالعبادة، وترابط المجتمع، وتراحمه وتعاطفه، بل يأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون التواصل والعلاقات في المجتمع المسلم ندية طرية؛ لا قساوة ولا عداوة، وإنما بشاشة وترحيب ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا**﴾ [البقرة: ٨٣].

جاء في تفسير ابن كثير: «أَيْ كَلِّمُوهُمْ طَيِّبًا، ولِيِّنُوا لَهُمْ جَانِبًا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ بالمَعروف وَالنَّهْيُ عَنِ المنكر بالمعروف، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا**﴾، فالحُسْن مِنَ الْقَوْلِ: يأمر بالمعروف وَيَنْهَى عَنِ المنكر، وَيَحْلُمُ، وَيَعْفُو، وَيَصْفَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا كَمَا قَالَ الله، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهُ الله.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الخَزَّاز، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الجَوْنِي، عَنْ عَبْدِالله بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المعروف شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَالْقَ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[2].

وَنَاسَبَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، بَعْدَمَا أَمَرَهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِالْفِعْلِ، فَجَمَعَ بَيْنَ طَرَفَي الْإِحْسَانِ الْفِعْلِيِّ وَالْقَوْلِيِّ، ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ بِالمُعَيَّنِ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ، فَقَالَ: ﴿**وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَيْ: تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ، إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ،

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٣١١ رقم ٥٣٠٤) بلفظ قريب من هذا.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٦ رقم ٢٦٢٦) بلفظ قريب من هذا.

وَقَدْ أَمَرَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ بِنَظِيرِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. فَقَامَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَمْ تَقُمْ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ»(١).

ويرى العلماء أن هذا الميثاق، وإن أخذه الله على بني إسرائيل، وعصوا رسوله إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو ميثاقٌ لكل الأمم؛ فدِين الله واحد، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

هذا دين الله الكامل، يبني المجتمعات المتحابَّة، ويضع مناهج الحياة الكاملة؛ إحسانٌ وبرٌّ، صِلةٌ ورِقَّة، سلامٌ ومحبَّة. وإنَّه ليأخذني العجب حين أرى بعضهم عابسًا ساخطًا على الناس، وكأنه ينفق عليهم. أين هو من قراءة هذه الآيات البانية، هذه الآيات العطرة، كم يقرؤونها ولا يتدبرون، ويتلونها ولا يستشعرون.

أرجوك أخي في الله، قِفْ عند هذا الميثاق، وسائل نفسك: هل طبَّقته في أسرتك؟ وهل ذكَّرت به زملاءك؟ إنَّه ميثاق المحبَّة والمودَّة، كم هو جميلٌ أن نتلوه في كل حين، ونُذَكِّر به في كل مناسبة.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٩-٢١٠).

نُصِرْتَ يا عمرو

قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ردَّد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية الكريمة بعد دخوله مكة مُنهيًا جبروت قريش، وتسلطها على المسلمين!

رددها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يطوف ويحطم الأصنام بالكعبة تحطيمًا أبديًّا الى أن تقوم الساعة بإذن الله!

تلاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة يحفُّون به مهلِّلين مُكبِّرين مُلبِّين خاشعين، وقد علا الحقُّ، وخنع الباطل!

قالها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يدخل الحرم؛ رافعًا الرأس، منتصرًا لدين الله، وكان قد خرج من مكة متخفيًا.

عن ابن مسعود، قال: دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وحول البيت ثلاثُ مئة وستون صنمًا، فجعل يطعنها ويقول: «**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**»(١).

وقال الزمخشري في تفسيره: «كان حول البيت ثلاث مئة وستون صنمًا؛ صنم كل قوم بحيالهم، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كانت لقبائل العرب؛ يحجون إليها، وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فقال: أي ربِّ، حتى متى تُعبدُ هذه الأصنام حولي دونك، فأوحى الله إلى البيت: إنِّي سأحدث لك

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٤٤١ رقم ٤٧٢٠)، ومسلم (٣/ ١٤٠٨ رقم ١٧٨١).

نوبةً جديدة، فأملأك خدودًا سجدًا، يدفُّون إليك دفيف النسور[1]، يحنُّون إليـك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالتلبية. ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لرسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خذْ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنمًا صنمًا وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول: جاء الحقُّ وزهق الباطل، فينكبُّ الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعًا، وبقي صنـم خزاعة فوق الكعبـة، وكان من قوارير صفر، فقـال: يا علي، ارمِ به، فحمله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى صعد فرمى به فكسره»[2].

إن دخـول مكـة قصَّة مجد، وتاريخ عزٍّ وفخـر، فبعد أن صدَّت قريشٌ الرسولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة عن دخول مكة معتمرين، ووقَّع معها صلح الحديبية، دخلت بكر في عهد قريش، ودخلت قبيلة خزاعة في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي السنة التالية، السابعة من الهجرة، عاد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة في الشـهر الذي صدَّه فيه المشـركون، عاد معتمرًا عمرة القضاء مكان عمرته التي صَدُّوه عنها، ودخل مكة وأصحابه آمنين ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وبعد سبعة عشر شهرًا، وقيل ثمانية عشر شهرًا من ذاك الصلح، وبماءٍ يُقـال لـه الوتير، أناخـت قبيلة خزاعـة ركائبها بذاك المـكان، وحطَّ القوم رواحلهـم، وأمنـوا وناموا وقـد غطاهم الليل بظلامه، وألبسـهم سـكونه وهدوءه، فهم في العهد النبوي، ولكن كانت الخيانة تعمل، والشر يتوقد، والغـدر يتلمـظ، فقد اتفقت بكـر وقريش على الانتقام مـن خزاعة. قالت

(١) دفيف النسور: دبيب؛ والدفيف السير اللين.
(٢) الكشاف (٣/ ٥٤٦).

قريـش: «ما يعلم بنـا محمد، وهذا الليـل وما يرانا أحـد»، وفجأة أغارت بكر، وبمسـاعدة من قريش، وفتكـوا بخزاعة، وأعملوا سـيوفهم، وقتلوا عشـرين رجـلًا من خزاعة، فناحـت نوائحهم، وأصابهم الثـكل والجزع، وتلفَّتـوا ينشـدون النصر والعون، فمـا كان منهم إلا الذهـاب الى المدينة وطلـب الغـوث والعـون، وقابـل وافـدُ خُزاعـةَ الرسـول ﷺ وهو عمرو بـن سـالم الخزاعي، فأنشـد أبياتًا من الشـعر أمامه يسـتنصره فيها، وسمع الرسول استغاثته، فقال ﷺ، وقوله حق لا ينطق عن الهوى، قال: «**نصرت يا عمرو بن سـالم**»، وما برح حتى مرت بهم سـحابة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب**».

إن هـذا الغدر بخزاعة نقضٌ صريح لمعاهدة الحديبية، وعدوانٌ جليٌّ على حلفاء المسـلمين. وتشير بعض الروايات إلى أنَّ الرسول ﷺ أرسـل إلى قريش؛ يُخيِّرهم بين دفع دية قتلى خُزاعة، أو البراءة من حلف بكر، أو القتال، فاختارت قريش القتال، ثم ندمت وأرسلت أبا سفيان إلى المدينـة المنورة، يطلـب تجديد المعاهدة، لكنه فشـل في الحصول على التجديـد، فقـد أمر الرسـول ﷺ الصحابة بالتجهـز لنصرة خزاعة، وفتـح مكـة؛ فالإسـلام قد علا شـأنه وارتفـع، وصـارت له قـوة ومهابة، فالنـاس يتوافدون على المدينة يسـلمون، ويدخلون فـي دين الله أفواجًا. وعَمَّىَ ﷺ الأخبار عن قريش، ومشت القوة الإسلامية من المدينة بقيادة خير البشرية، ويحفُّ به ﷺ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، انطلقت القوَّة إلى مكة. ورد أن عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وقد اتخذ الرسـول ﷺ قرار الفتح والمنازلة، فشـمس كفار قريش قـد أفلـت، وقوتهم قد خـارت، في حيـن زادت قوة المسـلمين، وقويت

شكيمتهم. وحدثت بداية التحرك معجزة دوَّنتها الأخبار، فقد كتب الصحابي حاطب بن أبي بلتعة البدري رسالةً إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ على المسير، وأعطى رسالته لامرأة عجوز انطلقت بها إلى قريش، وجاء الخبر من السماء للرسول ﷺ، فبعث في إثرها علي بن أبي طالب، والزبير، والمقداد، وقال لهم: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ضعينة معها كتاب، فخذوه منها**». وعندما أدركوها في المكان الذي أشار إليه ﷺ طلبوا منها الكتاب، فأنكرت وجوده معها، فهدَّدوها وقالوا لها: «لتخرجن الكتاب أو لنلقين بثيابك»، وحين وجدت العزيمة والإصرار أخرجت الرسالة، وعادوا بها إلى الرسول ﷺ. وأرسل إلى حاطبٍ وسأله: ما حملك على هذا؟ فقال حاطب: يارسول الله، لا تعجل عليَّ، إنِّي كنت امرءًا ملصقًا في قريش حليفًا، ولم أكن من أنفسها، ومن معك من المهاجرين لهم قرابات، يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني النسب أن اتخذ عندهم يدًا، يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال ﷺ: «**أما إنَّه قد صدقكم**». قال عمر: دعني اضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «**إنَّه قد شهد بدرًا، وما يُدريك لعلَّ الله اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1]. ونزل من السماء قوله تعالى ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة: ١].

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٥٥٠ رقم ٣٠٠٧)، ومسلم (٤/ ١٩٤١ رقم ٢٤٩٤).

وكان خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة في العاشر من شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة، ووصل الجيش إلى مَرِّ الظهران، دون أن تعرف قريش بذلك، وفي الطريق قَدِمَ بعض زعماء المشركين، فأعلنوا إسلامهم، ومنهم أبو سفيان، فقد أسلم، ومضى إلى مكة، فأخبر قريشًا بقوة المسلمين، ونهاهم عن المقاومة. ودخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة من أعلاها من جهة كداء، ودخل خالد بن الوليد من أسفلها، وكانت مقاومة القُرشيين يسيرة.

وقد أباح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من فتح مكة حتى العصر، ولما كان العصر أعلن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف أي قتال بمكة، وأوضح حرمتها، فلما قتلت خزاعة رجلًا تطلُبه بثأر وداه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيَّن أنَّ من قتل بعد ذلك قتيلًا، فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية!

وأما عامَّة أهل مكة فقد عفا عنهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء إعلان العفو، وهم مجتمعون قرب الكعبة، وقلوبهم تخفق وجلًا وخوفًا؛ فتأريخهم معه ومع أصحابه أسود أغبر؛ عذَّبوا الصحابة، وقتلوهم، وآذوهم. وأحسبهم كانوا يتوقَّعون قرار الانتقام والإبادة. سألهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم؟**» فقالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريم. فقال: «**لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لي ولكم**». وفي رواية: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[(1)]. وفي فتح مكة نزلت سورة (النصر): ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا**﴾ [النصر: ١-٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١٣/ ٢٩٣ رقم ٥٦٧٥)، وفي سننه الكبرى (٩/ ١١٨ رقم ١٨٧٣٩)، وانظر: تاريخ الطبري (١٢/ ٩٣).

النُّور

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [التغابن: ٨].

عظيمٌ هو القرآن، وجليلٌ هو كتاب الله؛ هو خير النعم، وأشرف الكتب، سماه الله النور، ومن أصدق من الله قيلًا، هو ضوء الحياة، وهداية البشر، ونجاتهم من الضلال، فيه السعادة، وبه النجاة. وهذه الآية تُقرِّرُ أنّه نورٌ نازلٌ من السماء، من الأعلى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد اشتملت على ثلاثة أوامر هي؛ الإيمان بالله، والإيمان برسوله، والإيمان بالقرآن الكريم، النُّور المُنزَّل. ويخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية أنَّه يعلم حقيقتنا وإيماننا؛ فهو الخبير بكل أعمالنا الظاهرة والخفية، ما عملناه وما ننوي أن نعمله. إن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنده علم الغيب، أرسل رسله تترى، وكانت معهم معجزات حسِّية، رآها أقوامهم؛ كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزات عيسى، وغيرها من معجزات الأنبياء، وانتهت تلك المعجزات، وغابت مع أولئك الرسل، وجاء خاتم الأنبياء وسيد البشرية نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأنزل الله له معجزة باقية مُؤثِّرة إلى أن تقوم الساعة، تحدَّى الله الإنس والجن أن يأتو بمثلها ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

هـو معجزةٌ خالدة نزلت من السـماء، ونور الله في أرضه في كل زمان ومـكان، ينيرُ القلب والدرب، وهو سـنىً فوَّاح يعبـق بالمعنى الكريم في طريق السُّراة المدلجين، نستهدي به كل حين من هوام الطريق ومُهلكاته، يقـرؤه الكفرة؛ ليعيبوه، فينقض باطلهـم، وينقلهم من الغواية إلى الهداية. ونحـن الآن في عصر الماديات والمحسوسـات، لم يبـق في الأرض من معجـزات الأنبيـاء إلا القـرآن النـازل من السـماء، ففيه كل شـيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وعجبـي من الهاجرين لهذا النـور، الغافلين عن هذا التجلِّي الربَّاني الذي فيه. رزقني الله وإيَّاكم حلاوته وبهجته.

يقـول الشـيخ ابـن سـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سـمَّاه الله نـورًا؛ فـإن النـور ضـدَّ الظلمـة، وما في الكتـاب الذي أنزله الله من الأحكام والشـرائع والأخبار أنـوارٌ يُهتدى بهـا في ظلمات الجهـل المدلهمَّة، ويمشـي بها في حندس الليـل البهيـم، وما سـوى الاهتـداء بكتاب الله، فهـي علـوم ضررها أكثر مـن نفعها، وشـرُّها أكثر مـن خيرها، بل لا خير فيها ولا نفـع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسـل. والإيمان بالله ورسـوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة»(١).

سَمِعَه فُصحاء العرب فبهرهم بيانه، وعرفوا أنه فوق مقدرة البشر، وأنه نُور إلهي تصغر أمامه بلاغتهم، وتتلاشى عنده قُدراتهم. سمعه عمر بن الخطاب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي: (ص٨٦٦).

حين جاء غاضبًا من إسلام أخته، مُزمجرًا كالأسد شراسة، فتراجع أمام قوله تعالى ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ١-٨]، وصار هينًا لينًا سمحًا، يسأل أين محمدٌ ﷺ ليسلم ويصبح من جنود الإسلام الكبار.

وذاك مصعب بن عمير يختاره الرسول ﷺ ليكون رسوله إلى المدينة المنورة قبل الهجرة، ويحمل مصعب معه نور الله الهادي، فيضيء المدينة المنورة، ويتتابع الأنصار يسمعون ويسلمون. ذات يومٍ أتى أُسيدُ بن حُضير -زعيمٌ من زعماء المدينة- مهتاجًا شاهرًا حربته، ويقف على مصعب، ويقول: ما جاء بك! تُسفِّه ضعفاءنا! اعتزِل إن كنت لا تريد الخروج من الحياة! وبهدوءٍ وسكينة وثقة، يقول له مصعب: أولا تجلس فتستمع!؟ فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره. ويقول أسيد: لقد أنصفت، فيُلقي حربته ويجلس ليستمع نور الله من مصعب، ويقرأ عليه مصعب آيات من كتاب الله، فيدخل النور قلب أُسيد، فيقول: ما أحسن هذا القول وأصدقه، كيف يصنع من يدخل في هذا الدين؟!

فيرد مصعب ببشر وسعادة: يطهر ثوبه وبدنه، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله!

وينهض أُسيد سيِّد بني عبدالأشهل بالمدينة، ويغيب عنهم قليلًا من الوقت، ثم يعود يقطر الماء الطهور من شعر رأسه، ويزيح رداء الكفر، ويتجلَّل لباس الإسلام، فيشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله!

هـو نور الله، أشـرق في المدينة وأضـاء جنباتها قبل مقدم رسـول الله ﷺ! الله أكبـر، الله أكبر، نورٌ يزيح الظلمـة، وينفي الجهالة. وينجح رسـولُ رسـولِ الله فـي تبليغ الدعـوة فيسـلم الكثيرون! هو نـور الله، نقل مصعب بـن عمير من ترف الدنيا إلـى نعيم الآخرة، يقول ﷺ، وقد رآه مقبـلًا وعليـه إهـابُ كبشٍ قـد تنطَّق بـه، وكان في الكفـر يلبس أفخر الحلـل وأثمنهـا، يقـول لأصحابه: «**انظُروا إِلـى هَذا الرَّجل الَّـذي قدْ نوَّرَ اللهُ قَلبَـه، لَقـد رَأيتُـه بَينَ أَبويْـنِ يَغْذُوَانِه بأَطيـبِ الطَّعامِ والشَّـرابِ، فدَعاه حُبُّ اللهِ ورَسـولِه إلى ما تَرونَ**»[1]. ويشارك في المغازي ويسلّمه الرسول ﷺ راية المسـلمين يوم أُحد ويستشـهد، فما وجد الصحابة له كفنًا إلا ثوبًا صغيرًا؛ إن سـتر وجهه كشـف عن قدميه، وإن غطَّى قدميه كشـف عن وجهه. فأمر الرسـول -صلوات الله عليه- بـأن يُغَطَّى وجهُه بالثوب، وأن تُسـتَر رِجلاه بِرطَبِ الكَلأ[2]... ثـم وقف فوقه، وتلا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٢٣][3].

إنَّـه القرآن رفع نفوس الصحابة إلى أعلى سـقف في نيل الجنة وبلوغ السـعادة بكل تجلياتها المعنوية والمادِّية، ولازال يشـحذ هممنا للارتقاء بعزائمنـا المتوقِّدة بالإيمـان إلى أبعد مدى؛ لنعانق السـماء؛ حيث الحياة الطيبـة، والظـلال الوارفـة، والنعيـم الدائـم بمـذاق الجنـة. اللهـم املأ قلوبنا بنورك، وارزقنا تأمُّله وتدبُّره، آمين، آمين.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٦٢).

(٢) رَطَب الكَلإ: العُشب الرطب.

(٣) وانظر: صور من حياة الصحابة، قصة مصعب بن عمير (٣٨٩-٣٩٧).

الهداية

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

تتحسر قُلوبُ المُحبين على قُلوب أحبتِهم يطلبُون هدايتها، وينشُدُونَ صلاحها، وكم تحترق قلوبُ الوالدين على فلذات أكبادهم، يودُّون لهم الخيرَ والاستقامة، وكم عجز كثير من الآباء عن صلاحِ أبنائهم، وكم وُجد من صالحين أخيار عاشوا اليُتم، وذاقوا مرارته، وكم عُرف من فُضلاء فاقوا آباءهم، وكم نضج واستقام أخيارٌ عاشوا شبهَ فاقدي الأبوين، هي الهدايةُ بيدِ الله، نسأله نُور البَصِيرَةِ.

قال ابن كثير في تفسيره: «يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: إنّك يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ أي: ليس إليك ذلك، إنَّما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجَّة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهذه الآية أخصُّ من هذا كله؛ فإنَّه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: هو أعلم بمن يستحقُّ الهداية ممن يستحقُّ الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عمّ

رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفِّه ويحبُّه حبًّا شديدًا طبعيًّا لا شرعيًّا، فلمَّا حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمرَّ على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة.

قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب، عن أبيه -وهو المسيب بن حزن المخزومي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملَّة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى قال آخر ما قال: هو على ملَّة عبدالمطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أما لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك**». فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]»[(١)]. وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، إي والله؛ الهداية بيد الله! فهذا عمُّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كافل الرسول وحاميه، والذائد عنه، لا تُكتب له الهداية مع شفقة الرسول عليه، وشدَّة حبِّه له، يموت شقيًّا!

ويعرض القرآن الكريم نماذج من العُصاة، وأخرى من الهُداة؛ فنبيُّ الله نوح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ اختار ابنه الضلالة وعصى والده، يقول تعالى عن ذلك: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٢٤٦).

سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٧].

في هذه الآيات الشريفة يأتينا الخبر اليقين عن نبي الله نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكيف ضَلَّ ابنه، وتحرَّكت عواطف الأب، فبات يُناجي ربَّه في ابنه، ويأتيه الجواب الربَّاني أنَّه ليس من أهلك؛ لأنه اختار طريق الشقاوة والضلال. هي الهداية بيد الله، نسأله الثبات.

والزوجة أقرب ما تكون للرجل؛ فهي لباسٌ له، وهو لباسٌ لها ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ومع ذلك عصت امرأة نوح، وامرأة لوط زوجيهما في طاعة الله، وهما من أنبياء الله، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

والابن مهما كانت شفقته على أبيه وخوفه عليه، فإن تلك الشفقة لا يمكن أن تدفع الشقي للهداية ما لم يأذن الله بذلك، فذاك سيدنا إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يتلطَّف في خطاب والده ومناجاة أبيه، ومع ذلك يعصي الأبُ، وتغلبه الشقاوة؛ إذ نقرأ الآيات الكريمات في سورة مريم التي تعرض شفقة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على أبيه وترفُّقه وترقُّقه وهو يُخاطب

والده آزر، فيكرِّر في حنان ولهفة؛ يا أبت، يا أبت، يا أبت، يا أبت: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤١-٤٥]، وتغلب الشقاوة الأب فيرفض دعاء ابنه ورجاءه، ويتهدده ويتوعده: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٦].

وفي صدر الإسلام، حين بدأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعوة، أسلم رجال وتمنَّع ذووهم، وكان امتحان وابتلاء لعدد من الصحابة، وعبر التاريخ تميَّز رجالٌ بالتقوى والصلاح، فكانوا نجومًا في العلم والصلاح، وقُدوات في الهداية والرشاد، في حين أن أقرب النَّاس إليهم في جنوح وغواية. هي الهداية بيد الله! لقد عانى بعض الصحابة بعد أن هداهم الله إلى طريق الحق والفضيلة معاناة كبيرة من ذويهم، ونزل القرآن يُثبِّتهم على الحق ويطمئن نفوسهم فيما هم فيه سائرون، فآثروا رضا الله على كل شيء: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]. صبر سعد بن أبي وقاص على عناد أُمِّه، وصحِبَها بمعروف إلى أن هداها الله وأسلمت، ولقي مصعب بن عمير القسوة من أمِّه، وتمنَّع والد الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بداية الإسلام، وعجز عدد من الصحابة عن هداية أحبِّ الناس إليهم،

فـذاك أبو عبيدة بـن الجرَّاح الصحابـي الجليل وموقفه مع أبيه المشـرك، فقـد قطعت الهداية ما بين الابن عامر وأبيه عبدالله، وكانت الهداية فيصلًا يحجز هذا عن ذاك، ويُبعِد بعضهم عن الآخر.

روت كتب السـيرة أن الصحابي الجليل أبو عُبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح الفِهري أسلم على يد أبي بكر الصديق في الأيَّام الأُولى للإسلام، وحسُن إسلامه، حتى إن الرسول ﷺ أمسكه ذات يوم بيمينه، وقال عنـه: «**إنّ لِـكل أُمّةٍ أمينًـا، وإنَّ أمينَ هـذه الأُمةِ أبو عبيدة بـن الجراح**»[1]، وتمنَّـع والـدُ عامر عن الإسـلام، وضـلَّ طريـق الهداية، وغلبه شـيطانه، وازداد الأبُ شقاوة، وسلك دروب الغواية، ومضت الأيام، وعاش الابن عامر تجربة المسلمين القاسية في مكَّة، فثبَّته الله، ثمَّ هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وترك والده ومكة، وبعد أن هاجر الرسـول ﷺ إلى المدينة، كان أبوعبيدة من فرسـان الإسـلام الأبطـال، لكنَّه عاش في أول لقاء مع المشـركين فـي معركة بدر مِحنة جليلة، وموقفًـا تعجزُ عن حمله الجبـال الرواسـي، موقفًـا يفـوق الخيال، وذلـك أن حدث له فـي معركة بـدر ابتـلاءٌ وامتحان؛ فبعـد بدء المعركة أسـرع أبوعبيدة لميـدان الموت يصول مع المسـلمين الأبطـال، ويتصدَّى للمشـركين، لا يهاب الموت، ولا يخشـى الردى، فهابه المشـركون وتخوَّفوا من كَرِّه وشجاعته، وثباته ويقينـه، فحذره فرسـان قريش، وتنحَّـوا عنه، لكن رجلًا واحـدًا من كفار قريش صار يتعرَّض لأبي عبيدة في كل اتِّجاه، ويمنعه من فري المشركين وقتلهـم، ويحول دونه ومجالـدة أعداء الله، وعرف أبو عبيدة ذاك الرجل؛

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٢٩٣ رقم ٣٧٤٤)، ومسلم (٤/ ١٨٨١ رقم ٢٤١٩).

إنـه أبـوه عبدالله بن الجراح، وأحسـب أن الابن صاريتنحـى عن والد في تلك اللحظات الحرجة يمنةً ويسرة، متحاشيًا منازلة أبيه، لكن حين اشتدَّ خناق ذاك الرجل الشـقي، ذلك الأب التعيس على الابن الحائر، وأصبح الابن بين خيارين:

وقـال أُصيحابـي الفـرارَ أو الـردى
فقُلـت هُمـا أمـران أحلاهمـا مُـرُّ

فإما أن يتـرك المعركة ويفرَّ لأجل والده الضَّال، أو يُضحِّي بوالده في سـبيل الله، وأعانه الله وثبَّته فاختار الجنَّة، ونسـي أنه أبوه فضربه بالسيف، فخـرَّ صريعًا مع المشـركين القتلـى. هي الهداية والغوايـة؛ طريقان اختار الأب طريق الشـر والضلالـة، واختار الابن طريق الهدايـة والخير، وكان امتحانًا صعبًا اجتازه أبوعبيدة بنجاح، وفاز بآخرته. يقول عمر بن الخطاب «لوكُنـت مُتمنِّيًـا، ما تمنَّيتُ إلا بيتًـا مملوءًا برجالٍ من أمثـال أبي عبيدة»، رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

إنهـا هدايـة الله امتزجـت بدماء أولئك الصحب. «أرسـل رسـول الله ﷺ أبـا عبيدة في غزوة (الخبَط) أميرًا على ثلاث مئة وبضعة عشـر رجـلًا من المقاتلين، وليس معهم من زادٍ سـوى جراب تمر...، والمهمَّة صعبة، والسـفر بعيد، اسـتقبل أبو عبيدة واجبه في تفانٍ وغِبطة، وراح هو وجنوده يقطعون الأرض، وزادُ كلِّ واحدٍ منهم طوال يوم حفنة تمر، حتى إذا أوشـك التمـر أن ينتهي، يهبط نصيب كل واحد إلـى تمرةٍ في اليوم..، حتـى إذا فرغ التمـر جميعه راحوا يتصيَّـدون (الخبَط)؛ أي ورق الشـجر

بِقسيِّهم، فيسحقونه ويسفُّونه ويشربون عليه الماء...، ومن أجل هذا سُمِّيت هذه الغزوة بغزوة (الخبَط).

لقد مضوا لا يبالون بجوعٍ ولا بحرمان، ولا يعنيهم إلا أن يُنجزوا مع أميرهم القوي الأمين المهمَّة الجليلة التي اختارهم رسول الله لها...!»[1].

رجالٌ قُدوات اهتدوا فكانوا شموعًا مُضيئة في تاريخنا الإسلامي، غذاؤهم ورق الشجر، والتمرة والتمرتان، ويصبرون، أنستهم هداية الله الدنيا وأنفسهم، فسكنوا ظهور الجياد الصاهلة، حتى كأننا نقرأ قصص خيالٍ، لا مشاهد حقيقةً وواقعًا!

كأنّ الخيلَ تعرفُ مَنْ عليها
ففي بعضٍ على بعضٍ تعالي

(١) انظر: رجال حول الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (١٥٥). وصور من حياة الصحابة: (١/ ٩٠-٩٢).

الوالدان

قرأ الإمام فـي صلاة الفجـر: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

فكانـت الجلسـة مع هذا التوجيـه الربَّاني الخالـد، وصيَّة من الله لكل إنسـان، وصيةُ رحمةٍ ومحبَّة، وصيةُ رقَةٍ وحنان، فأيُ وصفٍ أدقُّ من هذا الوصف؟ تلك أُمُّك أيُّها الإنسان، منذ كُنتَ نُطفةً في رحمها، وهي تحمل همَّـك، تتقيد حركاتها، وتترفَّق في مشيتها، وتستشعرك وهي في نومها، تتحسَّسُك بمشاعرها، وتمسح عليك كلَّ حين، وأنت في بطنها.

أعبـدَ اللـه ما أُسـدِي جميـلًا　　　نظيـرَ جميلِ فعلِـك مثل أمِّي
سـقتني درَّها ورَعـتْ وباتَـتْ　　　تعوِّذنـي وتقـرأُ أو تُسـمِّي

هـو القرآن أوصى ببرِّ الوالديـن وحقوقهما، ووردَت آيـاتٌ متعدِّدة، تؤكِّـد طاعتهما وصحبتهما؛ إنّه بناء الأسـرة يرعاه ديننا الحنيف، ويحفظه دسـتورنا الخالـد، وحتى مـع الشـرك صحبةٌ وارتبـاط، قِيـل وردت هذه الآيـات الكريمـات حول علاقـة الصحابـي الجليل سـعد بن أبي وقَّاص

بأمِّـه؛ إذ كان مُحبًّـا لأمِّه بـارًّا بها، لكن حـدث ما كدَّر تلـك العلاقة حين أسـلم سعد، فما إن علمت بإسـلامه إلا ورفضت وقاومت ثباته، ولجأت لوسيلةٍ حسبتها تهزم روح سعد وتردُّه عن دينه. يقول سعد: ما إن سمعت أمِّي بخبر إسـلامي، حتـى ثارت وولولت، وقالت: يا سـعد ما هذا الدين الـذي اعتنقتـه، فصرفـك عن دين أبيـك وأمِّـك، ومضت تلـوم وتعنِّف، حسـبت أنَّهـا على الطريق السـوي، وأن صنمها ووثنها الـذي تتقرب إليه ينفعها، وأقسـمت إن لم يترك سـعدٌ دينَه، ويتوب ويعود إلى دينها الوثني، فلـن تأكل ولن تشـرب حتى تموت، وعند ذاك سـيتفطَّر قلب سـعد حزنًا عليهـا، ويمضـي بقية عمره نادمًـا أن عصى أمَّـه، ويُعيِّره النـاس، ويكون أحدوثة الدهر مَسـبَّةً ومذمَّة، هذا ما تراه أمُّـه وتعتقده. ومضت المرأة في غَيِّها، فاجتنبت الطعام والشـراب، وظلت أيَّامًا لا تأكل ولا تشرب، فهزل جسـمها، وتدهورت صحتها، ويزورها سـعد فيترجَّاها أن تأكل وتشرب فتأبى أشـدَّ الإباء، وتُعرض أشرس الإعراض، وتتكرَّر زيارة سعد، ويتألَّم لرؤيـة أمِّه وهي على تلـك الحالة، وتصرُّ على موقفها، ويصرُّ سـعدٌ على دينه. وذات يومٍ جاء إليها وقال لها: أُمَّاه إنِّي على شـديد حبِّي لك لأشـدُّ حبًّـا لله ولرسـوله...، ووالله لـو كان لك ألـفُ نفسٍ فخرجت منك نفسًـا بعـد نفس ما تركت دينـي، فلمـا رأت أمُّه جَـدَّه ومضاء عزيمتـه أذعنت للأمر، وأكلت وشـربت وهـي كارهةٌ حانقة قالية. وكأنّي بحالة سـعد مع أمه حديث أهل مكة، بين مشـركين يلومونه ويشمتون بموقفه، ومسلمين يعطفـون عليه ويشـاطرونه الهـمَّ. وجاء القـرآن الكريم ليزيدَ سـعدًا ثباتًا وقربًا، فلا طاعة لها في معصية الله، ولا نفور عنها ولا انقطاع. جاء القرآن

الكريم بوصية الله لكلِّ إنسانٍ مهما كان دينه وجنسه، وأيًّا كان لونه وعرقه. إن وصية الخالق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تعني البرَّ والرحمة، والحبَّ والعطف، فكل مولودٍ مهما كان دينه، وأيًّا كان شكله، وأينما كان مكانه، تحمله أمُّه وهنًا على وهن، وتعبًا فوق تعب، وألمًا مع ألم، كلما نما الجنين وازداد قوة، كلما ازدادت أمُّه ثقلًا وضعفًا، وفور ولادة الصغير وهمهمته، تحنو عليه أمُّه، ويعطف عليه أبوه، وهي غريزةٌ أودعها الله خلقه، وتظل الأم ترعى الصغير وتشفق، ويشاطرها الأب حبًّا وشفقة، وكلما كبر وتحمَّل شؤون نفسه كلما خَفَّت العاطفة، واستقلَّ عن والديه.

ويُذَكِّرُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الإنسان بسنوات الضعف والطفولة، وأيام مشقَّة الوالدين وعطفهما، فيتذكر الإنسانُ ما بذله والداه فلا ينسى. إن عاطفة الوالدين غريزية، وهي أقوى من عاطفة الأبناء.

لقد نزلت الآيات الكريمة قارنةً شكر الله بشكر الوالدين، وذلك غاية التكريم للخلق؛ فيشكرون الله أن أوجدهم من عدم، وأوجد غريزة الحب والشفقة في قلوب الأبوين؛ فيتعهدان الصغير منذ الحمل والولادة، يسهران لسهره، ويمرضان لمرضه، ومع هذا التذكير تُشير هذه الآيات الكريمات إلى حال سعد، وهي لكل مسلم؛ فلئن رغب الوالدان وبذلا جهدهما لصدِّك عن دين الله فلا تطعهما في الشرك والكفر بالله، لكن تلزمك الصحبة الحسنة لهما، وإن ظلَّا مشركَين، وهذا يعني وجوب طاعة الأبوين في غير معصية الله، إنه الدين الكامل يبني البيوت، ويحفظ الأسر، فمع الشرك صحبةٌ ورفقة. إن الصحبة بالمعروف تعني الرفق والحب والنفقة، لقد أضحت حالة سعد قرآنًا يُتلى، وباتت منهجًا لكل

مسلم إلى أن تقوم الساعة. يقول الرسول ﷺ في سعد: «**هذا خالي فليُرني امرؤٌ خاله!**»(١).

إنه الفخر كلُّه، وهي العظمة والمجد، يجتمع له ثناء الله ورسوله، إنه سعد التاريخ والبطولة؛ ينزل فيه قرآنٌ يُتلى، ويقول له الرسول ﷺ يوم أحد: «**ارمِ سعدُ فداك أبي وأمِّي**»(٢)، قالها الرسول وقد اشتد الخطب وجرح -بأبي وأمِّي عليه السلام- فكُسِرت رباعيته. قالها ﷺ وقد حضر الموت، وجاد الشهداء بأرواحهم في سبيل الله، فتساقطوا واحدًا تلو الآخر. ويرى الرسول ﷺ من سعد في مواطن أخرى ما يسرُّه فيدعو له، ويقول: «**اللهمَّ سدِّد رميتَه... وأجبْ دعوتَه**»(٣).

وترد في سورة الإسراء آية الرفق والرقَّة مع الوالدين ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾ [الإسراء: ٢٣].

يقول الزمخشري في تفسيره: «بالغ سبحانه وتعالى في التوصية بالوالدين؛ حيث افتتح الآية بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معًا، ثم ضيَّق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخِّص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجِّر مع موجبات الضَّجر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٤٩ رقم ٣٧٥٢) وقال: حديث حسن غريب. والحاكم (٣/ ٥٦٩ رقم ٦١١٣) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٩٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٣٨٩ رقم ٢٩٠٥)، ومسلم (٤/ ١٨٧٦ رقم ٢٤١١).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٢٠٦ رقم ١٠٠٧)، والحاكم (٣/ ٢٨ رقم ٤٣١٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦١٥ رقم ١٤٠٨) وصححه الألباني.

يدخل صبر الإنسـان معها في اسـتطاعة، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك. والنهي والنهر والنهم: أخوات ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفُّف والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلًا، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المـروءة. وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه، يا أمَّاه، كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت، مع كفره ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنَّه من الجفا وسوء الأدب»[(١)].

ويخـصُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالة الكِبَر بالذكر، فالأبـوان عندما تتقدَّم بهما السن يضعفان، فكلما زادت السن زاد الضعف، وتسارع الهزل، وصارا مثل الطفل بحاجةٍ لمن يرعاه، وأقرب الناس للوالدين الابن والابنة. إن الله يُذكِّر بحال الطفولة والصِّغر حين كان الوالدان يرفرفان رفرفة الطائر على فراخه، فيأمر بالحنان ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، ويأمر بالدعاء لهمـا، فكم سـهرا، وكم تعبـا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

يقـول الشـيخ الشـعراوي: «الذلَّة هنا ذلَّـة تواضع ورحمـة للوالدين، ولكـن رحمتك لا تكفـي، فعليك أن تطلب لهما الرحمـة الكبرى من الله تعالـى؛ لأن رحمتك بهما لا تفـي بما قدَّموه لك، ولا تـرد لهما الجميل، وليس البادئ كالمكافئ، فهم أحسـنوا إليك بدايةً، وأنت أحسـنت إليهما ردًّا؛ لذلـك ادعُ الله أن يرحمهمـا، وأن يتكفَّل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنك بردِّ الجميل، وأن يرحمهما رحمةً تكافئ إحسانهما إليك»[(٢)].

وتتكـرَّر فـي القرآن الكريـم آياتٌ عظيمـة، قرن الله تعالـى بين عبادته والإحسـان إلـى الوالديـن، فقـال تعالـى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا

(١) الكشاف، الزمخشري: (٢/ ٦٤٢).
(٢) تفسير الشعراوي: (١٤/ ٨٤٦٦).

تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال أيضًا: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي المصدر الثاني من مصادر التشريع الخالد أحاديث شريفة تؤكِّد البر بالوالدين، يقول ﷺ: «**رضا الربِّ في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما**»(١).

آياتٌ كريمة، وأحاديث شريفة تبني البيوت، وتُعلي شأن الأسرة؛ ترابطٌ وتواصل، ورفقٌ وإحسان، وتوصيةٌ بذوي القربى، واليتامى، والمساكين؛ دينٌ عظيم، وقيمٌ خالدة يتلقَّاها المسلمون؛ عبادةً لله، ويطبِّقونها؛ طاعةً له جلَّ عُلاه. إننا نرى واقع الشعوب غير المسلمة وكيف يُودِعون كبارَهم الملاجئ، ويقطعون وشائج المودَّة والصلة، فحتى الزيارة يضنُّون بها عليهم؛ فالحمدُ لله على ما نسعد به من قيمٍ عظيمة خالدة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٢)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم ٢) وفي صحيح الجامع (رقم ٣٥٠٦).

وَذَكِّرْ

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

الدنيا فتَّانة جذابة، تمضي أيامها ولياليها وأغلب الناس في غفلة عن آخرتهم، وفي استمتاع ولهو عن مستقبلهم الخالد، وعن حياتهم التي هي خير وأبقى، كم رأينا ونرى من أقوام لاهين في دنياهم مُقصرين في عبادتهم؟ يستثقلون الدعاة والواعظين! فكيف السبيل لإيقاظهم من سكرتهم؟ وكيف الطريق لتحذيرهم قبل موتهم ورحيلهم؟ إن الدنيا رحلة سريعة، تنطوي الأعمار فيها عجلى، وتخترم المنون هذا وذاك، وتحسبها عنك متجاوزة، حتما ستكون يومًا ذاك الراحل، فهل أعددت للرحلة زادها؟

إن القرآنَ خير واعظ، وخير مُذكر، الكل مع القرآن يُطرق الرأس، هو القول الفصل، أمرَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سيدنا محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُذكر بالقرآن، ونحن على هديه نسير، وبمنهجه نقتدي.

إن التذكير بالقرآن أزكي المواعظ وأبلغ الزواجر، ففي الآية الأولى أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يُذكر بالقرآن، قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ التذكير، هو تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره، وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد، ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره، إقامة الحجة عليه؛ لئلا يقول: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]. وأكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الثانية أن الذكرى تنفع المؤمنين، فجزى الله منْ ذكرنا بالله خيرًا.

يقول الشيخ ابن عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: أطلق الله الذكر، وقال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ ولم يقل: ذكر المؤمنين، لكن بيَّن أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون؛ قال: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن المؤمن إذا ذُكِّرَ فهو كما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، بل يقبلونها بكل رحابة صدر وبكل طمأنينة، وفي الآية: دليل على وجوب التذكير على كل حال، وفيها: أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون، وأن من لا ينتفع بالذكرى فهو ليس بمؤمن؛ إما فاقد الإيمان، وإما ناقص الإيمان، وهنا فتش عن نفسك: هل أنت إذا ذُكِّرْت بآيات الله وخُوِّفت من الله عَزَّوَجَلَّ هل أنت تتذكر، أم يبقى قلبك كما هو قاسٍ؟ إن كانت الأولى فاحمد الله فإنك من المؤمنين، وإن كانت الثانية فحاسب نفسك، ولا تلومَنَّ إلا نفسك، عليك أن ترجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ حتى تنتفع بالذكرى، وفي الآية: دليل على أنه كلما كان الإيمان أقوى كان الانتفاع بالذكرى أعظم وأشد، وذلك من قاعدةٍ معروفةٍ عند العلماء وهي: أن الحكم إذا عُلِّقَ بوصف ازداد بزيادته ونقص بنقصانه.

والآيـة الثالثة يؤكد فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لسـيدنا ورسـولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُزول القرآن من السـماء، وما أعظمها وأفخرهـا من مائدة خالدة أكرم الله بها المسـلمين، قل لي بربـك، ماذا ترى بين يديك من شـيءٍ تعلم أنه آتٍ مـن الله جلَّ جلاله؟! ومـا هو الذي تجزمُ بوروده مـن الله العلي الأعلى؟ إنـه القرآن الكريم وكفى به واعظًا! جاء في تفسـير ابن سـعدى حول هذه الآيـة: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقـول تعالى لرسـوله محمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًا له عظمة القـرآن: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: كتـاب جليل حوى كل ما يحتاج إليـه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشـرعية، محكمًا مفصلًا ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ﴾ أي: ضيق وشـك واشـتباه، بل لتعلم أنه تنزيل حكيم حميد ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وأنـه أصـدق الكلام فلينشـرح لـه صـدرك، ولتطمئـن به نفسـك، ولتصـدع بأوامـره ونواهيه، ولا تخش لائمًا ومعارضًا.

أمـا الآيـة الرابعـة مـن آيـات التذكيـر ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، فقـد تكـررت هذه الآية في سـورة القمر أربع مـرات، ووردت بعد أن نبهنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بداية السـورة لأمر جلل، قال تعالى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، فقـد وصلـت النهاية، ودنا الحسـاب، جاءت فـي المرة الأولى بعد الإخبار عن قوم نوح، وما سـمعوه من تذكير وتخويف، ألف سـنة إلا خمسـين عامًا ونوحٌ يُحذرهم ويُذكرهم فيكذبـوه فنالوا عقاب الله ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ

أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩-١٧]، تخويفٌ وتحذير، أي والله إن القرآن أصدق واعظ، فهل من ذاكرٍ ومُتّعظٍ، يعلم أن ما أصاب قومَ نوحٍ من عذابٍ يُصيب كلَّ كافرٍ جاحد؟

وجاءت الآية الثانية بعد إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قوم عاد، وعصيانهم نبيهم هود؛ إذ قالوا له في آية أخرى ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وعرض في هذه الآية كيف كان عذابه لهم ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٢]. إنهم قوم عاد أولو القوة والشدة، يقص القرآن خبرهم، ويذكر بهم. إنه القرآن كلام الله، ما ورد فيه حقٌّ وصدق، يَسَّر الله قراءته وفهمه، فهل من مُدّكر ومُتّعظ؟!

وفي المرة الثالثة يقص سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خبر قوم ثمود، وأنهم لم يتذكروا، ولم يسمعوا قول نبيهم وتحذيره لهم، فكان العقاب، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢]. إنه القرآن تذكيرٌ بعد تذكير.

وتكررت الآية للمرة الرابعة في هذه السورة الشريفة، فبعد أن ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شناعة قوم لوط وقباحتهم، وكيف حذرهم نبي الله لوط وخوفهم، بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جزاءهم وعقوبتهم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣-٤٠]. إن هذه السورة الكريمة تعرض حالة تلك الأمم التي كذبت وعصت، وكيف عاقبهم الله واجتثَّهُم، ويختم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند خبر كل أمة تمردت، بتذكيرنا أن ما ورد في القرآن الكريم عبرة وعظة! فهل من مُدَّكِر؟

قال الشيخ ابن عثيمين: من قرأ القرآن ليتذكر به ويتعظ به سهل عليه ذلك، واتعظ وانتفع، فهذا المعنى أقرب للصواب، بدليل قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: هل أحد يدكر، مع أن الله سهل القرآن للذكر؟ أفلا يليق بنا وقد يسر الله القرآن للذكر، أفلا يليق بنا أن نتعظ ونتذكر؟ بلى. هذا هو اللائق ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

عن النعمان بن بشير: «إنَّ ممّا تذكرونَ من جلالِ اللهِ التسبيحَ والتهليلَ والتحميدَ، ينعطِفْنَ حولَ العرشِ، لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحلِ، تُذكِّرُ بصاحبِها، أما يُحبُّ أحدُكم أن يكونَ له أو لا يزالَ له من يُذكِرُ به»(١).

لقد حَثَّ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على تَرطيبِ الألْسِنةِ بذِكْرِ اللهِ، وتَعميرِ القُلوبِ به، وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النُّعمانُ بنُ بَشيرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إنَّ ممّا تذكُرونَ مِن جَلالِ اللهِ**»، أي: تَعظيمِه «**التَّسبيحَ**»، وهو قولُ: سُبحانَ اللهِ، وما شابَه ذلك، «**والتَّهليلَ**» وهو قولُ: لا إلهَ إلّا اللهُ،

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٢ رقم ٣٨٠٩)، والحاكم (١/ ٦٧٨ رقم ١٨٤١) وصححه. وكذلك الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣/ ١٦١ رقم ٣٣٥٨).

«**والتَّحميـدَ**» وهو قولُ: الحمـدُ للهِ، «**يَنْعَطِفْنَ حَولَ العـرْشِ**»، أي: هؤلاء الكلمـاتُ والجُمَـلُ الأربعُ يَمِلْـنَ ويَدُرْنَ حولَـه، والمُـرادُ طَوافُهنَّ حَولَ العـرشِ، «**ولهـنَّ دَوِيٌّ كدَوِيِّ النَّحلِ**»، أي: صَوتٌ يُشْـبِهُ صَـوتَ النَّحلِ؛ مِـن كثرةِ تَكرارِ هذه الكلمـاتِ وتَرديدِها، «**تُذَكِّرُ بصاحبِها**»، أي: تذكُرُ أنَّ قائلَهـا فـلانٌ، في المَقامِ الأعلى، وفـي هذا أعظَمُ حَضٍّ علـى الذِّكرِ بهذه الألفاظِ، «**أَما يُحِبُّ أحدُكم أنْ يكونَ له -أو لا يزال له- مَن يُذَكِّرُ به**»، أي: عندَ اللهِ وحَولَ عرْشِه.

وهذا مِن الحَثِّ على الاستكثارِ مِن هذا الذِّكرِ؛ فالتَّسبيحُ: تنزيهٌ للهِ عن كلِّ ما لا يليقُ به، والتَّحميدُ: إثباتٌ لأنواعِ الكمالِ للهِ في أسـمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، والتَّهليلُ: إخلاصٌ وتوحيدٌ للهِ وبَراءةٌ مِن الشِّركِ، والتَّكبيرُ: إثباتٌ لعَظَمَةِ اللهِ، وأنَّه لا شيءَ أكبَرُ منه؛ فاشتمَلَتْ هذه الجملُ على جُملةِ أنواعِ الذِّكْـرِ مِـن التَّنزيهِ والتَّحميـدِ والتَّوحيـدِ والتَّمجيدِ، ودِلالتُهـا على جميعِ المَطالِـبِ الإلهيَّـةِ إجمالًا، ولهـذه الكلماتِ فَضائلُ عَظيمـةٌ أُخرى، ومِن ذلـك: أنَّهنَّ مُكفِّراتٌ للذُّنـوبِ، وأنَّهنَّ غَرْسُ الجنَّةِ تُغْـرَسُ لقائلِها. وفي الحديـثِ: الحَثُّ علـى ذِكْرِ اللهِ بهـذه الكلماتِ، وفيه: بيانُ فضْـلِ الذِّكْرِ. نسأل الله السلامة والنجاة من نار جهنم.

جعلنا الله من عباده الذاكرين له كل حينٍ، وفي كل حال.

الورود

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

كلما قرأت هذه الآية الكريمة توقَّفت واستحضرت المشهد، وهول نار جهنَّم ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. «بكى عبدالله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبكت امرأته، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال ابن رواحة: إنِّي قد علمت أنِّي واردٌ النار، فما أدري أناجٍ منها أنا أم لا»[1].

وروى الطبري في تفسيره «أن أبا ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمِّي لم تَلدْنِي. ثم يبكي، فقيل: وما يبكيك يا أبا ميسرة؟ قال: أُخبرنا أنَّا واردوها، ولم نُخبَر أن صادرون عنها»[2].

وعن عبدالله ابن المبارك أن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك بأنَّك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر منها؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رؤي ضاحكًا حتى لحق بالله[3].

هؤلاء الأوائل قريبو عهدٍ بالنبوة يبكون، فأين نحن منهم؟ لقد ذُقت نار الدنيا عندما أصاب قدمي مرضٌ واضطررت لاستعمال الكيِّ، فأغمي

(١) تفسير الطبري: (١٥/ ٥٩٤).
(٢) تفسير الطبري: (١٥:/ ٥٩٤).
(٣) تفسير الطبري: (١٥/ ٦٠٠)، وابن كثير: (٣/ ١٣٩).

عليَّ من شدَّته، وما زلت أذكر لسعته وحرارته وقد مضى على الحادثة خمسون سنةً ونيِّفًا، فكيف بنار الآخرة، وبكامل جِسمي يردُّها! حنانيك ربَّاه، لُطفك مولاي كيف النجاة؟ إلهي نَفِرُّ ونصرخُ من نار الدنيا فكيف بنار الآخرة ولا مَهرب إلَّا إليك، أسألك الرحمة، أسألك المغفرة، اللهم ارفق بعبدك الذليل، أتوسَّل إليك وأرجوك.

لقد ظللت أتوقف كلما قرأت هذه الآية، ويقشعرُّ جِلدي، وأستحضرُ هولَ الموقف، وصُراخ الناس وفزَعهم، وقد بلغت قُلوبهم الحناجر، وهم يُساقون ويُدفعون إلى جهنَّم، وأسمع بعض القُرَّاء يقرؤون القسم الإلهي، فيُجْهِشُون بالبكاء كما بكى ابن رواحة وغيره، فأبكي لبكائهم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧١].

وأتذكّر قصة الأعرابي مع الأصمعي، وكيف سقط مغشيًّا عليه، عندما تلا عليه الأصمعي قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، فصاح الأعرابي: من الذي ألجأه للقسم؟ من الذي ألجأه للقسم؟ وسقط مغشيًّا عليه[١]. إنّه أعرابي فصيح يفهم اللغة العربية، ويعرف دلالة القسم وعِظَم المقسِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فكيف بقسمه أننا سنرد نار جهنم، كيف نستطيب الحياة ونستلذ نعيمها! رباهُ أسأَلُك النجاة، رباهُ أسألك السلامة.

وأخذتُ أبحث وأسأل العلماء، وأُفتِّش في كتُبهم، علَّني أجدُ عندهم

---

(١) انظر: صفة الصفوة: (٢/ ٥١٠).

ما يُطمئـن، وعسـاي ألقـى تنويرًا، وهل الـورود بمعنى الوصـول، وليس الدخـول؟ وإذا بابن عباس حَبر الأمة وترجمانهـا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُخاصم نافع بن الأزرق. يقـول ابـن عباس: الورود الدخـول، ويقول نافـع لا. فيقول ابن عبـاس أمجنـون أنـت. أين أنت مـن قولـه تعالـى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هـود: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريـم: ٨٦]، وقولـه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ويقـول ابن عباس: والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالمًا، وأدخلني الجنة غانمًا[١].

وعن أبي سـمية قـال: «اختلفنا في الـورود، فقال بعضنـا: لا يدخلها مؤمـن، وقـال بعضهـم: يدخلونهـا جميعًـا، ثـم يُنجِّي الله الذيـن اتَّقوا، فلقيـت جابر بن عبـدالله، فقلت له: إنا اختلفنا في الـورود، فقال: يردونها جميعًا»[٢]. وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه سُـئل عن هذه الآيات؟ فقال: سـمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقـول: «**الـورود الدخـول؛ لا يبقى بَرٌّ ولا فاجـر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنَّار ضجيجًا من بَرْدها**»[٣].

وقـال الطبـري: «ورودها هـو ما تظاهرت بـه الأخبار عن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مـن ورودهم بها على الصراط المنصوب على متن جهنَّم فناجٍ مُسَلَّمْ ومُكُدَّسٌ فيها»[٤].

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٣٩).
(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٣٩).
(٣) الكشـاف، الزمخشري: (٤/ ٤٤). وقـال الزيلعي فـي تخريـج الأحاديـث والآثـار الواقعـة فـي تفسـير الكشـاف (٢/ ٣٣٣): وكذلـك رواه الترمـذي الحكيـم فـي نـوادر الأصـول، والبيهقـي في شـعب الإيمـان وقال: إسـناده حسـن.
(٤) تفسير الطبري: (١٥/ ٦٠١).

وقال الشوكاني: «ولا يخفى أن القول بأن الورود هو: المرور على الصراط، أو الورود على جهنَّم وهي خامدة فيه. جمع الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل الآية على ذلك»[(١)].

وقال الشيخ الشعراوي: «إذا كان الورود بمعنى رُؤية النار دون دخولها تكون الحكمة منه أن الله تعالى يمتنُّ على عباده المؤمنين فيُريهم النار وسعيرَها؛ ليعلموا فضل الله عليهم، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجاة من هذه النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وإذا كان الورود بمعنى الدخول فيمكن فهم الآية أن الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الأشياء، وخلق لكل شيء طبيعة تحكمه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده القادر، على تعطيل هذه الطبيعة وسلبها خصائصها، كما رأينا في قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيكون دخول المؤمنين النار كما حدث مع إبراهيم، وجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وقد مكّنهم الله منه فألقوه في النار، وهي على طبيعتها بقانون الإحراق فيها، ولم ينزل مثلًا على النار مطرٌ يُطفئها؛ ليوفِّر لهم كل أسباب الإحراق، مع ذلك ينجيه منها؛ لتكون المعجزة ماثلة أمام أعينهم.

وكما سلب اللهُ طبيعةَ الماء في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فتجمَّد وتوقَّفت سيولته؛ حتى صار كل فِرقٍ كالطَّود العظيم، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القادر على تغيير طبائع الأشياء. إذًا لا مانع من المؤمنين دخول النار على طريقة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾» [الأنبياء: ٦٩][(٢)].

---

(١) فتح القدير، الشوكاني: (٣/ ٣٤٧).
(٢) تفسير الشعراوي: (١٥/ ٩١٥٧).

وسوف تُسألون

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤].

حينما دعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومه للهدى ودين الحق، وبدأ في الدعوة وإنذار قومه، كذبه وهَزِئَ به أقرب الناس إليه، جاء في صحيح الْبُخَارِيُّ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى صعِدَ الصفا فهتف: **يا صَباحاهْ**، فقالوا: مَن هذا؟ فاجْتَمَعُوا إلَيْهِ، فقالَ: **أرَأَيْتَكُمْ لو أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بسَفْحِ هذا الجَبَلِ، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟** قالوا: ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِبًا، قالَ: **فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ،** قالَ: فقالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لكَ أما جَمَعْتَنا إلَّا لِهذا، ثُمَّ قامَ فَنَزَلَتْ هذِه السُّورَةُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

وتمادى أبو جهل ومعه عدد من أكابر قريش في أذية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصبر وتحمل، وتتابع القرآن الكريم في النزول وتثبيته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٥٥٩ رقم ٤٧٧٠)، ومسلم (١/ ١٩٣ رقم ٢٠٨).

يقول ابن كثير في تفسيره يَقُولُ تَعَالَى: وَكُلُّ أَخْبَارٍ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ، مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ قَبْلَكَ مَعَ أُمَمِهِمْ، وَكَيْفَ جَرَى لَهُمْ مِنَ الْمُحَاجَّاتِ وَالْخُصُومَاتِ، وَمَا احْتَمَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى، وَكَيْفَ نَصَرَ الله حِزْبَهُ الْمؤْمِنِينَ، وَخَذَلَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ -كُلُّ هَذَا مِمَّا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ -يَا مُحَمَّدُ- أَيْ: قَلْبَكَ، لِيَكُونَ لَكَ بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ.

وفي آية هذه الجلسة يَردُ النص الكريم لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمرًا له بالتمسك بما أوحى الله إليه، فلا يسمع قول المستهزئين، ولا تشكيك الساخرين، يرد تثبيتًا له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه على الصراط المستقيم، الذي لاعوج فيه ولا انحراف! وبيان أن ما أوحى الله إليه ذِكْرٌ وخَيرٌ لَهُ ولقومه، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوف يسألنا عن هذا الكتاب: هل عملنا بما ورد فيه من أحكام، وهل قمنا بالواجب نحو تبليغه؟

لقد كانت النبوة في بني إسرائيل، فمنهم تتابع الأنبياء والرسل، إلى أن اختار الله لرسالته محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو العربي القرشي الهاشمي!

يقول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ الله تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ الله حَوَّلَ النُّبُوَّةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ الْمكِّيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَرَسُولِ الله

إِلَـى جَمِيـعِ الثَّقَلَيْنِ الْإِنْـسِ وَالْجِنِّ، الَّـذِي جَمَعَ الله فِيهِ مَحَاسِـنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَخَصَّهُ بِخَصَائِصَ لَمْ يُعْطِهَا نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا رَسُـولًا مِنَ الرُّسُـلِ، فِـي الْعِلْمِ بالله وَشَـرِيعَتِهِ واطلاعه عَلَى الْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَكَشْـفِهِ عَـنْ حَقَائِقِ الْآخِرَةِ وَنَشْـرِ أُمَّتِهِ فِي الْآفَاقِ، فِي مَشَـارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَشَرْعِهِ عَلَى سَـائِرِ الْأَدْيَانِ، وَالشَّرَائِعِ، فَصَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

وَلِهَـذَا قَـالَ تَعالَـى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أَيْ: أَنْـتَ الْمتَصَـرِّفُ فِي خَلْقِـكَ، الْفَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ، كَمَـا رَدَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى مَنْ يَتَحَكَّمُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ، حَيْثُ قَالَوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف: ٣١]، فقَالَ سبحانه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢]، أَيْ: نَحْنُ نَتَصَرَّفُ فِي خَلْقِنَـا كَمَا نُرِيـدُ، بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِـعٍ، وَلَنَا الْحِكْمَـةُ وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا نُعْطِي النُّبُوَّةَ لِمَنْ نُرِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢١].

هذا وحين كانت النبوة في بني إسرائيل كان الأنبياء يتتابعون، فيؤدون رسالة التوحيد وإبلاغ دين الله الحق للبشرية، فيهتدي منْ يهتدي، ويضلُّ منْ يضل، وبعد تحويل النبوة إلى العرب صار النبي واحدًا فقط لا نبي بعده، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين، لكن بلَّغ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم أن على أتباعِه أن يقوموا بمسؤولية التبليغ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ

﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وسوف نُسأل، فهل استحضر كل مُوحد منا، مُؤمن بالله الإجابة! حين نُزفُّ محمولين إلى القبور هل أعددنا الجواب؟ سَنَقْدُمُ فُرادى، ونُسأَلُ فُرادى! ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين شَرَّفَ العربَ بتحويل النبوة إليهم، كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم أن رسوله العربي محمد بن عبدالله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل لتلك الرسالة، ويعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن قومه ونحن منهم، أهل لتحمل الأمانة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

لقد ارتفع شأن العرب أن كان منهم خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معجزته الخالدة بلغتهم، ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

لقد كان لدى العرب في جاهليتهم قيم محمودة، وصفات ميَّزتهم من سواهم من الأمم، يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق**»(١)، كان الوفاء سِمة يعتزون بها، وكان الكرم والجود والبذل صفات يفخرون بها، وكان الصدق واحترام الجار مما يباهون به، يقول الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد العبسي:

وأغض طرفي ما بَدَتْ لِي جارتي
حتى يُواري جارتي مأواها

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٥١٢-٥١٣ رقم ٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٣٤٩).

وحين جاء النسوة يبايعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وكان من بين النساء المبايعات هند بنت عتبة، وقد قالت وهي تبايع: وهل تزني الحرة يا رسول الله!

قالتها مستنكرة، قالتها مستغربة أن يقع منهن الزنا!

وفي مكة كانت ثمة قيم تداعت لها قريش، فحلف الفضول تداعت له قريش، اجتمعوا في دار عبدالله بن جدعان فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكَّة مَظْلومًا من أهلها وغيرهم -ممَّن دخلها من سائر النَّاس- إلا قاموا معه، وكانوا على مَن ظَلَمه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلمته، فسمَّت قريشٌ ذلك الحِلْف: حِلْف الفُضُول.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِاللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت**»(١).

قيم لدى العرب في الجاهلية أقرها الإسلام وأعلى شأنها، وجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ختم النبوة في العرب، وأنزل معجزته الخالدة ونوره الهادي بلغتهم.

إن العرب وهم أهل لتلك القيم كان فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخْرُ البَشَرِيةِ كُلِّها، فحين نزل الوحي لم يكن حول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٣٦٧ رقم ١٣٤٦١)، والفاكهي في أخبار مكة (٥/ ١٧٠) وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٣٢٥)، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام: (١٤٠).

إلا العرب ومن خالطهم من غير العرب من الموالي، ولئن نالوا ذاك الشرف الرباني فإن لتلك مسؤولية جسيمةً، لقد حَمَّلهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجميع من اهتدى واتبع تبليغ رسالته ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن أتباع المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن منهم عليهم مسؤولية تبليغ الدعوة ونشرها والذب عنها!

لقد أدى الصحابة والتابعون المسؤولية، فنشروا دين الله في أرضه، وبلغوا دعوة التوحيد، فهل يا ترى نحن أحفادهم قمنا بالواجب!

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم الجهود، ويعلم السر وما هو أخفى من السر، ويعلم ما في نفوسنا، فهل عملنا لتبليغ الدعوة كما عمل أسلافنا ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره لآية هذه الجلسة:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ بمعنى تمسَّك، لكن زيدت حروفها للمبالغة، أي: تَمَسَّكْ تَمَسُّكًا قويًّا بالذي أوحي إليك...

وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾، سوف تسألون (عن القيام بحَقِّه)، ومِنْ حقِّه العمل به، ومن حقه إبلاغه للناس؛ ولهذا يُعدُّ العرب هم الإشعاع لعامة الناس في نقل الشريعة الإسلامية. مَنْ في الجزيرة حين نزل الوحي؟ ليس فيها إلا عرب، هؤلاء العرب بَثُّوا الإسلام في جميع أقطار الدنيا.

وأورد الشيخ ابن عثيمين عددًا من فوائد آية هذا المجلس، فقال:

* **في هذه الآية الكريمة فوائد:** وهي حَثُّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التَّمَسُّكِ بما أوحي إليه، وإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَثُّ على ذلك فنحن من باب أولى.

* **ومن فوائد هذه الآية:** أن الشريعة التي جاء بها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

* **ومن فوائد الآية:** أن هذا القرآن الكريم فيه ذكر للعرب، أي: شرف لهم، وفيه تذكير لهم؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

* **ومن فوائد الآية:** تحميل المسؤولية العظيمة على العرب؛ وهي أنهم سوف يُسْأَلون عن هذا الوحي هل قاموا بحقِّه، أم لم يقوموا بحقه.

قال أبو حيان (٧٤٥هـ) في تفسيره البحر المُحيط: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾: أيْ شَرَفٌ، حَيْثُ نَزَلَ عَلَيْهِمْ وبِلِسانِهِمْ، جُعِلَ تَبَعًا لَهم. والقَوْمُ عَلى هَذا قُرَيْشٌ ثُمَّ العَرَبُ، قالَهُ ابْنُ عَبّاسٍ ومُجاهِدٌ وقَتادَةُ والسُّدِّيُّ وابْنُ زَيْدٍ.

وقالَ الحَسَنُ: القَوْمُ هُنا أُمَّتُهُ، والمَعْنى: وإنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ ومَوْعِظَةٌ. قِيلَ: وهَذِهِ الآيَةُ تَدُلُّ عَلى أنَّ الإنْسانَ يَرْغَبُ في الثَّناءِ الحَسَنِ الجَمِيلِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَرْغُوبًا فِيهِ، ما امْتَنَّ بِهِ تَعالى عَلى رَسُولِهِ، فَقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾. وقالَ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. والذِّكْرُ الجَمِيلُ قائِمٌ مَقامَ الحَياةِ، بَلْ هو أفْضَلُ مِنَ الحَياةِ؛ لِأنَّ أثَرَ الحَياةِ لا يَحْصُلُ إلا في الحَيِّ، وأثَرُ الذِّكْرِ الجَمِيلِ يَحْصُلُ في كُلِّ مَكانٍ، وفي كُلِّ زَمانٍ[1].

(١) البحر المحيط: (٨/ ١٩).

وروى أبو حيـان: أنـه ذُكِـرَ أنَّ هَلاوُونَ مَلِـكَ التَّتَرِ، سَـأَلَ أَصْحابَهُ: مَنِ المَلِـكُ؟ فقالُوا: أَنْتَ الَّذِي دَوَّخْتَ البِلادَ، ومَلَكْتَ الأَرْضَ، وطاعَتْ لَكَ المُلُـوكُ. فَقالَ: لا، المَلِكُ هَذا، وكانَ المُـؤَذِّنُ إِذْ ذاكَ يُؤَذِّنُ، هَذا الَّذِي لَهُ أَزْيَدُ مِن سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ، قَدْ ماتَ وهو يُذْكَرُ عَلى المَآذِنِ في كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرّاتٍ؟ يُرِيدُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ ﷺ.

لقد استوعب الأوائل مسـؤوليتهم نحو دينهم فبلَّغـوه؛ امتطوا ظهور الإبـل وصهـوات الجياد، وانطلقوا سيرًا على الأقدام يبلغـون دعوة الله، استحضروا السؤال، فانْدَاحُوا في أرض الله هُداة، واستشعروا هَمَّ الرسالة فكانوا خير دُعاةٍ لدين الله، سنواتٌ وجيزةٌ وغيَّروا وجه التاريخ.

خَلَّـدَ جيل الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تاريخًا ينطق بتبليغهم الرسـالة، وتركـوا قصصًا وَضَّاءة تحكي صدقهم مـع الله وفهمهم لكتاب الله، كانوا قُـدوات في سِـيَرهم، قُدوات في ذواتهـم، قُدوات فـي معاملاتهم. كتب عمر بن الخطاب يسـأل عن مسـتحقِّي الصدقات في حمـص، فجاء بيانٌ بأسماء المستحقِّين، وفُوجئ عمر باسم أمير حمص من بين المستحقِّين، وحين جاءت غنائم جيوش المسلمين وفيها تاج وجواهر تعجَّب عمر من أمانتهم، وقـال: «إنَّ قومًا أَدَّوا هذا لأُمناء...»، فقال له علي بن أبي طالب وكان حينئـذٍ حاضرًا: «إنك عَفَفْـتَ؛ فَعَفَّت رَعيتُك يا أميـر المؤمنين...، ولو رَتَعْتَ لَرَتَعوا»[1].

واليوم تعددت وسـائل التواصل، وصارت المكتبات في الجوالات، وأصبـح العلـم متوافرًا، فهل يا ترى أَدَّينا رسـالة الإسـلام، وقُمنا بواجب

(١) صور من حياة الصحابة: (١/ ٤٤٩). لو رتعت لرتعوا: لو أكلت لأكلوا.

تبليغه ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾. حنانيك ربَّاه، ماذا أعددنا للجواب حين نُسأل عـن تبليغ الدعوة، وقد أمرنا الله في كتابـه العزيز بتبليغها: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ونحـن أتباعـه ﷺ كيف نحن وتبليغ الدعوة! لقد حكى الدكتور عبدالرحمن السـميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ عـن حال الدعـوة في إفريقيـا، وروى قصصًـا تؤكد اسـتجابتهم للدعوة، وقامـت الحجَّة علينا، فهل اقتفينا أثره وسـلكنا منهجـه! إن كتاب الله بين أيدينا نقرؤه صباحًا ومساءً، فهل نقف عند أوامره، ونسارع للعمل بها نحن أهـل العربية. لقد نزل القرآن بلغتنا وفـي ديارنا ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ فهل نعقل ونستوعب أحكامه، ونفهم زواجره، ونعلم عظمته، ونقوم بواجبه حين اختارنا لحمل رسـالته، وهل نتدبره ونحاسب أنفسنا قبل المحاسبة ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾. رُحماك ربَّاه، حنانيك ربَّاه، نسألك العون ونور البصيرة.

وكَهْلًا

ورد في سورة آل عمران بشارة الملائكة لمريم: ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة أُخرى امتنانه على نبيه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠].

جاء في هذه الآيات أن مما امتن الله به على نبيه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تكليم الناس في مضجع الطفولة المُبكِّرة (المهد)، وفي مرحلة الكهولة المُتأخرة (وكهلا)، وأن يتكلم الطفل في أيامه الأول، واضح أنها معجزة حسية، بهرت قوم مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، أنزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سورة باسم (مريم)، ورد فيها تفصيل حديث المهد، فحين رآها قومها آتية بمولدها عيسى تحملهُ قالوا على الفور: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧-٢٨]، ولم تُجبهم، وإنما أشارت إليه ليجيبهم، وتعجبوا من إشارتها إليه بالكلام ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩]، وحسبوا أنها تسخر منهم، فقالوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، ولكنه نطق فورًا فبهرهم نُطقُه، والله قادر علي كل شيء: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

ومعلـوم لجميع البشـر: أن الطفل لا ينطق في المهـد، لكن حين ورد الخبر في القرآن الكريم في سـورة مريم صدق المسـلمون بذلك وآمنوا، لكن الذي أشـكل هو امتنان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نبيه عيسـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالكلام في مرحلة الكهولة (وكهلا)، ومعلوم أن كل كهل ينطق ويتكلم، فماذا في هذا الوصف من دلالة؟

مما قاله الرازي في تفسيره: تَكَلُّمَهُ حالَ كَوْنِهِ في المَهْدِ مِنَ المُعْجِزاتِ، فَأمّـا تَكَلُّمُـهُ حالَ الكُهُولَـةِ فَلَيْسَ مِـنَ المُعْجِزاتِ، فَما الفائِـدَةُ في ذِكْرِهِ؟ والجَوابُ: مِن وُجُوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المُـرادَ مِنـهُ بَيـانُ كَوْنِـهِ مُتَقَلِّبًـا فـي الأحْوالِ مِـنَ الصِّبا إلى الكُهُولَةِ، والتَّغَيُّرُ عَلى الإلَهِ تَعالى مُحالٌ، والمُرادُ مِنهُ الرَّدُّ عَلى وفْدِ نَجْرانَ في قَوْلِهِمْ: إنَّ عِيسى كانَ إلَهًا.

والثّانِي: المُرادُ مِنهُ أنْ يُكَلِّمَ النّاسَ مَرَّةً واحِدَةً في المَهْدِ لِإظْهارِ طَهارَةِ أُمِّهِ، ثُمَّ عِنْدَ الكُهُولَةِ يَتَكَلَّمُ بِالوَحْيِ والنُّبُوَّةِ.

والثّالِثُ: قالَ أبُو مُسْلِمٍ: مَعْناهُ أنَّهُ يُكَلِّمُ حالَ كَوْنِهِ في المَهْدِ، وحالَ كَوْنِهِ كَهْلًا عَلى حَدٍّ واحِدٍ وصِفَةٍ واحِدَةٍ؛ وذَلِكَ لا شَكَّ أنَّهُ غايَةٌ في المُعْجِزِ.

الرّابِعُ: قالَ الأصَمُّ: المُرادُ مِنهُ أنَّهُ يَبْلُغُ حالَ الكُهُولَةِ.

وأورد الزمخشـري في تفسـيره تفسـيرًا موجزًا قال: يكلـم الناس في هاتيـن الحالتيـن كلام الأنبيـاء، من غير تفـاوت بين حـال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويُستَنبأ فيها الأنبياء.

وجـاء في البحـر المحيـط لأبي حيـان التوحيـدي: والعَـرَبُ تَتَمَدَّحُ بِالكُهُولَةِ، قالَ:

وما ضَرَّ مَن كانَتْ بَقاياهُ مِثْلَنا
شَبابٌ تَسامى لِلْعُلى وكُهُولُ

ولِذَلِكَ خُصَّ هَذا السِّنُّ في الآيَةِ دُونَ سائِرِ العُمْرِ؛ لِأنَّها الحالَةُ الوُسْطى في اسْتِحْكامِ العَقْلِ وجَوْدَةِ الرَّأْيِ، وفي قَوْلِهِ: وكَهْلًا، تَبْشِيرٌ بِأنَّهُ يَعِيشُ إلى سِنِّ الكُهُولَةِ، قالَهُ الرَّبِيعُ، وفي قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ إشارَةٌ إلى تَقَلُّبِ الأحْوالِ عَلَيْهِ، ورَدٌّ على النَّصارى في دَعْواهم إلَهِيَّتِهِ.

وقالَ ابْنُ كَيْسانَ: ذَكَرَ ذَلِكَ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَهُ إعْلامًا بِهِ أنَّهُ يَكْتَهِلُ، فَإذا أُخْبِرَتْ بِهِ مَرْيَمُ عُلِمَ أنَّهُ مِن عِلْمِ الغَيْبِ.

وقال الشيخ ابن عاشور في تفسيره: وخُصَّ تَكْلِيمُهُ بِحالَيْنِ: حالِ كَوْنِهِ في المَهْدِ، وحالِ كَوْنِهِ كَهْلًا، مَعَ أنَّهُ يَتَكَلَّمُ فِيما بَيْنَ ذَلِكَ؛ لِأنَّ لِذَيْنِكَ الحالَيْنِ مَزِيدَ اخْتِصاصٍ بِتَشْرِيفِ الله إيّاهُ، فَأمّا تَكْلِيمُهُ النّاسَ في المَهْدِ فَلِأنَّهُ خارِقُ عادَةٍ إرْهاصًا لِنُبُوءَتِهِ، وأمّا تَكْلِيمُهم كَهْلًا فَمُرادٌ بِهِ دَعْوَتُهُ النّاسَ إلى الشَّرِيعَةِ.

وورد في روح المعاني للآلوسي: الكَهْلُ ما بَيْنَ الشّابِّ والشَّيْخِ، ومِنهُ اِكْتَهَلَ النَّبْتُ إذا طالَ وقَوِيَ.

وعَلى ما ذُكِرَ في سِنِّ الكُهُولَةِ يُرادُ بِتَكْلِيمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَهْلًا تَكْلِيمُهُ لَهم كَذَلِكَ بَعْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّماءِ وبُلُوغِهِ ذَلِكَ السِّنَّ بِناءً عَلى ما ذَهَبَ إلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ وزَيْدُ بْنُ أسْلَمَ وغَيْرُهُما: «أنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رُفِعَ إلى السَّماءِ وهو اِبْنُ ثَلاثٍ وثَلاثِينَ سَنَةً، وأنَّهُ سَيَنْزِلُ إلى الأرْضِ ويَبْقى حَيًّا فِيها أرْبَعًا وعِشْرِينَ سَنَةً» كَما رَواهُ اِبْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ كَعْبِ الأحْبارِ، ويُؤَيِّدُ هَذا ما أخْرَجَهُ اِبْنُ جَرِيرٍ عَنِ اِبْنِ زَيْدٍ في الآيَةِ، قالَ: قَدْ كَلَّمَهم عِيسى في المَهْدِ، وسَيُكَلِّمُهم إذا قُتِلَ الدَّجّالُ وهو يَوْمَئِذٍ كَهْلٌ.

جاء في قاموس لسان العرب ما نصه الكهل: هو الرجل إذا خطه الشيب، وفي الصحاح للجوهري: الكهل من الرجال الذي جاوز الثلاثين وخطه الشيب، وفي فضل أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هذان سيِّدا كهول الجنة، وفي رواية كُهول الأولين والآخرين. قال ابن الأثير: الكهل من الرجال من زاد على الثلاثين سنة إلى الأربعين، وقيل هو من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين.

وجاء في الحديث الشريف، أن الأطفال الذين تكلموا وهم في المهد ثلاثة. عن أبي هريرة قال: لَمْ يَتَكَلَّمْ في المَهْدِ إلّا ثَلاثَةٌ: عِيسى، وَكانَ في بَنِي إِسْرائِيلَ رَجُلٌ يُقالُ له جُرَيْجٌ، كانَ يُصَلِّي، جاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقالَ: أُجِيبُها أَوْ أُصَلِّي، فَقالَت: اللهُمَّ لا تُمِتْهُ حتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ المُومِساتِ، وَكانَ جُرَيْجٌ في صَوْمعتِهِ، فَتعَرَّضَتْ له امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فأبى، فأتَتْ راعِيًا فأمْكَنَتْهُ مِن نَفْسِها، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقالَتْ: مِن جُرَيْجٍ، فأتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمعتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلّى ثُمَّ أَتى الغُلامَ، فَقالَ: مَن أَبُوكَ يا غُلامُ؟ قالَ: الرَّاعِي، قالوا: نَبْنِي صَوْمعتَكَ مِن ذَهَبٍ؟ قالَ: لا، إلّا مِن طِينٍ[1].

وذكر أبو هريرة في هذا الحديث الطفل الثالث فقال: وَكانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَها مِن بَنِي إسْرائِيلَ، فَمَرَّ بها رَجُلٌ راكِبٌ ذُو شارَةٍ، فَقالَتْ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَها، وَأَقْبَلَ على الرَّاكِبِ، فَقالَ: اللهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ على ثَدْيِها يَمَصُّهُ، -قالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمَصُّ إصْبَعَهُ- ثُمَّ مُرَّ بأَمَةٍ، فَقالَت: اللهُمَّ لا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هذِه، فَتَرَكَ ثَدْيَها، فَقالَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَها، فَقالَتْ: لِمَ ذاكَ؟ فَقالَ: الرّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الجَبابِرَةِ، وَهذِه الأمَةُ يقولونَ: سَرَقْتِ، زَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٤ رقم ٢٤٨٢)، ومسلم (٤/ ١٩٧٦ رقم ٢٥٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥٤٤ رقم ٣٤٣٦)، ومسلم (٤/ ١٩٧٦ رقم ٢٥٥٠)، (٨).

اليقين

جـاءت كلمة اليقين في القرآن الكريـم في مواضع عدة، منها في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٧]. في هاتين الآيتين جاءت كلمة اليقين بمعنى الموت، يُروى أن عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «ما رأيت يقينًا أشـبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت، ثم لا يسـتعدون له؛ يعني كأنَّهم فيه شـاكُّون». وفي آيات أخرى جاء اليقين مُضافًا إلى كلمةٍ سبقته، ومقترنًا بها، كما في قوله تعالى:

﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

واختلـف المعنى في تلك الآيات الثلاث؛ فـكلُّ آيةٍ لها دلالةٌ مختلفة عـن الأخـرى، لكن المعاني متقاربة؛ **فعلم اليقين**: هـو الخبر اليقين الذي تسـمعه فتجزم بصدقـه وحقيقته، كأن يصف لك شـخصٌ تثق بقوله صفة حبَّـة الموز وشـكلها، فتتخيَّلها في ذهنـك كما هي في الواقـع والحقيقة، تتخيَّلها فاكهةً صفراء طويلة فيها انحناء.

أمَّــا **عين اليقين**: فأن ترى بعينك وبصـرك تلك الموزة الموصوفة لك بتلك الصفات، فشاهدت حقيقة وواقعًا تلك الفاكهة.

وأمـا **حقُّ اليقين**: فأن تأكل تلك المـوزة وتطعَمَها وتتذوقَها، فيتحقَّق لك اليقين حقًّا ثابتًا لا شكَّ فيه.

وجـاءت (حـقُّ اليقيـن) مـرَّة أخرى في سـورة الحاقـة، وفيهـا يؤكِّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أن من اليقين الحقِّ ما هو بين أيدينا، وما أكرمنا الله به، وأنَّه حقٌّ ثابـت. إنَّه القـرآن الكريم؛ فليس هو بعلم اليقين الـذي نصدِّق خبره، ولا هو بعين اليقين الذي نراه فنثق به، لكنّه الحقُّ اليقين الذي لا مراء فيه، وهو الحقُّ اليقين الذي لا شكَّ فيه، وهو الحقُّ اليقين الخالد، وهو الحقُّ اليقين الـذي لا نَملُّه، وهو الحقُّ اليقين الذي تحـدَّى الله به الإنس والجنَّ، وهو الحقُّ اليقين الذي عجز الجنُّ والإنس على أن يأتوا بمثله، فكما أنَّ الموت حـقٌّ يقيـن يُوقـنُ بـه كلُّ مخلـوق ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، فكذلك القـرآن حقٌّ يقين يجب التصديق به كما الموت، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٤٨-٥١]. لقد قرَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن القـرآن الكريم حقٌّ يقينٌ ثابت نزوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]. نـزل به أفضل الملائكة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، علـى قلب سـيد البشـرية صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]. وتخصيص القلب بالذكر تأكيدٌ لشرف المُنزَل وشرف المُنـزَل عليه، فالقلب هو سـيِّد أعضاء الجسـم؛ فالحيـاة منوطةٌ بحركته، ونبضه، ونزل بهذا الشـرف، لمهمَّة شـريفة، يقوم بها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِتَكُونَ مِنَ

﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] وقد قام ﷺ بالمهمَّة خير قيام؛ حتى خاطبه ربُّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. أي قاتل نفسك همًّا وغمًّا بسبب تكذيب الكافرين وعدم إيمانهم، وفي آيةٍ أخرى يقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]. إنَّه ﷺ يعلم شرف هذا القرآن الكريم، وأنَّه حقٌّ يقين ثابت، فيتحسَّر على المعرضين، ويفرح ويسعد بالمهتدين، لقد سمع عددٌ من الصحابة القرآن، فأيقنوا بحقيقته فأسلموا، ويسمع أقوامٌ آخرون القرآن في كلِّ مكان وكلِّ زمان فيُسلمون، إنَّه حقُّ اليقين الخالد. ذاك مصعب بن عمير سمع بدعوة الرسول ﷺ فتوجَّه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم في الصّفا؛ حيث يلتقي الرسول ﷺ بأصحابه فيسمع القرآن، ويعلم أنَّه حقُّ اليقين، فيُسلم وتتغير حالته. يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلًا وعليه إهاب كبشٍ قد تنطَّق به، فقال رسول الله ﷺ: **انظروا إلى هذا الذي قد نوَّر الله قلبَه، لقد رأيتُه بين أبويه يغذِّيانِه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلةً شراها، أو شُريت له بمئتي درهم، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترونه**»[(١)].

وسُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن (حقِّ اليقين) و(عين اليقين) ما معنى كلٍّ منهما، وأي مقامٍ أعلى؟ فأجاب: «للناس في هذه الأسماء مقالاتٌ معروفة، منها: أن يُقال: (علم اليقين) ما عَلمه بالسماع والخبر والقياس والنظر، و(عين اليقين) ما شاهده وعاينه بالبصر، و(حقُّ اليقين) ما باشره

(١) أخرجه أبونعيم في حلية الأولياء (١/ ١٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨/ ٢٥٥ رقم ٥٧٧٩)، وحسن إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢/ ١١٤٦ رقم ٤١٤٥).

ووجـده وذاقه وعرفـه بالاعتبار. (فالأول) مثل من أخبر أن هناك عسـلًا، وصدَّق المخبر، أو رأى آثار العسـل فاستدلَّ على وجوده. و(الثاني) مثل من رأى العسـل وشـاهده وعاينـه، وهذا أعلى كما قـال النبي ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1]. و(الثالث) مثل من ذاق العسـل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلومٌ أن هذا أعلى مما قبله»[2].

وذلكـم عمر بن عبدالعزيز يتجسَّـد يقينه وثقته فـي الله مع بنيه، يقول الـراوي: «لمـا حضرت عمر بـن عبدالعزيز الوفاة، دخل عليه مَسـلمة بن عبدالملك فقال: يا أمير المؤمنين إنَّك قد فغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليَّ وإلى نُظرائي من قومك فكفوك مَؤونتهم، فلما سمع مقالته قال: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: قد سمعتُ مقالتك يا مَسلمة. أمَّا قولك: إني قد أفرغتُ أفواه وَلَدي من هذا المال، فوالله ما ظلمتهم حقًّا هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئًا لغيرهم، وأمَّا ما قلتَ في الوصية فإن وصيي فيهم ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وإنما ولدُ عمـر بين أحـد رجلين: إما رجلٌ صالح فسـيغنيه الله، وإمـا غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله. ادعُ لي بنيَّ: فأتوهُ، فلما رآهم ترقرت عيناه، وقال: بنفسـي فتيةٌ تركتُهم عالةً لا شـيء لهم وبكى. يا بَنيَّ إني قد تركتُ لكم خيرًا كثيرًا، لا تمرُّون بأحدٍ من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقًّا، يا بَنيَّ إني قد مثلت بين الأمرين، إما أن تستغنوا وأدخل

(١) أخرجـه أحمـد (٣/ ٣٤١ رقـم ١٨٤١)، وصححه الألباني فـي تحقيقه لكتاب الإيمـان لابن تيمية (ص٩٥).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية:(١٠/ ٦٤٥-٦٤٦).

النـار، أو تفتقروا إلى آخـر يوم الأبد وأدخل الجنة، فـأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحبَّ إليَّ، قُوموا عصمكم الله، قُوموا رزقكم الله»(١).

إنه اليقين بالله، والثقة فيه، فالأرزاق بيد الله ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. يقول الشيخ ابن سـعدي: «أي: جميع ما دبَّ على وجه الأرض، من آدميٍّ، أو حيوانٍ برِّيٍّ أو بحري، فالله تعالى قد تكفَّل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقُها على الله. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم مستقرَّ هذه الدوابِّ، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقرُّ فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئهـا، وعوارض أحوالها. ﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فـي اللوح المحفوظ المحتـوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمُه، ونفذت فيها مشيئتُه، ووسعها رزقُه، فلتطمئنَّ القلوب إلى كفاية من تكفَّل بأرزاقها، وأحاط علمًا بذواتها، وصفاتها»(٢).

رزقنـا الله اليقين ونور البصيرة، وثبتنـا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز: (ص٩٧-٩٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص٣٧٧).

يُنفقون

قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

منذ بداية المصحف الشريف إلى نهايته يتكرر الحثُّ على بذل المال وإنفاقه في أعمال الخير، ويتوالى الترغيب في السخاء، وفي هذه الجلسة سنتناول الآيات الكريمات الواردة في سورة البقرة حول فضل النفقة والحثِّ عليها وشروطها؛ إذ يبيِّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بداية السورة الشريفة أنَّ من صفات عباده المتقين الإنفاق ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

يقول ابن كثير في تفسيره: «كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ حَقُّ اللهِ وَعِبَادَتُهُ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدِهِ وَالِابْتِهَالِ إِلَيْهِ، وَدُعَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ والإنفاق هو الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي إِلَيْهِمْ. وَأَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ الْقَرَابَاتُ وَالْأَهْلُونَ وَالْمَمَالِيكُ، ثُمَّ الْأَجَانِبُ، فَكُلٌّ مِنَ النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾»(١).

وقال ابن سعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: «يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والمماليك

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤).

ونحـو ذلك، والنفقات المسـتحبَّة بجميع طرق الخير، ولـم يذكر المُنفَق عليهم؛ لكثرة أسـبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قُربة إلى الله. وأتى بـ[مِن] الدَّالة على التبعيض؛ لينبِّههم أنه لم يُرد منهم إلّا جزءًا يسيرًا مـن أموالهم، غير ضارٍّ لهـم ولا مُثقِل، بل ينتفعون هـم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم. وفي قوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوَّتكم وملككم، وإنَّما هي رزق الله الذي خوَّلكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضَّلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعـض ما أنعم بـه عليكم، وواسـوا إخوانكم المعدميـن، وكثيرًا ما يجمع تعالـى بين الصلاة والـزكاة في القـرآن؛ لأن الصـلاة متضمِّنة للإخلاص للمعبـود، والزكاة والنفقة متضمِّنة للإحسـان على عبيده، فعنوان سـعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أنَّ عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان»(١).

إن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يعرض في هذه السـورة (البقرة) تسـاؤلات تَرِدُ على رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ويبيِّن الإجابة عنها، فيقول: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فكلُّ شـيءٍ يُنفَق يعلمه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولا يضيعه. وتتعاقب في آخر هذه السـورة الشريفة آيات الترغيب في الجود والعطاء، فالأعمار محدودة، والآجال محتومة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. «جـاء رجلٌ إلـى النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فقـال: يا رسـول الله: أيُّ الصدقة أعظم

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ص٤٠).

أجرًا؟ قال: **أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهِل حتى إذا بلغت الحلقوم، قُلتَ: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان**»(١).

هو المال جُبلت النُّفوس على حُبِّه ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ويسعى كل الناس للحصول عليه بكل الطرق، يشقون لأجله، ويتعرضون للأخطار في سبيله، فكيف يجودون به؛ ولذا كان الترغيب في إنفاقه مغريًا جدًّا في مقاومة الشعور بالإمساك؛ إذ يَعِدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمضاعفة الجائزة أضعافًا كثيرة، فيقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. كل ريال تتصدَّق به وأنت صحيحٌ شحيح، محفوظٌ لك ثوابُه، مُضاعَفٌ أجرُه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، فإيَّاك أن تتعالى في عطائك، وتَمُنَّ ببذلك، وتكسر نفوس الآخِذين ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، الله يمقت المَنّ، ويمنع الأذى، فاحفظ مالَكَ، وطَيِّب لسانَك، ورَقِّق قولَك، فذاك أفضل من كسر النفوس وإذلالها: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ولِما يُسَبِّبه المنُّ والأذى من خللٍ اجتماعي وكراهية في النفوس، وما يعقبه من حقدٍ، وبغضاء، وتباعد بين المعطِي والآخذ؛ فقد أكَّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكرَّر زجره عن ذلك السلوك المُشين وأثره في إبطال الصدقات، والانحراف

---

(١) أخرجه البخاري، (٣/ ٤٣٢ رقم ١٤١٩)، واللفظ له، ومسلم، (٢/ ٧١٦ رقم ١٠٣٢) من حديث أبي هريرة.

بالنيات عن مسارها القويم، فضلًا عن امتهان المحتاجين وإذلالهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قد تعطي اليوم وتأخـذ غـدًا، فلا تغترَّ بأموالك، فكم من غنيٍ افتقـر! وكم من فقيرٍ أعطى بعد أن أخذ!

هي الأرزاق بيد الله؛ فكن سخيًّا سمحًا حين تعطي وتجود، ولا تجود بـرديء المـال، وإن كان الفقيـر محتاجًا، فلا تمتهن حاجتـه، وتزيد غمَّه، فتعطيه ما سـمَّاه الله خبيثًـا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقـرة: ٢٦٧]. هـو الديـن الكامل ينشـد كمال النفوس، وعلو الهمَّة، وسـمو المجتمع ورفعته، ويبيِّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ذاك البُخْل، وذاك الضعف البشـري إنما هي وسوسـة الشـيطان، وتلبيس إبليس ووعده الماحق ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقـرة: ٢٦٨]، فانظـر أيَّ الوعديـن تختار! وضحَ الطريقُ، وبان الرشاد!

ويزداد الحثُّ الرَّبَّاني على الصدقة، فيخبر الله جَلَّ وَعَلَا أنَّ أي نفقة تنفقها -قلَّت أو كثرت- يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيكتب لك ثوابها وأجرها: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ [البقـرة: ٢٧٠]، ويحـثُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كتمان العطاء؛ كون الإخفاء أفضل في الأثر من الإظهار: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ [البقـرة: ٢٧١]. ومَـالُ الدنيا يُشـاركك فيـه أَهْـلُ بيتِـك، لكن نفقـات الآخـرة وصدقات الدنيا محفوظـةٌ لك وحـدَكَ لا يُشـاركك فيها أحدٌ سـواك ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ

﴿خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وحين تكون النفقة خالصةً لوجه الله يكون الجزاء وافيًا جزلًا ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وتأتي آية الطمأنينة للمنفقين في كل أحوالهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]. أجرٌ مضمون عند الخالق الرازق الرحمن الرحيم، وبشارةٌ من الكريم ملك الكون كلِّه، فما أنفقت فهو محفوظ، وما أنفقت فهو مخلوف عليك، ومثلما يعود النهر إلى البحر، يعود عطاء الإنسان إليه من طرق لم يكن يتوقَّعها. ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

هذه الدنيا أغيار؛ فيها الموسر والمعسر، الغني والفقير، الكريم والشحيح، فبورك لمن ملأ حياته بعمل الخير؛ وجَبَلَها على حب البذل.

وحتى تتوازن الحياة بين الناس بمختلف مستوياتهم؛ يُرغِّبُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في مساعدة المحتاجين، وبناء المجتمع المتماسك المتراحم: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وفق منهج محدَّد للعطاء؛ فلا مَنٌّ فيه ولا أذى، ولا زجرٌ، ولا ذلٌّ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ١٠]، ولا رديء المال وخبيثه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢].

يوم الظُّلَّة

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٩-١٩٠].

يوم عذاب ذكره الله في القرآن، طَفَّفَ قوم نبيِّ الله شعيب في كَيلهم ووزنهم، فنهاهم وقال لهم: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٤].

وسخروا من نبيِّ الله وتمادوا في غَيِّهم، فكان عذاب الله ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٩٠]. لقد بَيَّن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عاقبة الظلم وأكل أموال الغير بغير حقٍّ، كانوا يَغُشُّون في بيعهم، ويطفِّفون في وزنهم، والغشُّ خراب للمجتمعات، وخللٌ في العلاقات، فكان عذابهم يوم الظُّلَّة ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. احذَر التحايل في بيعك وشرائك، والزم العدل في كل تعاملاتك، لا تبخس أحدًا في حقِّه، فهذه القيم أساسٌ في عمارة الأرض، وفي استقرار المجتمعات، وطُمأنينة الشعوب.

إنَّ قوم شُعيبٍ ذهبوا ونالوا جزاءهم، وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن الخالد منهجهم الظالـم، وطريقتهم الباغية، وجزاءهم تذكرةً وعِظة، فهل نعتبر؟!

جاء في تفسير ابن كثير ما روي «عن عَبْدالرَّحْمَنِ بْن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، بَعَثَ الله إِلَيْهِمُ الظُّلَّةَ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ، كَشَفَ الله عَنْهُمُ الظُّلَّةَ، وَأَحْمَى عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ، فَاحْتَرَقُوا كَمَا يَحْتَرِقُ الْجَرَادُ في المَقلَى»[1].

وقد وَرَدت آياتٍ أُخرى تكشف أنواعًا من العذاب حَلَّت بهم غير الظُّلَّة؛ هي الصَّيحة، والرجفة. قال ابن كثير في تفسيره مُعلِّقًا: «﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]. قال: ذُكر هنا أَنَّه أَتَتْهُم صيحة، وفي الأعراف رجفةٌ، وفي الشعراء عذاب يوم الظُّلَّة، وهم أُمَّةٌ واحدة، اجتمعت عليهم يوم عذابهم هذه النِّقَم كلُّها، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيِّهم منها، وها هنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم، ناسب ذكر الصيحة التي أسكَتتهم وأخمَدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهذا من الأسرار الدقيقة»[2]، عدالةُ السماء، ودينُ الكمال،

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣١٢).
(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤١٢).

لا غـشَّ، لا تحايـل، وفاءٌ وعدل، هذا هو منهج الله، وهذه رسـالة رُسُـله، ووصية أنبيائه، ومن حادَّ وخالَف فالويل له.

إنَّ ذاك العذاب آيةٌ لمن جاء بعدهم، فحذارِ من التَّطفيف، وأخذ حقوق النـاس بغير حقٍّ، وإياك والتحايل واختلاس أموال الناس بغير حقٍّ؛ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

إن المُتبـع لموضـوع أداء الحقوق الدنيوية في القـرآن الكريم والوفاء والأمانة يجدُ عددًا من الآيات الزاجرة للآكلين الأموال بغير حق، والآيات النهاية للمتأولين أخذ حقوق غيرهم بالحيلة والمكر؛ فهؤلاء قوم شـعيب طففوا الكيل وكذبوا، فجاءهم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ فاحترقوا احتراقًا جسـديًّا أماتهم وبقي لهم العذابُ الخَالِد.

تحايل قومُ شُـعيب على الناس، وأكلـوا أموالهم بغير حق، واحترقت قلوبُ المغبونين، فأحرق اللهُ أجساد المحتالين المكذبين.

وفي آيات أُخرى نجدُ الزَّجرَ والنهيَ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

مما ورد في تفسير ابن كثير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَـالٌ، وَلَيْـسَ عَلَيْهِ فِيهِ بَيِّنَـة، فَيَجْحَدُ الْمـالَ، وَيُخَاصِمُ إِلَى الْحُـكَّامِ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ آثِمٌ آكِلُ حرامٍ.

وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَير، وَعِكْرِمَةَ، وَالْحَسَنِ، وقتَادة، وَالسُّدِّيِّ، وَمُقَاتِلِ بنِ حَيّان، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا تُخَاصِمْ وَأَنْتَ تعلمُ أَنَّك ظَالِمٌ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَر، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخِصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْملْهَا، أَوْ ليذَرْهَا**»[1]، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَلَا يُحِلُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَرَامًا هُوَ حَرَامٌ، وَلَا يُحَرِّمُ حَلَالًا هُوَ حَلَالٌ، وَإِنَّمَا هُوَ يَلْزَمُ فِي الظَّاهِرِ، فَإِنْ طَابَقَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَذَاكَ، وَإِلَّا فَلِلْحَاكِمِ أَجرُه وَعَلَى الْمحْتَالِ وِزْره؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقًا﴾ [أَيْ: طَائِفَةً] ﴿مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أَيْ: تَعْلَمُونَ بُطْلَانَ مَا تَدَّعُونَهُ وَتُرَوِّجُونَ فِي كَلَامِكُمْ.

قَالَ قَتَادَةُ: اعْلَمْ -يَا ابْنَ آدَمَ- أَنَّ قَضَاءَ الْقَاضِي لَا يُحِل لَكَ حَرَامًا، وَلَا يُحِقُّ لَكَ بَاطِلًا، وَإِنَّمَا يَقْضِي الْقَاضِي بِنَحْوِ مَا يَرَى وَيَشْهَدُ بِهِ الشُّهُودُ، وَالْقَاضِي بَشَر يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قُضِي لَهُ بِبَاطِلٍ أَنَّ خُصُومَتَهُ لَمْ تَنْقَضِ حَتَّى يَجْمَعَ الله بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقْضِيَ عَلَى المبْطِلِ لِلْمُحِقِّ بأجودَ مِمَّا قُضِيَ بِهِ لِلْمُبْطِلِ عَلَى المحِقِّ فِي الدُّنْيَا.

إن ذاك السلوك السيئ الذي مارسه قوم شعيب، والذي تكررت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في النهي والزجر عنه نراه اليوم واقعًا في عددٍ من المجتمعات المسلمة، فبعض القوم إذا وَعَظَهُم واعِظ سَخِروا

(١) أخرجه البخاري (١٧/ ٤٠٢ رقم ٦٩٦٧)، ومسلم (٣/ ١٣٣٧ رقم ١٧١٣).

منه، وكادوا يكرِّرون مقولة قوم شعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. وكم يكون الألم أكثر حين نشاهد بعض الملتزمين بالعبادات، لديهم قصور في المعاملات، تجدهم يحافظون على الصلوات والنوافل، لكن تراهُم في ساعات العمل يُطفِّفون؛ يتأخرون في الحضور، ويُسرعون في الخروج، إذا راجعهم صديقٌ أو قريب، يَرجون منفعته، هَشُّوا به وبَشُّوا، وأنجزوا حاجته في لحظات، وإذا كان المراجع زيدًا من الناس رأى منهم الصدود والتسويف، نَسُوا أن لديهم ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١-١٢]. وغفُلوا عن أذية هذا المُراجع ودعائه عليهم في سِرِّه «إن الدين المعاملة» ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

لقد انتشر الإسلام في شرق آسيا بالمعاملة التي بَهَرت سُكان تلك المناطق، جاءهم المسلمون بِقِيَم العدل، ورقابة السماء، واستحضار ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فلم يُطفِّفوا، ولم يختلسوا ما ليس لهم، فظهر الإسلام في معاملاتهم وأخلاقهم، فاقتدوا بهم، ودخلوا في دين الله أفواجًا.

خاتمة

الحمدُ لله أن يَسَّرَ وأعان لاكتمال المجالس الستِّين التَدَبُّرية في كتاب الله الكريم.

إن الوقتَ مع القرآن سعادةٌ وبهجة، فتدَبُّر آياته نعيمٌ يتجدّد، وسعادةٌ وانشراحُ صدر.

كتبنا اللهُ من خُدَّام القرآن الكريم وحُفَّاظه ومُتدبِّريه، ورزقنا اللهُ القولَ السَّديد، وهدانا للطيّب من القول.

والمجالس التي احتواها هذا الكتاب (جلساتُ تدبُّر) سيتبعُها -بعون الله- جلساتٌ أخرى مع المائدة القرآنية المباركة، فالجزء الثاني قيد الطباعة. نسأل الله نور البصيرة.